



نزول المسيح عليه السلام

(تفهم وتبين)

جاويد أحمد غامدي

(كُتب في ضوء حوار مع محمد حسن إلياس)

بقلم: الأستاذ السيّد منظور الحسن

ترجمة إلى العربية: د. محمد غطريف شهباز الندوي



مركز غامدي للتعلّم الإسلامي (GCIL)، المُورد، أمريكا

نزول المسيح

التفهم والتبيين

جاويد أحمد غامدي

نزول المسيح

التفهم والتبيين

جاويد أحمد غامدي

(كتب في ضوء حوار مع محمد حسن إلياس)

ألفه

الأستاذ السيد منظور الحسن

ترجمة إلى اللغة العربية

د. محمد غطريف شهباز الندوي

المساعدة في التحقيق والتدوين: شاهد محمود

مركز غامدي للتعلّم الإسلامي (GCIL)، المورد أمريكا

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: مركز غامدي للتعلم الإسلامي، المورد أمريكا

الطابع: شركة الطباعة، لاهور

الطبعة الأولى: مايو ٢٠٢٦م

ردمك (ISBN) : 978-1-9666600-46-6

العنوان: 3620 N Josey Ln, Suite 230 Carrollton, TX 75007

الموقع الإلكتروني: www.ghamidi.org

البريد الإلكتروني: info@ghamidi.org

فهرس المحتويات

١١	فاتحة الكتاب
١٥	التعريف بالقضية
١٩	الباب الأول: نزول المسيح .نصوص القرآن والحديث
٢١	نصوص القرآن
٢١	١. آيات ٥٤-٥٥ من سورة آل عمران
٢٣	٢. آيات ١٥٧-١٥٨ من سورة النساء
٢٤	٣. آيات ١١٦-١١٧ من سورة المائدة
٢٧	نصوص الحديث
٢٧	الحرب بين المسلمين والمسيحيين في الشام
٢٨	فتح القسطنطينية
٢٩	ظهور الدجال
٢٩	شخصية الدجال
٢٩	إجراءات الدجال وأعماله

- ٣٠ إقامة الدجال على الأرض
- ٣٠ نزول عيسى عليه السلام
- ٣١ شخصية السيد المسيح عليه السلام
- ٣١ إمامة الصلاة
- ٣١ عيسى عليه السلام ومعركته مع الدجال
- ٣٢ نهاية جيش الدجال اليهودي
- ٣٣ خطوات يتخذها المسيح عليه السلام بعد انتصاره بعد الفتح
- ٣٣ خروج يأجوج ومأجوج ونهايته
- ٣٤ ظهور بركات الأرض
- ٣٤ نهاية جميع الأديان باستثناء الإسلام
- ٣٤ إقامة السلام والأمن على الأرض
- ٣٥ تغيير في طبيعة الحيوانات المؤذية
- ٣٥ كثرة المال والثروة
- ٣٥ فضل العبادة
- ٣٦ حكمُ السيد المسيح عليه السلام
- ٣٦ وفاة سيدنا عيسى عليه السلام
- ٣٦ الريح التي تقبضُ أرواحَ المسلمين
- ٣٦ النفخُ في الصور
- ٣٧ اختيار أهل النار
- ٣٧ نصوص الحديث

٤٨ الباب الثاني: نزول المسيح - موقف العلماء

٥٠ دلائل رفع المسيح

٥٠ ١. الاستدلال من آيات ٥٤-٥٥ من سورة آل عمران

٦٦ ٢. آيات ١٥٦-١٥٩ من سورة النساء

٧٢ دلائل نزول المسيح

٧٣ ١. أساس مفهوم نزول المسيح: الأحاديث

٧٤ ٢. تواتر روايات نزول المسيح

٧٥ ٣. الاستدلال بآية سورة الزخرف (الآية ٦١)

٧٨ متعلقات تصور نزول المسيح

٧٩ أولا: شمول تصور نزول المسيح في العقائد

٨٠ ثانيا: إجماع علماء الأمة على فكرة نزول المسيح

٨٢ ثالثا: نزول المسيح وختم النبوة

٨٦ الباب الثالث: إشكالية نزول المسيح عند غامدي

٨٩ القرآن وإشكالية نزول المسيح عند غامدي

الإشكالية الأولى: عدم ذكر نزول المسيح في القرآن الكريم رغم

٩٠ مناسبات ذكره

١٠٠ الإشكال الثاني: الحوار بين الله تعالى والمسيح عند القيامة

الإشكال الثالث: الإعلان عن عمل يسوع المسيح الكامل وعدم

١٠٤ ذكر نزوله

١٠٦ إشكالية نزول المسيح والأحاديث عند الأستاذ غامدي

الإشكال الأول: لايوجد حديث عن نزول المسيح في المصادر
الحديثية الأولى ١٠٩

الإشكالية الثانية: ليس هناك أي حديث عن نزول المسيح في
المصدر الحديثي الأول ١١٣

الإشكالية الثالثة: قد قبل الإمام البخاري فقد عدة من أحاديث
نزول المسيح فقط ١٢٠

الإشكالية الرابعة: تعيين الوقت لنزول المسيح في حديث مسلم ١٢٤
الإشكالية الخامسة: اختلاف ذكر نزول المسيح عليه السلام
في رواية واحدة من وجهين ١٤٠

الإشكالية السادسة: بعض روايات أشراف الساعة لاتذكر نزول
المسيح ١٤٥

الإشكالية السابعة: بعض المفارقات في آثار وأحاديث نزول
المسيح والروايات الأخرى ١٥٠

الباب الرابع: نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ١٥٣

١. رواية من باب نزول المسيح ١٥٥

٢. بيان نزول المسيح في الرؤيا ١٦٠

٣. رؤيا الأنبياء ١٦٣

٣. تعبير المشاهدات التمثيلية ١٦٦

٥. مصداقية بيان نزول المسيح ١٧١

٦. تفهيم تمثيل نزول المسيح ١٨٠

- ١٩٠ . ٤. "نزول المسيح" بمعنى "نزول هداية المسيح"
- ١٩٤ الباب الخامس: إشكاليات واردة على موقف غامدي
- ١٩٦ ١. المراد بـ "إِنِّي مُتَوَفِّيكَ"
- ١٩٧ معانى "توفى"
- ٢٠٧ أمثلة من القرآن على أن معنى "توفى" هو قبض الروح
- ٢٢٢ "توفى" بمعنى قبض الروح: أمثلة من الحديث النبوي
- ٢٢٤ استخدام صيغة "توفى" في معنى النوم
- ٢٣١ ٢. "إِنِّي مُتَوَفِّيكَ": من منظور تفسير المولانا الإصلاحى
- ٢٤٧ ٣. مفهوم "ورافعك إلي"
- ٢٥٠ ٣. ما هو المراد بـ "قَبْلَ مَوْتِهِ" في سورة النساء
- ٢٦٩ ٥. مصداقية "وإنه لعلم للساعة"
- ٢٧٤ ٦. هل يعد الاعتقاد بنزول المسيح جزءاً من الإيمانيات؟
- ٢٨٠ ملخص المباحث المتقدمة
- ٢٩٨ الملحق: آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح





فاتحة الكتاب

يتناول هذا البحث موضوع نزول المسيح عليه السلام من خلال عرض وتحليل موقف أستاذنا الجليل جاويد أحمد غامدي حفظه الله وقد بُني هذا العرض على سلسلة حوارية موسّعة له بعنوان إجابات على ٢٣ اعتراضًا على فكر غامدي، وتحديدًا الحلقات من (٢٧-٣٣)، حيث جرى فيها تناول أبرز الاعتراضات الدينية التقليدية الموجهة إلى اجتهاداته، والتي يعتبرها بعض العلماء مخالفة لما يُسمّى بالإجماع الفقهي أو العقدي.

تقوم هذه الاعتراضات عادةً على تأويلات متوارثة للنصوص القرآنية والحديثية والسيرة النبوية، بينما رأى الأستاذ غامدي أنها لا تتفق مع القرآن الكريم في محكماته، ولا مع السنة الصحيحة القطعية، ولا مع ما ثبت من حقائق الحديث والسيرة. ومن هنا كان رفضه لها، جزئيًا أو كليًا، مع تقديم قراءة مغايرة تستند إلى النصوص الأصلية وفهمها المتكامل.

جاءت هذه النقاشات في صورة حوار سؤال وجواب أداره السيد محمد حسن إلياس بلغة بليغة وأسلوب رصين؛ فبدأ بعرض الرأي التقليدي وحججه، ثم تولى الأستاذ غامدي تفنيد تلك الحجج واحدة تلو الأخرى، قبل أن يقدم موقفه الخاص بوضوح وصراحة.

وقد قمت بجمع هذه الحوارات وتحويلها إلى بحوث مكتوبة، فقسّمت موضوعاتها، ووضّحت محاورها، وأدرج الاقتباسات المهمة من مؤلفات الأستاذ غامدي مع الإحالات العلمية اللازمة. وهكذا صارت مادة لم تكن متاحة إلا في صيغتي الصوت والصورة، في متناول القراء والباحثين بصيغة مكتوبة، تسهّل مراجعتها والاستفادة منها. وتلقيت خدمات الأخ شاهد محمود في أعمال التحقيق والبحث الذي قام بواجبه بمسؤولية عالية كما ساهم في أعمال الترتيب والتدوين الأخوان شاهد رضا ومعظم صفدر بجدية عالية. وهذه المقالات تعبّر أساساً عن أفكار الأستاذ غامدي، ولكنها في الوقت نفسه مرّت بمراجعته المباشرة، مما أتاح تصحيح بعض الهفوات التي قد تقع في الفهم أو البيان.

إن إعادة صياغة هذا الجهد العلمي في صورة مكتوبة، مستندة إلى حوارات أستاذنا الكريم وتوجيهاته، يُعدّ فضلاً من الله سبحانه وتعالى ونعمة تستحق الحمد والشكر؛ إذ هو عمل يفوق طاقة المؤلف وجهده الفردي.

———— فاتحة الكتاب ————

وأخيراً، فإن إعداد هذه السلسلة البحثية ونشرها يتم تحت رعاية مركز غامدي للتعلم الإسلامي المورد بأمريكا، سائلين الله تعالى أن يتقبّل هذا العمل المؤسسي والفردى، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. آمين.

— السيد منظور الحسن

أكتوبر ٢٠٢٥م



التعريف بالقضية

تقوم مسألة نزول المسيح عليه السلام على أربعة تصوّرات رئيسة، شكّلت أساس النقاش العقدي والتفسيري في التراث الإسلامي:

١. تصوّر الرفع:

ويُراد به أنّ بني إسرائيل لما همّوا بصلب المسيح عليه السلام، تولّاه الله تعالى وحفظه، فرفعه إليه. ويستند هذا التصور إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾^١ حيث فسّرت عبارة ﴿ورافعك إليّ﴾ بأن الله رفع المسيح حيّاً، بينما أوّلت كلمة متوفيك هنا بمعنى "الاستيفاء والقبض" لا بمعنى "الموت".

٢. تصوّر الحياة:

ويفيد أنّ المسيح عليه السلام منذ رفعه إلى الله ما يزال حيّاً في السماء حتى الآن. ويُستشهد لذلك بآيات من سورة النساء (١٥٧-١٥٩)، ولا سيما قوله تعالى:

^١ آل عمران ٣: ٥٥.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾. كما يُستدل من قوله تعالى :
﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أنّ الضمير في "به"
و"موته" عائدان إلى المسيح، أي أنّه لم يمت بعد، وسيؤمن به كل
أهل الكتاب قبل وفاته.

٣. تصوّر النزول:

وهو مبني على الأحاديث النبوية، ويتضمن أنّ المسيح عليه السلام
سينزل قبيل يوم القيامة على مئذنة في دمشق، في وقت تكون فيه
فتنة الدجال قد عمّت الأرض. وسيقود المسيح جيش المسلمين للقضاء
على الدجال وأتباعه، ثم يهلك الله يأجوج ومأجوج بدعائه، لتسود
بعد ذلك حقبة من الأمن والسلام لا يبقى فيها على الأرض دين سوى
الإسلام.

٤. تصوّر الوفاة:

ومؤداه أنّ المسيح عليه السلام بعد نزوله سيعيش نحو أربعين سنة،
ثم يتوفاه الله تعالى، ويُدفن جسده الشريف في الأرض، لتكون تلك
المرحلة إيذاناً بقرب وقوع الساعة. ويستند هذا التصرّو إلى بعض
الأحاديث والآثار.

أما الأستاذ الجليل جاويد أحمد غامدي، فيقبل بحادثة رفع المسيح،
لكنه يرفض القول ببقائه حيّاً إلى اليوم، ويرى أنّ ذلك مخالف لصريح
القرآن. فعبارة ﴿إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ﴾ - في نظره - لا تحتل إلا معنى "الوفاة"،

ولا يصح صرفها إلى غير ذلك. ويفسر قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا إِلَيْكَ﴾ بأن الله رفع جسده الطاهر بعد وفاته؛ وكان ذلك لحمايته من الإهانات التي أراد اليهود إنزالها به. أمّا مسألة نزوله آخر الزمان، فيعتبرها مجالاً للبحث والنظر، نظرًا للإشكالات التي تثيرها أحاديث النزول عند عرضها على القرآن وفحص أسانيدھا ومتونها وفق أصول النقد الحديثي. وهذه الإشكالات - في تقديره - تحول دون الإيمان بوقوع نزول ثانٍ للمسيح. ويأتي هذا الكتاب لعرض موقف الأستاذ الجليل من هذه القضية، وقد بُني على خمسة أبواب:

• الباب الأول: نزول المسيح في ضوء نصوص القرآن والحديث، حيث جُمعت الآيات والروايات التي استُمدت منها مفاهيم الرفع والحياة والنزول والوفاة.

• الفصل الثاني: آراء العلماء في المسألة، وذلك لإبراز الخلفية العلمية التي جاء موقف الأستاذ ضمنها.

• الفصل الثالث: عرض الإشكالات التي ذكرها الأستاذ استنادًا إلى العقل والنقل، والتي تحول دون قبول مفهوم نزول المسيح.

• الفصل الرابع: بيان الموقف التفصيلي للأستاذ، مع توضيح منهجيته في النظر إلى النصوص واستدلالاته منها.

• الفصل الخامس: دراسة مقارنة، تناول فيها أدلة القائلين بالنزول ومناقشتها، وبيان ما يراها الأستاذ من نقائص فيها مقارنة بموقفه.

———— التعريف بالقضية ————

ويُحتتم الكتاب بملحق يضم آراء طائفة من العلماء الذين لم يذهبوا
إلى القول بنزول المسيح، ليكون عونًا للباحثين الراغبين في المزيد من
التوسّع والتحقيق في هذا الموضوع.



نزول المسيح - نصوص القرآن والحديث

إِنَّ عيسى عليه السلام كان خاتَمَ أنبياء بني إسرائيل، بُعثَ في نحو خمسة قرون قبل بعثة سيّدنا محمدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، وشَرَفَه اللهُ تعالى بمنصب النبوة والرسالة. فجاءت رسالته إتماماً للحجّة على بني إسرائيل، وجعل اللهُ حياته كلّها آيةً للبعث والنشور؛ من مولده العجيب، إلى حياته المليئة بالمعجزات، إلى وفاته، كلّها أحداثٌ خارقة للعادة وظواهرٌ نادرة.

وقد وصفه القرآن الكريم بأنّه "كلمة الله" و "روحٌ منه" واعتبره آيةً للعالمين، كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عيسى بن رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه﴾^{٢٠}

وقال:

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^{٢١}

^١ أي كان كلمة من الله وروح منه نفخ في عيسى كما نفخ في آدم وحواء.
(البیان ١/ ٥٨٢)

^٢ النساء: ٤: ١٤١.

^٣ الأنبياء: ٢١: ٩١.

ومع مرور الزمن شاع في الأمة الإسلامية تصوّر واسع حول رفع المسيح عيسى عليه السلام ونزوله آخر الزمان؛ حيث يعتقد كثير من الناس أنّه حينما حاول بنو إسرائيل صَلْبَهُ، نجّاه الله منهم ورفعهُ إليه، فهو الآن حيٌّ في السماء، وسيبقى كذلك إلى قرب قيام الساعة، ثم ينزل إلى الأرض ليقوم بمهامّ محدّدة، وبعدها يُتوفّى.

والنصوص القرآنية والحديثية التي يُستدل بها على هذه التصورات سيأتي بيانها في الصفحات التالية.



نصوص القرآن

القرآن المجيد قد أكثر من ذكر المسيح عليه السلام مراعاةً لأهل الكتاب المتواجدين في أرض العرب. وكان الهدف من هذه التوضيحات هو دحض ادعاءاتهم الباطلة ونظرياتهم الكاذبة. ومن بين هذه القضايا قضية و موضوع وفاة المسيح عليه السلام ورفعته إلى الله، وقد ذكر هذا الأمر في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم.

١- سورة آل عمران، الآيات ٥٢-٥٥

يتألف أحد المقاطع من سورة آل عمران (٣) من الآيات ٥٢-٥٥ يبدأ السياق في الآية رقم ٣٣ في البداية حيث قال إن الله قد اختار آدم ونوحا عليهما السلام في ذاتهما الفردية، واصطفى ذُرِّيَّةَ إِبْرَاهِيمَ بني إسرائيل وبني إسماعيل كَأُمَّةٍ لِلنُّبُوَّةِ والرسالة وَلِلشَّهَادَةِ عَلَى النَّاسِ فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.^٤

أي يريد أهل الكتاب هؤلاء أن يجادلوكم على أن الله قد اصطفى آدم

^٤ آل عمران ٣: ٣٣-٣٤.

ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على جميع العالمين (لهداية وترشيدهم) هم ذرية بعضها من بعض، والله خبير بما يقولون ويفعلون لأنه سميع عليم"

فهنا قد تم ذكر آل عمران، أي عائلة عمران، كمقدمة لذلك الكلام الذي سيأتي قدمًا بخصوص سيدنا المسيح عليه السلام الزهرة الرائدة لتلك العائلة.

وقد جاء ذكر بعد هذه المقدمة، قصة السيدة مريم عليها السلام والدة السيد المسيح عليه السلام. وقد بين كيف أن والدتها نذرتها لله أثناء الحمل، ثم إنها لما ولدت قد كفلها الله خالها زكريا، فدخلت في بيت المقدس في كفالته وتربيته وانكبت على عبادة الله ليلا ونهارًا، وكيف اختارها الله مفضلًا إياها على نساء العالم لظهور آيته العظمى؛ ثم كيف بشرها الله بالسيد المسيح وأعلمها أنه سيعلن نبوته في مهدها؛ ثم كيف بدأ سيدنا المسيح عليه السلام دعوته لبني إسرائيل وأخبرهم بالآيات التي وهبت له من عند الله، فكان يشفي الأعمى الطبيعي بإذن الله ويعالج الأبرص الذي لا علاج له، ويحيي الموتى؛ ثم بعد ذلك كيف رفع نداء ﴿من أنصاري إلى الله﴾ عندما أنكر بني إسرائيل دعوته وجحدوها وكيف أجابه الحواريون على دعائه بقولهم ﴿نحن أنصار الله﴾.

فهذه هي الخلفية وهذا هو السياق الذي جاءت فيه الآيات من النساء ٥٢- ٥٥ ومن ذلك يتضح أن بني إسرائيل بدأوا:

(١) بالتأمر سرًا ضد النبي عيسى عليه السلام ليتمكنوا من صلبه
بتهمة مفتعلة.^٥

وقد أخبر الله تعالى أن مكائدهم لا وزن لها أمام تدبيراته. لذلك
أوضح الله تعالى لنبيه المسيح عليه السلام تدبيره قائلاً:
﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَى الْخَشَاةِ وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

٢- سورة النساء، الآيات ١٥٧-١٥٨

والمقام الثاني هو الآيات ١٥٧-١٥٨ من النساء. وهو من آخر أجزاء
سورة النساء. وتبدأ سلسلة الكلام فيها بآية ١٥٣ من سورة النساء حيث
قال مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، فأعلم
النبي صلى الله عليه وسلم أن طلباتهم لا تثير عجباً، لأنهم كانوا دائماً
يقدمون مثل هذه المطالب. فقد طلبوا من موسى عليه السلام ما هو
أعظم من ذلك، أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة. ثم عدد القرآن
جرائمهم الفظيعة، وبين أنه أعد لهم عذاباً أليماً بسببها، ومن هذه

^٥ وتفيد الآية ١٥٧ من النساء أن بني إسرائيل قد أرادوا صلب المسيح عليه
السلام وقتله، ولكنهم فشلوا في ذلك باذن الله.

الجرائم أنهم افتروا على السيدة مريم، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، وزادوا على ذلك فادعوا زورا أنهم نجحوا في فعلهم الشنيع، والحقيقة أنهم أخفقوا في تأمرهم ووقع لهم الاشتباه، ورفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وقال الله في ذلك:

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات، فغفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطانا مبينا، ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم، وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا، وقلنا لهم لا تعدوا في السبت، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاننا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم. وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما﴾^٦.

٣- الآيتان ١١٦-١١٧ من سورة المائدة

المقام الثالث هو الآيات ١١٦- ١١٧ من سورة المائدة (٥). فهنا تم نقل الحوار الذي سيجري بين الله تعالى وعيسى عليه السلام في يوم

^٦ النساء ٤: ١٥٣-١٥٨.

القيامة . كأن الله تعالى قد استبق لإخباره عن حادثة ستحدث في المستقبل .

ففي هذا النص يتحدث عن يوم القيامة حيث سيسأل الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام أمام أتباعه - النصارى - قائلاً: هل قلت لهم أن يتخذوك وأمك إلهين من دون الله؟ وسيجيب سيدنا عيسى عليه السلام قائلاً: كيف يصح لي أن أقول لناس ما ليس لي بحق؟ إذا كنت قد قلت هذا الأمر أو كان في قلبي شيء ما مثل ذلكما خفي عليك . لقد قلت لهم فقط ما أمرتني به . ثم سيضيف قائلاً: طالما كنت بينهم كنت الرقيب عليهم، وعندما توفيتني لم أكن بعد ذلك حارساً عليهم . لذا فإنك منذ وفاتي إلى يوم القيامة كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت الأعلم بالأمر مني .

في هذه الآيات جاءت الكلمات ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثم إنك عندما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد .

ومن هذه الكلمات يتبين بوضوح أن سيدنا المسيح عليه السلام بعد وفاته ورفعته إلى الله كان غير مدرك لأُمُور وأعمال أتباعه حتى يوم القيامة .

والآيات هي كالتالي:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي

———— نزول المسيح - نصوص القرآن والحديث ————

نَفْسِكَ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ

فهذه هي الآيات من القرآن الكريم بشأن وفاة المسيح عليه السلام
ورفعه إلى الله، منها ما هو في سورة آل عمران حيث يتم ذكر الوفاة
والرفع معاً. وفي سورة النساء يتم ذكر الرفع فقط، بينما في سورة المائدة
يتم ذكر الوفاة فقط. وبهذا يظهر أن الله تعالى قد توفى المسيح عليه
السلام أولاً ثم رفعه إليه.



نصوص الحديث

إن موضوع نزول المسيح يحتوي على ما يقرب من أربعين رواية، نُقلت في الصحاح الستة، وفي جميع دواوين الحديث فيما قبلها وبعدها تقريباً. وجاءت هذه الروايات من قبيل الدرجات الثلاثة: الصحيحة والحسنة والضعيفة. والتفاصيل التي تظهر من المفهوم المجموعي لهذه الروايات تُدرج كنقاط فيما يلي:

الحرب بين المسلمين والمسيحيين في الشام

* سيحدث حرب على أرض الشام قبل قيام الساعة.

* وتأسر حكومة المسلمين في الشام عدة رجال من النصارى . ورداً على هذا يجهز جيش النصارى للهجوم على الشام، وسوف يتقدمون حتى يصلوا إلى داخل الشام إلى منطقة "أعماق" أو "دابق".

* عندما تصل أنباء هذا الهجوم إلى حكومة المسلمين في المدينة المنورة، فإنهم يقومون بإرسال جيشهم لمساعدة أهل الشام وهذا الجيش يتكون من مسلمين صالحين للغاية.

* وعندما تكون هذه الجيش مستعدة لمواجهة جيش المسيحيين يتم

إبلاغها من قبل جيش المسيحيين بعدم التدخل في أمورهم والابتعاد عن الطريق.

* ويرفض جيش المسلمين في المدينة التراجع قائلين: لن نترك إخواننا وحدهم في مواجهتكم.

* بعد ذلك ستبدأ الحرب بين الجيشين.

* ومع بداية الحرب، يهرب ثلث جيش المسلمين. فيكون هذا جريمة كبيرة ولن يغفرها الله تعالى.

* ويستشهد ثلث جيش المسلمين. وهؤلاء المستشهدون يكونون عند الله من أفضل الشهداء.

* وسوف يحقق الثلث الباقي من الجيش المسلم النصر على المسيحيين ويتنصر.

فتح القسطنطينية

* وبعد الحرب التي يحقق فيها المسلمون النصر في بلاد الشام يتوجه الجيش الإسلامي نحو مركز المسيحيين في القسطنطينية بدلاً من العودة إلى المدينة.

* وهناك تحدث الحرب، وتفتح القسطنطينية وتصبح تحت سيطرة المسلمين.

* يتم توزيع الغنائم بعد تحقيق النصر.

* والجنود المسلمون يكونون مطمئنين وغير خائفين لدرجة أنهم

يعلقون سيوفهم على أشجار الزيتون.

ظهور الدجال

* في هذه الأثناء، يخبرهم الشيطان إعلاناً أن المسيح الدجال قد وصل إلى أهلهم وعيالهم في الشام.
* وعند سماع ذلك، ينسحب جيش المسلمين من القسطنطينية.

شخصية الدجال

المسيح الدجال يكون شاباً. لونه يكون قمحياً شعره يكون أجعد قوطاً.

* ويكون أعمى في إحدى عينيه.
* وعينه تكونان مغطاة بلحم كثيف.
* مكتوب بين عينيه كافر.
* يكون مشابهاً لشخص من زمن الجاهلية وهو عبد العزى بن قطن.^٧
* ويسير بسرعة الرياح.

إجراءات الدجال وأعماله

ويأمر السماء بأن تمطر، فتبدأ الأمطار في النزول.

^٧ عبد العزى بن قطن بن عمرو الخزاعي كان ابن هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها ومات على الجاهلية.

- * ويأمر الأرض أن تنبت الشجر فتنبته.
- * ويأمر الأرض بأن تخرج كنوزها فتخرجها.
- * وبأمره تعود الماشية من مراعيها بحيث تكون سنامها طويلة وأوراقها عريضة وممتدة، وأضرعها مليئة بالحليب.
- * ويقسم جسد شخص إلى نصفين ويقتله، ثم يناديه فيعود إليه حياً ضاحكاً.
- * والناس سوف يقبلون دعوته عندما يرون أعماله تلك البطولية.
- * أول من يتبعها النساء العامة والإماء.
- * ويدّعي أنه رب
- * ويرغب في دخول المدينة، لكنه لن يتمكن من الدخول فيها.

إقامة الدجال على الأرض

إنه ينشر الفساد في الأرض ويبقى في العالم لمدة أربعين يوماً وأربعين شهراً أو أربعين سنة.

نزول عيسى عليه السلام

وعند عودة الجيش الإسلامي من القسطنطينية إلى الشام وعندما يصطفون لأداء صلاة الفجر، في ذلك الوقت ينزل سيدنا عيسى عليه السلام.

ينزل من السماء مباشرة وينزل عند منارة بيضاء في الجانب الشرقي لمدينة دمشق، أو حسب بعض الروايات ينزل قريباً من المدينة المنورة في مكان يدعى روحاء. وينزل واضعاً يديه على أجنحة الملائكة عند النزول.

—— نزول المسيح - نصوص القرآن والحديث ——

شخصية السيد المسيح عليه السلام

يكون طول السيد المسيح عليه السلام متوسطًا. لون وجهه يكون أحمر وأبيض.

وعلى الرغم من جفاف شعر الرأس، إلا أنه يبدو وكأنه مبتل وتبدأ قطرات الماء بالتقاطر منه وعندما يخفض رأسه تتساقط قطرات الماء، وعندما يرفع رأسه تتساقط حبات من الفضة البيضاء.

وفي الشكل الظاهري يكون مشابها بعروة بن مسعود.^٨ ويكون مرتديا ملابس ذات اللون الأصفر.

إمامة الصلاة

ويطلب أمير المسلمين آنذاك من عيسى عليه السلام أن يتقدم للإمامة.

فيقول عيسى عليه السلام إن إمام المسلمين هو الذي أحق بإمامة الصلاة. ولذا يؤمهم المهدي.

ولكن هناك بعض الروايات تقول بأن عيسى عليه السلام هو الذي يؤم الصلاة.

عيسى عليه السلام ومعركته مع الدجال

ثم يخرج عيسى عليه السلام لمحاربة الدجال.

^٨ الصحابي المعروف عروة بن مسعود الثقافي. كان شخصية موثوقة في قریش. وكان جميلا جدا ووشخصية وجیهة .

والدجال بدوره عندما يراه، يبدأ في التحلل تماماً مثلما يذوب الملح في الماء وكأن الوضع يكون أنه إذا تركه السيد المسيح عليه السلام على حاله، فسينتهي. بالتحلل والتلاشي من تلقاء نفسه.

لكن عيسى عليه السلام يقوم بقتله بحراة له بأمر الله. وذلك حين يأخذه إلى البوابة الشرقية للُد^٩ ويقتله بالطعن بالرماح بالقرب من مضيق أفيق^{١٠}.

وبعد القتل يعرض للناس رحمه الذي يكون عليه دم الدجال.

نهاية جيش الدجال اليهودي

جيش الدجال يتكون من سبعين ألف يهودي. وبعد قتل الدجال يحاول اليهود الاختباء، لكنهم لن يجدوا مأوى. فيحاولون الاختباء خلف الأشجار والحجارة. ولكن الأشجار والحجارة تتكلم وتخبر يا روح الله، انظروا، اليهود هنا موجودون. ونفحة من نفس عيسى عليه السلام تصل إلى أي يهودي - والذي سيبلغ مدى بصره فلن يبقى حيًا.

^٩ لد (Lydd) هي مدينة في فلسطين، تقع بالقرب من العاصمة الإسرائيلية تل أبيب.

^{١٠} أفيق هي مدينة سورية تقع على الحدود مع إسرائيل. بالقرب منها بحيرة طبرية التي ينبع منها نهر الأردن. إلى الجنوب الغربي يوجد مسار منخفض بين الجبال. يعرف هذا الطريق باسم وادي أفيق أو عقبة أفيق.

فَقَدْ يُقْتَل جميع اليهود في الجيش

خطوات يتخذها المسيح عليه السلام بعد الفتح

بعد انتصاره على الدجال، يقوم السيد المسيح عليه السلام بتحطيم الصليب.

ويقتل الخنزير وتوقف الحرب والحزبية

خروج ياجوج وماجوج ونهايته

بعد فترة من نهاية الدجال، يوجه الله تعالى نداء إلى النبي عيسى عليه السلام ليجمع المسلمين عند جبل الطور في هذا الأثناء يخرج ياجوج وماجوج، ويهجمون من كل مرتفع يعبرون بحيرة طبرية^{١١} أو ما يسمى ببحر الجليل (Sea of Galilee) ويشربون كل مياهه.

فيصلون قرب جبل المقدس ويرمون السهام لقتل أهل السماء فيردها الله إليهم وقد تلطخت بالدماء ثم يحاصرون عيسى عليه السلام وأصحابه.

عيسى عليه السلام يتضرع إلى الله لحمايته منهم. ويخلق الله في أعناقهم دودة، والتي بسببها يموتون جميعاً دفعة واحدة.

^{١١} أكبر بحيرة مياه عذبة في إسرائيل. تبلغ مساحتها ١٦٦ كيلومترا مربعا.

وكل المنطقة تمتلئ بحشهم.

ويدعو عيسى عليه السلام للنجاة منهم، فيرسل الله طيوراً مثل الإبل التي تأخذهم وتحملهم إلى الكهوف.
تكون سهامهم وجعابهم كثيرة لدرجة أن المسلمين سيظلون يحرقونها لمدة سبع سنوات حتى تنتهي.

ظهور بركات الأرض

ببركة عيسى عليه السلام، تنبت الأرض رماناً يكفي لفرقة بأكملها يكون هذا الرمان كبيراً لدرجة أن الناس يستطيعون اتخاذ قشره مظلةً. وحليب ناقة يكفي لجماعة، وحليب بقرة يكفي لقبيلة كبيرة، وحليب شاة يكفي لقبيلة صغيرة.

نهاية جميع الأديان باستثناء الإسلام

وتندثر جميع الأديان الأخرى سوى الإسلام. تملأ الأرض بالمسلمين كما يمتلئ الوعاء بالماء. وفقاً لبعض الروايات، تملأ الأرض بالإسلام كما يمتلئ البئر بالماء.
كلمة البشر تكون لا إله إلا الله ولن يُعبد على الأرض سوى الله.

إقامة السلام والأمن على الأرض

تصبح الأرض مهذاً للسلام. وتعمّ السلامة في كل مكان.
إزالة العداوة والبغضاء من العالم.

— نزول المسيح - نصوص القرآن والحديث —

ويتصالح الناس الغاضبون، وتنتهي العداوات. حتى أن الحاجة إلى السيوف تنتهي ويصنع منها المناجل.

تغيير في طبيعة الحيوانات المؤذية.

الحيوانات المؤذية لن تبقى مؤذية فيلعب الطفل الصغير مع الأفعى ولن تؤذيه.

تتعاش الحيوانات بسلام فيما بينها. وتكون الحالة أن الأسد والفهد والذئب والجمال والأبقار والمعز، أي الحيوانات المفترسة والأليفة، سترعى معاً.

كما يكون الذكر الكلب راعياً في الغنم أو الماعز، كذلك يكون الأسد راعياً للإبل.

كثرة المال والثروة.

تزداد كثرة المال والثروة.

تنزل السماء رزقها والأرض تخرج بركاتها. يتم القضاء على الفقر. تنتهي حاجة المحتاجين. لذلك، يرغب الناس في توزيع المال، ولكن لن يجدوا من يقبله.

فضل العبادة

تكون أهمية العبادة فوق كل شيء.

يعتبر الناس أن السجدة الواحدة في حضرة الله أفضل من الدنيا وما فيها.

—— نزول المسيح - نصوص القرآن والحديث ——

حَكَمُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يحكم السيد عيسى عليه السلام المسلمين باعتباره إماماً عادلاً وحاكماً منصفاً.

ويبقى في الأرض لمدة أربعين عاماً.

وفاة سيدنا عيسى عليه السلام

بعد مرور أربعين عاماً من نزول عيسى عليه السلام يتوفى.
ويصلي المسلمون صلاة الجنازة عليه ويدفنونه.

الريح التي تقبض أرواح المسلمين

ستهبُّ ريحٌ باردةٌ من جهة الشام.
تدخل هذه الريح تحت آباط المسلمين فتقبض أرواحهم.
ونتيجةً لذلك، لا يبقى على وجه الأرض مسلمٌ واحد.
ولا يبقى إلا الأشرار، وعليهم تقوم الساعة.

النفخ في الصور

ثم يُنفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعقُ الناسُ كلُّهم عند سماعها.

ثم ينزل مطرٌ، تكون قطراته كالنطفة البشرية.
فينبتُ الموتي من الأرض بسبب ذلك.

ثم يُنفخ في الصور النفخة الثانية، فيقوم الناسُ جميعاً.

وأخيراً يُدعى الناس كلُّهم إلى ربهم للحساب.

اختيار أهل النار

بعد حساب الأعمال، يُفصل أهل النار من بين الناس.
وتكون النسبة أن من كل ألفٍ يُؤخذ تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعون
لِلنار.

نصوص الحديث

إِنَّ الروايات الحديثية التي تحتوي على هذه النقاط هي كما يلي:^{١٢}
١- ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليوشكن أن
ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير^{١٣}،

^{١٢} الحديث صحيح.

^{١٣} يشرح المولانا أبو الأعلى المودودي كسر الصليب وقتل الخنزير قائلاً:
"هذا يعني أن المسيحية ستتوقف عن كونها ديانة منفصلة. يعتمد
صرح الدين المسيحي بأكمله على الاعتقاد بأن الله أمات ابنه الوحيد
(يسوع) على الصليب موتاً عيناً، مما جعله كفارة عن خطيئة الإنسان.
والسمة المميزة للمسيحيين بين أمم الأنبياء أنهم رفضوا شريعة الله بأكملها
اكْتفاءً بأساس العقيدة، بل وجعلوا الخنزير مشروعاً، والذي كان محرماً في
شرائع جميع الأنبياء. لذلك عندما يأتي المسيح ويعلن بنفسه أنني لست
ابن الله، وأناي لم أمت على الصليب، ولم أكفر عن أي خطيئة، فلن يبقى
أي أساس للإيمان المسيحي. وبالمثل، عندما يقول إنني لم أجعل الخنازير

ويضع^{١٤} الجزية^{١٥} ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها.^{١٦}

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد.^{١٧. ١٨}

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم^{١٩؟ ٢٠؟} و^{٢١}. وجاء في رواية لمسلم: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فأمهم فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانداب حتى

مشروعة لأتباعي ولم أجعلهم محرين من حكم نوااميس الشريعة، فإن السمة المميزة الثانية للمسيحية ستنتهي أيضاً." (تفهم القرآن ١٥٥/٤)

^{١٤} أي أن الخلافات بين الناس ستنتهي وسيصبح الجميع مسلمين. نتيجة لذلك، لن تكون هناك حرب ولن تكون هناك حاجة لفرض الجزية.

^{١٥} وقد جاءت في الرواية الثانية كلمة حرب بدلا من الجزية أي أنه سينتهي الحرب.

^{١٦} البخاري، رقم ٣٤٤٨.

^{١٧} البخاري، رقم ٢٤٧٦.

^{١٨} الحديث صحيح.

^{١٩} مسلم، رقم ١٥٥.

^{٢٠} الحديث صحيح.

^{٢١} أي أن عيسى عليه السلام لا يؤم الصلاة.

يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته.^{٢٢}

٢- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصافوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله ويفتح الثلث، لا يفتنون أبدًا. فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قدعلقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فأمرهم فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته.^{٢٣} ٢٤

٥- وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه - قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل. فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: ما شانكم؟

^{٢٢} الحديث صحيح.

^{٢٣} مسلم، رقم ٤٢٦٠.

^{٢٤} الحديث صحيح.

قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت ورفعت فيه حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه فلقراً عليه فواتح سورة الكهف. إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالاً ياعباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله ومالبثه في الأرض قال اربعون يوماً يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، رأيت اليوم الذي كالسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، ولكن اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله فما سرعته في الأرض؟ قال كالغيث استدبرته الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم فيكذبونه ويردون عليه قوله، فينصرف عنهم فتتبعه أموالهم، ويصبحون ليس بأيديهم شيء، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم - ماشيتهم - كأطول ما كانت دُرّاً - جمع ذروة وهي أعالي الأسنة - وأمدّه خواصر، وأدره ضروعا، ثم يأتي على الخربة - الأرض الخربة - فيقول لها: أخرجي كنوزك - مدفونك من المعادن - فينصرف منها فيتبعه كياعاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً شاباً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين - قطعتين -، ثم يدعو فيقبل يتهلل وجهه يضحك. فبينما هم كذلك إذ بعث الله المسيح اب مريم، فينزل عند

المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفع تحدر منه جمان كاللؤلؤ. فلا يحل لكافر يجرد ریح نفسه إلامات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله. ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة. فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حذب ينسلون، فيمرأوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان هذه مرة ماء! "ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم نقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم بنشابهم مخضوبة دما" ٢٥. ٢٦

ويمضي الحديث قدماً: ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونتاجهم. فيرغب نبي

^{٢٥} مسلم، رقم ٧٥٦٠.

^{٢٦} لم يأت هذا الجزء في هذه الرواية بل هو مستعار من الحديث الآتي رقم ٧٥٦١.

الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كاعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة. ثم يقال للارض: انبي ثمرتك وروي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الأبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس. فبينما هم كذلك إذ بعث الله رجلاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة.^{٢٧}

٦- وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء^{٢٨} تكرمه لهذه الأمة^{٢٩}.^{٣٠}

٧- وعن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث به؟ تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا فقال: سبحان الله

^{٢٧} مسلم، رقم ٤٥٦٠.

^{٢٨} الحديث صحيح.

^{٢٩} يعني أنه لا يؤم الصلاة بنفسه بل يجعل أحدا من الأمة إماما.

^{٣٠} مسلم، رقم ٣١٢.

أو لا إله إلا الله، أو كلمة نحوها لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئاً أبداً إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يحرق البيت ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج الدجال في امتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يسكت الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحداكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه. قال: سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون منكراً ولا ينكرون منكراً. فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون فيقولون: فما تأمرنا فيامرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا اصغى ليتها ورفع ليتها، قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله أو قام ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل نعمان الشاك، فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس هلم إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون. قال: ثم يقال اخرجوا بعث النار فيقال: من كم فيقال: من كل الف تسع وتسع مائة وتسعة وتسعين^{٣١} قال: فذاك يوم- ﴿يَجْعَلُ

^{٣١} كأنه يعني أن الواحد من الألف فقط يدخل الجنة.

الولدان شيبا^{٣٢}. وذلك ﴿يوم يكشف عن ساق﴾^{٣٣}. ^{٣٤}

ويشرحه بعض العلماء بالبليلة العظيمة.

٨- عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون"^{٣٥}. ^{٣٦}

٩- قال أحمد حدثنا أبو النضر قال: حدثنا سعيد بن جهمان، عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ألا إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد حذر أمته الدجال، هو أعور عينه اليمنى بعينه اليمنى ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر، يخرج معه واديان أحدهما جنته والآخر ناره فناره جنة وجنته نار. معه ملكان من الملائكة يشبهان نبيين من الأنبياء، ولو

^{٣٢} المزمّل ٤٣: ١٨.

^{٣٣} القلم ٦٨: ٢٢.

^{٣٤} مسلم، رقم ٤٥٦٨.

^{٣٥} ابوداؤد، رقم ٤٣٢٤.

^{٣٦} الحديث صحيح.

شئت أن أسميهما بأسمائهما وأسماء آبائهما لفعلت، واحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وتلك فتنة. يقول الدجال: أأست بربكم؟ أأست أحيي وأميت؟ فيقول له أحد الملكين: كذبت فلا يسمعه أحد من الناس إلا صاحبه فيقول له صدقت فيسمعه الناس فيظنون أنما يصدق الدجال وذلك فتنة ثم يسير حتى يدخل المدسنة فلا يؤذن له بدخولها فيقول: هذه قرية ذاك الرجل". ثم يسير حتى يأتي الشام فيهلكه الله عند عقبة أفيق^{٣٧}.^{٣٨}

١٠- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد^{٣٩}.^{٤٠}

١١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم؟^{٤١} و^{٤٢} و^{٤٣}.

^{٣٧} أحمد، رقم ٢١٩٢٩.

^{٣٨} الحديث حسن.

^{٣٩} البخاري، رقم ٢٣٤٤.

^{٤٠} الحديث صحيح.

^{٤١} ويعني أن عيسى لا يؤم الصلاة.

^{٤٢} مسلم، رقم ١٥٥.

^{٤٣} الحديث صحيح.

١٢ - عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: كنا قعودا نتحدث في ظل غرفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرنا الساعة، فارتفعت أصواتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن تكون - أولن تقوم - الساعة حتى يكون قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف، خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك تخرج نار من اليمن، من قعر عدن، تسوق الناس إلى المحشر."^{٤٤}

١٣ - قال حذيفة بن أسيد رضي الله عنه: "اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر. فقال: (ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم^{٤٥}.^{٤٦}

١٤ - وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطي المال

^{٤٤} أبوداؤد، رقم ٣٤١١.

^{٤٥} مسلم، رقم ٧٤٦٧.

^{٤٦} الحديث صحيح.

حتى لايقبل، ويضع الخراج وينزل الروحاء^{٤٧} فيحج منها أو يعتمر أو يجمع بينهما قال: وتلا ابوهريرة: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾^{٤٨} فزعم حنزلة أن اباهريرة قال: يؤمن به قبل موته عيسى. فلا ادري هذا كله حديث النبي صلى الله عليه وسلم أو شيء قاله أبوهريرة.^{٤٩}

١٥- عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم. يتحدث الحديث عن عصابتين، واحدة تغزو الهند والأخرى تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام.^{٥٠}

١٦- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويرجع السلم ويتخذ السيوف مناجل وتذهب حمة كل ذات حمة وتنزل السماء رزقها وتخرج الأرض بركتها حتى يلعب الصبي بالثعبان فلا يضره ويراعي الغنم الذئب فلا يضرها ويراعي الأسد فلا يضرها.^{٥١}

^{٤٧} موضع على بعد ٣٥ ميلاً من المدينة.

^{٤٨} النساء ٤: ١٥٩.

^{٤٩} أحمد، رقم ٧٩٠٣.

^{٥٠} أحمد، رقم ٢٢٣٩٦. والنسائي والضياء، وقد تم تصحيحه من قبل الإمام السيوطي.

^{٥١} الحديث حسن.

^{٥٢} أحمد، رقم ١٠٢٦١.

نزول المسيح - موقف العلماء

في الباب السابق قد جاءت جميع النصوص المتعلقة برفع المسيح عليه السلام إلى الله ونزوله إلى الأرض. وقبل توضيح موقف الأستاذ الجليل جاويد أحمد غامدي بشأنها، من الضروري بيان وجهة نظر علماء الأمة ونتيجة لذلك، سيصبح الإطار العام الذي قدم فيه الأستاذ الجليل موقفه واضحاً.

إنه في تقاليدنا العلمية، يُعبّر عن مفهوم المجيء الثاني للسيد المسيح عليه السلام تحت عنوان "نزول المسيح". ويُقصد بذلك أنه عندما حاول بنو إسرائيل صلب السيد المسيح عليه السلام، أخذ الله روحه ورفعته إليه. ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، هو حي في السماء. وعند اقتراب القيامة، سينزل مباشرةً على الأرض ويطرافق مع الملائكة وينزل على مئذنة مسجد في دمشق، ويقود جيش المسلمين. ثم يقتل الدجال وجنوده اليهود. ومن دعائه يُهلك يأجوج ومأجوج أيضاً. وتصبح الدنيا مهداً للأمن والسلام، ولن يبقى على الأرض دين سوى الإسلام. ويحكم كإمام عادل في الدنيا لمدة أربعين سنة، وبعد ذلك يتوفى ويصلي المسلمون عليه ويدفنونه وبعد وفاته ستقوم القيامة قريباً.

يقدم موقف العلماء وأدلته بالتفصيل تحت العناوين التالية:

- دلائل رفع المسيح
- دلائل نزول المسيح
- تصور نزول المسيح ومشتملاته



إن الله تعالى قد عبر عن تدبيره لحماية السيد المسيح عليه السلام بقوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. وقد استنبط المفسرون من هذه الآية مفهوم رفع المسيح وحياة المسيح. فاعتبروا أن قوله ﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يعني أن الله تعالى قد رفع المسيح عليه السلام حياً إليه. وبالتالي، فإنه في السماوات بحياته الجسدية وأما بالنسبة للفظ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قبل ﴿رَافِعُكَ﴾، فإن معناه ليس إعطاء الموت بل أخذ السيد المسيح عليه السلام بصورة كاملة وسليمة في قبضته. وبالتالي، فإن ألفاظ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بحد ذاتها دليل على حياة المسيح، ولا يجوز استخدامها في معنى وفاة المسيح.¹

¹ وهنا يثور سؤال إن كلمة توفي في ﴿متوفيك﴾ يستعمل في عامة الأحوال بمعنى الموت، وقد جاء استعماله في هذا المعنى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة متعددة، فلماذا اضطر علماءنا إلى أن يعمدوا إلى استعمال هذه الكلمة في غير معناها المتداول؟

والسبب عندنا هو التعارض الواقع بين القرآن والحديث في نتيجة ذلك. لأن هناك أحاديث كثيرة تصرح بحياة المسيح عليه السلام ونزوله من السماء قرب يوم القيامة، ففي هذه الخلفية إن اعتبر كلمة "توفي" بمعنى الموت لتعارض ذلك من الأحاديث والآثار. ومن المسلمات أن لا يمكن التعارض بين القرآن والحديث، ولذا وجب دفع ذاك التناقض المفروض. ويمكن ذلك من جهتين فقط لاثالث لهما: أولاً أن تحمل الآية على معنى الموت وترد الأحاديث الواردة في نزول المسيح ثانياً بصفتها المتعارضة من القرآن أو أن يستنبط من الآية نفسها معنى الحياة فتكون متوافقة وموجهة بالأحاديث والآثار ولا تتجاوز عن معنى الوفاة. وثانياً: أن تفهم الآية الكريمة

والحجج المقدمة لعدم أخذ الكلمات ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى الموت هي من نفس الطبيعة من لدن المتقدمين إلى المتأخرين. وكأن هذه هي حجة العلماء التي تبناها بكاملها من جاء لاحقا. لقد اقتبسناها من كتب العلماء المعاصرين. والغرض منه هو تغطية المحتوى^٢ بشكل كاف وفهمه بطريقة سهلة. واستدلال العلماء بذلك هو كالتالي:

الموت لا يعني المعنى الحقيقي لكلمة "توفي"

والعلماء والمفسرون يستندون إلى الأساس بأن استخدام فعل "توفي" في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى الموت ليس صحيحاً على الإطلاق. وهذا لأن الكلمة تستخدم بمعنى مجازي عند الإشارة إلى

في ضوء الروايات وأن يتأول في التوفي مما يسعه معنى الحياة، وعليه فاکثر العلماء والمفسرين اختاروا لهم المذهب الثاني، إلا أن هناك البعض الذين ذهبوا إلى ترجيح الصورة الأولى. وعلى ذلك لنا أن نقول أن أكثر العلماء رأوا الأحاديث كأصل فأولوا في معنى الآية أو بتعبير آخر إنهم فسروا القرآن في ضوء الأحاديث، ولذا صارت هذه الآية من آل عمران وليس فقط تأكيداً وتصديقاً لأحاديث النزول بل كانت أكثر من ذلك دليلاً منفرداً لمقدمات حياة ونزول المسيح عليه السلام .

وعلى العكس من ذلك إن الطائفة القليلة اعتبرت الآية أصلاً ودرسوا الأحاديث في ضوءها فاعتقدوها معارضة مع القرآن، أو بتعبير آخر إنهم رأوا الأحاديث في ضوء القرآن وأنكروا بصفتها المتارضة قبول نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

^٢ الاحتواء لأنه يعكس آراء علماء السلف عامة والسهولة لأن مانكتبه.

الموت، والمعنى الحقيقي للكلمة هو "أخذ الشيء وافياً" أو "أخذ الشيء بتمامه" أو أخذ شيء بشكل كامل. ومعنى أي كلمة وردت في جملة ماسواء كان حقيقياً أو مجازياً يتم تحديده من خلال السياق والسباق والشواهد في الكلام. والشواهد هنا توضح أن الكلمة استخدمت في معناه الحقيقي وليس المجازي. لذلك، تعني «(إني متوفيك)» أنني سأأخذك بالكامل، وهذا يعني أن الله تعالى سيستلم ذات عيسى عليه السلام بشكل كامل. أي أن الذات المكونة من الروح والجسد ستنتقل إلى حياة الله. هذا المفهوم يتماشى تماماً مع شواهد اللغة العربية والأمثلة من القرآن الكريم والروايات الحديثية. وجاء في كتاب العلامة أنور شاه الكشميري "حياة ابن مريم عليه السلام"^٣

خذ مثلاً كلمة "توفي" فإن جميع المشتقات لكلمة "توفي" تستخدم لاستلام شيء بشكل كامل، ولذلك يتم استخدام كلمة "توفي" بدلاً من "الموت" عند الحديث عن وفاة الشخصيات الكبيرة والعظيمة كنوع من الاحترام. نعم، يتم استخدام كلمة "الموت" أيضاً حسب الحاجة. لذلك، لفظ "توفي" هنا بدون أي تردد يتم استخدامه بمعناه الأصلي ولم يتم تحريفه حتى قليلاً، وهذا غير ممكن أيضاً، لأن هذه الكلمة لو كانت مرادفة لـ "موت" وكانت تحمل نفس معنى الموت، لانتهى الهدف من الكلام أي الستر وإظهار التقديس.

^٣ وهي ترجمة أردية لكتابه العربي "عقيدة الإسلام في حياة العيسى عليه السلام قام به الشيخ أبو طلحة محمد صغير البرتاب كرهى.

إن الاستاذ أبا الأعلى المودودي أيضاً قد أخذ هذا اللفظ بمعنى التسلم بدلاً من الموت، ومع ذلك، فقد فسره بمعنى العزل من المنصب. فيقول:

"في الأصل استخدم لفظ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ والمعنى الأصلي لـ "تَوَفَّى" هو الأخذ والاستلام". أما استعماله فيقبض الروح فهو الاستخدام المجازي لهذا اللفظ وليس معناه اللغوي الأصلي. فهنا قد استخدم هذا اللفظ بمعنى الكلمة الإنجليزية: To recall أي استدعاء شخص راجعا من منصبه.

وبما أن بني إسرائيل كانوا عاصين بشكل مستمر لعدة قرون، وكانت سيرتهم القومية لاتزال تتدهور رغم التحذيرات المستمرة، وقد قتلوا عدة أنبياء متتالين وأصبحوا عطشى لإهراق دم كل عبد صالح يدعوهم إلى الخير والحق، فإن الله تعالى هدفاً لإتمام الحجة عليهم وإعطائهم فرصة أخيرة قد أرسل فيهم نبيين عظيمين مثل عيسى ويحيى عليهما السلام في وقت واحد. وهما كانا مزودين بآيات واضحة تدل على صدق رسالتهما، وكان يمكن إنكارهما فقط من قبل الذين لديهم عدااء شديد للحق وبلغوا الجسارة والجرأة في مواجهة الحق إلى الحد النهائي. لكن بني إسرائيل أضاعوا هذه الفرصة الأخيرة أيضاً ولم يكتفوا برفض دعوة النبين فقط، بل إن أحد رؤسائهم قام بإعلان قطع رأس يحيى عليه السلام تلبية لرغبة راقصة، وتآمر علماؤهم وفقهاؤهم مع السلطة الرومانية لفرض عقوبة الموت على النبي الآخر المسيح عليه السلام، بعد ذلك، كان من العبث إضاعة المزيد من الوقت والجهد في نصح بني إسرائيل،

ولهذا استدعى الله نبيه إلهو أصدر قرار حياة الذل على بني إسرائيل حتى يوم القيامة.^٤

وإحالةً لشرح الزبيدي في "تاج العروس" والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" يقول البير شاه كرم الأزهري أن لفظ "توفى" يحمل معاني حقيقية ومجازية والمعنى الحقيقي هو الأخذ بالكامل، بينما المعنى المجازي هو الموت أو النوم، ويشير مبدأ اللغة والبيان إلى أنه عندما يُستخدم لفظ يحمل معاني حقيقية ومجازية في جملة ما، يجب أولاً الاعتماد على المعنى الحقيقي، وإذا لم تقبل الجملة ذاك المعنى أو كانت القرائن ضده، فيجب عندها الذهاب إلى المعنى المجازي، ولكن الاستباق بإعطاء الأولوية للمعنى المجازي دون مبرر غير صحيح. وفي الآية المذكورة لا يوجد أي قرينة تستدعي اعتبار "توفى" بمعنى مجازي، وبالعكس هناك دليلان واضحا لأخذها بمعناها الحقيقي: أولاً، السياق التاريخي للآيات يظهر أن المخاطبين في هذه الآيات هم نصارى نجران الذين كانوا حضروا وفداً إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وبما أنهم كانوا يؤمنون بالوهمية السيد المسيح عليه السلام، فقد كانت هذه الآيات تهدف إلى دحض هذا الاعتقاد الباطل. الدليل الثاني هو الأحاديث المتعلقة بنزول المسيح، التي تؤكد صراحة مفهوم حياته. لذا، يتطلب من هذه القرائن اعتماد المعنى الحقيقي لـ "توفى" وهو "أخذ بالكامل" فيقول البير كرم شاه:

^٤ تفهيم القرآن ٢٥٧/١.

"إن علم المعاني ينص على قاعدة مسلّمة أنه إذا كان للكلمة معنى حقيقي واحد وآخر مجازي، فيفضّل المعنى الحقيقي على المعنى المجازي. نعم، إذا وجد دليل يجعل المعنى الحقيقي متعذّرًا، فيترك المعنى الحقيقي ويُعتمد المعنى المجازي. ولكن إذا وُجدت دلائل قوية تدعم المعنى الحقيقي، فإن الإصرار على ترك المعنى الحقيقي واستخدام المعنى المجازي يعتبر بمثابة السير عكس التيار. والآن تأمل في معنى كلمة 'توفى' فقد جاء في 'تاج العروس' عند بحث كلمة 'وفى': 'وتوفاه أي لم يدع منه شيئًا' أي أخذ الكل ولم يترك منه شيئًا، وذكر الإمام أبو عبد الله القرطبي في 'الجامع لأحكام القرآن': 'توفيت مالي من فلان أي قبضته. أي استعدت المال كله. هذه هي المعاني الحقيقية لكلمة 'توفى'.

نعم هذا اللفظ أيضًا يُستخدم بمعنى الموت أيضًا ولكن هذا هو معناه المجازي كما يقول صاحب 'تاج العروس': "ومن المجاز أدركته الوفاة أي الموت والمنية وتوفي فلان إذ مات وتوفاه الله عز وجل إذا قبض روحه". "الآن يمكنك أن تقرّر بنفسك كم هو تعسف شديد أن تترك المعنى الحقيقي لكلمة دون قرينة وتصر على أخذ المعنى المجازي منها، وليس هنا فقط أنه لا توجد قرينة لاعتبار المعنى المجازي، بل هناك قرائن قوية تدل على اعتماد المعنى الحقيقي لهذه الكلمة. أنت ستسأل ما هي هذه القرائن التي تشير إلى ذلك وفيما يتعلق بهذا أقول: إن سياق هذه الآية هو قرينة قوية على هذا الأمر. فأن هنا يدور الحديث مع مسيحيي نجران الذين كانوا يعتقدون بألوهية المسيح عليه السلام. ففحوى الكلام إذن هو إثبات توحيد الله

وإبطال ألوهية المسيح. فلو كانت وفاة عيسى عليه السلام قد حدثت لكان من البديهي القول لمسيحيي نجران: إن من تعتبرونه إلهًا قد مات، وهل يمكن لمن يموت أن يكون إلهًا! ولكن عدم اتخاذ القرآن لهذا الأسلوب واتباعه لهذا النهج هو دليل واضح على أن مقصد هذه الآية ليس الحديث عن موت عيسى عليه السلام.

والقرينة الواضحة الثانية هو مقولة النبي عليه الصلاة والسلام: "قال الحسن قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لليهود إن عيسى لميت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة". في وجود هذه التصريحات لا يمكن اتخاذ المعنى المجازي وترك المعنى الحقيقي. ولهذا السبب يرى جمهور المفسرين مع مراعاة هذا المعنى الحقيقي أن.

"متوفيك أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصمًا إياك عن قتلهم". (البيضاوي) ويعني أن الله تعالى سوف يبقيك حيًا إلى أجل محدد وسيحميك من القتل. "متوفيك أي مستوفي أجلك معناه إني عاصمك من أن يقتلك الكفار". (الكشاف) ويقول الإمام ابن جرير: 'وأولى الأقوال بالصحة عندنا قول من قال معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ لتواتر الأخبار من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم'. يعني في رأيي، أصح الأقوال هو أنني يا عيسى سوف أقبضك من الأرض وأرفعك إليّ، لأن الأحاديث المتواترة عن الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تؤكد أنه قد رُفع حيا إلى السماء.^٥

^٥ ضياء القرآن ١/٢٣٥-٢٣٦.

ثانياً: عبارة رَافِعُكَ إِلَى تَمْنَعُ من أخذ معنى مجازي لكلمة 'توفي'

نعم، من الصحيح أن فعل "توفي" يستخدم أيضاً في المعنى المجازي للموت ولكن في هذا السياق لا يمكن استخدامه بهذا المعنى. والسبب في ذلك هو أن الجملة ليست محدودة بعبارة ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، بل تأتي بعدها كلمات ﴿رَافِعُكَ إِلَى﴾ أيضاً. فهذه الكلمات تمنع أن يُحمل "توفي" على معنى الموت.

في هذا السياق يستدل المولانا المودودي بأن هذه الآيات في سورة آل عمران نزلت في الواقع لدحض ذلك الاعتقاد الباطل لدى المسيحيين، الذي اعتقدوا بموجبه في ألوهية عيسى عليه السلام. إذن يتطلب هذا السياق للآيات أنه لو كان قد توفي، لكان من المناسب استخدام أسلوب يحمل معاني نهائية وصريحة للموت والتحلل إلى تراب بدلاً من الأسلوب المحتمل المعاني. ولكن القرآن استخدم العبارات ﴿رَافِعُكَ إِلَى﴾. هذه الألفاظ ليست صريحة في مفهوم الموت فقط، بل تحتوي على احتمال كامل لمفهوم الحياة. في محل دحض عقيدة الألوهية، فإن هذا الأسلوب يدل على أن الله رفعه إليه حياً دون أن يعطيه الموت فيقول:

"هنا يجب أن نفهم أن هذا الخطاب الكامل في القرآن هو في الواقع للرد والتصحيح على عقيدة المسيحيين في ألوهية المسيح. وكانت هناك ثلاثة أسباب رئيسية لظهور هذه العقيدة بين المسيحيين:

١- ولادة المسيح المعجزة

٢- معجزاته الواضحة المحسوسة

٣- رفعه إلى السماء، الذي يُذكر بوضوح في كتبهم وقد أكد القرآن على الأمر الأول وصرح بأن ولادة المسيح بلا أب كانت مجرد معجزة من معجزات قدرة الله. فإن الله يخلق من يشاء كيف يشاء، وهذه الطريقة غير المعتادة للولادة ليست أبداً دليلاً على أن المسيح كان إلهاً أو يشترك في الألوهية بأي شكل من الأشكال. والأمر الثاني أيضاً أكد القرآن وذكر معجزات المسيح واحدة تلو الأخرى، لكنه أوضح أن كل هذه الأعمال قام بها بإذن الله، ولم يفعل شيئاً بمحض إرادته، لذلك لا يوجد في أي من هذه الأمور ما يبرر استنتاجكم بأن للمسيح أي حصة في الألوهية.

والآن، بالنسبة للنقطة الثالثة، إذا كانت رواية المسيحيين خاطئة من الأساس، فلكان من الضروري لدحض عقيدة ألوهية المسيح عندهم أن يقال بصراحة أن الذي جعلتموه إلهاً وابن الله قد مات واختلط بالتراب، وإذا كنتم تريدون مزيداً من التأكيد، فذهبوا إلى المكان الفلاني لتروا قبره. لكن، بدلاً من فعل ذلك، لا يقتصر القرآن على عدم التصريح بموته فحسب، بل يستخدم أيضاً ألفاظاً تحمل على الأقل احتمالية رفعه حياً، بل ويزيد المسيحيين علماً بأن المسيح لم يُصلب أصلاً. بمعنى آخر، الشخص الذي قال في اللحظة الأخيرة "إيلي إيلي لما شبعثاني" ^٦ والذي تحملون صورته على الصليب لم يكن هو المسيح، بل أن الله قد رفع المسيح قبل ذلك .

^٦ هذه آية من مزامير داود أي الزبور. ويعني: "يا إلهي! يا إلهي! لماذا تركتني؟" (مزمور ٢٢: ١). ووفقاً للإنجيل، عندما صلب يسوع، كرر هذه الكلمات بالصراخ. (متي ٢٧: ٤٦)

بعد ذلك، فإن الأشخاص الذين يحاولون استنباط مفهوم وفاة المسيح من آيات القرآن، فإنهم في الواقع يثبتون أن الله سبحانه وتعالى لا يمتلك المهارة في التعبير عن مقصوده بعبارة واضحة وبسيطة. أعاذنا الله من ذلك.^٧

وحجة العلامة أنور شاه الكشميري هي أن "توفى" في الأصل يعني الأخذ بالكامل ويستخدم هذا اللفظ كناية عن الموت. ومن المعلوم في اللغة أن أي كلمة تُستخدم كناية فإنها تظل تحتفظ بمعناها الحقيقي ولا يمكن أن تكون منفصلة أو مختلفة عنه. وعليه، عندما يُستخدم "توفى" بمعنى مجازي للموت، فإنه يشتمل على المعنى الحقيقي للإتمام والإكمال، وهذا المعنى لا ينفصل عنه في أي حال. وفي هذه الحالة يُفهم منها الموت الأبدي، الذي هو تسمية لأمر كامل ومستقل عن الحياة. ولا يوجد بينهما في الأبد أي فجوة تعني الحياة أو تستلزم الحياة. بعبارة أخرى، أصبح لفظ "توفى" مناسباً ومستخدمًا للموت لأنه ليس ناقصاً ولا منقسماً، بل هو كامل ومتكامل.

وفي الآية المذكورة من سورة آل عمران، لأن كلمات ﴿رَافِعُكَ إِلَى﴾ تشمل الحياة لذا تصبح حمل ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ على معنى الموت زائدة وغير ذات صلة. يمكن ربطها مع ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ فقط عندما تحمل "توفى" على معنى التسلم الكامل بدلاً من الموت، ثم تصبح بالكامل ذات صلة وذات معنى. فيقول:

^٧ تفهيم القرآن ١ / ٢٥٧-٢٥٨.

"إذا كان "متوفى" في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى 'مميت'، لما كانت هناك حاجة إلى ﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. فتُوفى الذي يشتهر بمعنى الموت اليوم هو استعماله مجازاً وليس أصلاً من وضعه، لهذا فإن ما حققته هو أن المعنى الأصلي للكلمة هو الذي تتطلبه البلاغة ليكون هو المعنى المصدقي لها، لذلك كان معنى الآية: سأنهي أجلك كاملة، والتي قد قُدرت لك، ولن يستطيع أعداؤك قتلَكَ، بل سأميتك موتاً طبيعياً.

'توفى' من البداية إلى النهاية تشمل كل العمر و 'رفع' يقع في الوسط. ولأن 'توفى' تقع عند طرفي العمر (لذلك ذكر 'توفى' أولاً) و 'رفع' يقع في الوسط، فإنها أُخرت، فيكون ذلك بمثابة استيفاء العمر في أوقاته. ... والنتيجة هي أنه يمكن الحديث عن 'توفى' في حالة عيسى عندما يكمل العمر كله، وذلك سيكون بعد النزول. وقد ذُكر هذا في سورة المائدة. وليس الأمر هنا وجود 'توفى' مرتين، إحداهما قبل الرفع والأخرى بعد النزول، ولا يصح القول بأن هناك تقديم وتأخير في عبارة 'متوفيك ورافعك إلي'.^٨

رَافِعُكَ يُقْصِدُ بِهَا رَفْعَ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ كُلِّهِمَا

هذا هو جزء من الاستدلال السابق نفسه. الدليل هو أن ذات عيسى عليه السلام مكونة من الروح والجسد معاً كبشر. لذا عندما حُطِبَ عيسى عليه السلام بقول الله تعالى ﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، "إني

^٨ حیات ابن مریم ۱۲۷-۱۲۸.

رافعك إليّ"، فإن معناها أن الله سيرفع الإنسان الذي يُطابق اسم عيسى، وبناءً على ذلك، فهو مكون من الروح والجسد كليهما. ولذا، إذا رُفعت الروح فقط أو رُفع الجسد فقط، لكان البيان: إني رافع روحك أو إني رافع جسدك. بدون هذا التوضيح، إذا تم ذكر رفع المسيح عليه السلام، فإن المقصود هو رفع كيان المسيح الكامل الذي يتكون من الروح والجسد معاً. وكتب مفتي شفيع عثمانى في "معارف القرآن:

"(ورافعك إلي) مفهومها واضح بأن الخطاب موجه لعيسى عليه السلام أنني سأرفعك إليّ، والجميع يعلم أن اسم عيسى ليس للروح فقط، بل للروح مع الجسد، لذا فإن تفسير رفع عيسى بأن الرفع كان روحانياً فقط، ولم يُرفع جسدياً، هو تفسير خاطئ تماماً".^٩

ثم مع تأكيد كلمة "إلى" يكتب بشكل أوضح:

"في هذا الموضع، باستخدام لفظ 'رفع' مع لفظ 'إلى' تم إزالة أي احتمال لمعنى مجازي، ففي هذه الآية قال: 'رافعك إليّ' وفي آية سورة النساء أيضاً حيث تم الرد على عقيدة اليهود، قال أيضاً: 'وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه'. يعني أن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام يقيناً، بل إن الله رفعه إليه. و'الرفع إلى الله' معناه الرفع بروح وجسد، أي رفعه حياً بجسده وروحه".^{١٠}

^٩ ٧٦/٢.

^{١٠} ٧٦/٢.

الرابع: سياق الكلام هو التعزية والتسلية بينما الموت يخالف التعزية

كما تم تأكيد هنا على أن السيد المسيح عليه السلام قد أعطي ضمان الاطمئنان بحمايته من أعدائه. وقد أُخبر بأن جميع مكائد الأعداء ستفشل وأن الله تعالى سيحفظه بكل طريقة. فكيف يمكن أن تُعطى في لحظة الطمأنينة هذه أخبار غير مرضية عن نهاية الحياة؟ في حالة الموت، يفوت كامل الغرض من الاطمئنان والراحة. وعند شرح هذا الدليل، يقول المولانا إدريس الكاندهلوي:

"إن جمهور الصحابة والتابعين وعامة السلف الصالحين يقولون إن في هذه الآية أن معنى "توفى" ليس الموت، بل أن المعاني الأصلية والحقيقية لـ "توفى" هي المراد، أي أخذ الشيء بالكامل، لأن بشارة "توفى" في وقت هجوم الأعداء وإحاطتهم تعتبر لتثبيت وتطمين عيسى عليه السلام بأن لا يخاف من هجوم وإحاطة الأعداء. سأنتزعه بالكامل، روحاً وجسداً، من هؤلاء الأشرار. كان وجوده لهم نعمة عظيمة مني. وقد أثبتت أفعالهم أنهم أشرار وغير جديرين بأن تبقى لهم نعمة وجوده. عقوبة لإهمالهم وعدم تقديرهم هي أن تُسترد هذه النعمة بالكامل منهم

الغرض، المقصود من "توفى" في الآية هو الأخذ الكامل وليس الموت وهذا المعنى ليس مناسباً هنا، لأنه حينما كان الأعداء المتعطشون للدم واقفين من كل جانب، فإن إخبار السيد المسيح عليه السلام عن وفاته لا يبعث على الارتياح أو الاطمئنان. كان هدف الأعداء هو الروح، وفي ذلك الوقت كان اللائق أن يقال للمسيح: لا تقلقوا، نحن سنخرجكم من وسط أعدائكم بكامل السلامة والصحة، ولن

يتمكن الأعداء حتى من الحصول على ظلكم. فإن كان معنى "توفى" في الآية هو الموت، فلن يكون فيه طمأنة لعيسى عليه السلام، بل بالعكس سيكون في ذلك طمأنة لليهود، وكأنه يُقال لهم: لا تهتموا ولا تشغلوا أنفسكم بفكرة قتل المسيح، فسوف أماته بنفسه وسوف أحقق أمنيتكم دون أن يكون عليكم أي عناء. فهذا لا يعتبر طمأنة للسيد المسيح عليه السلام، بل هو طمأنة لليهود."^{١١}

خامساً: يمكن أخذ معنى الموت من ﴿مُتَوَفِّكَ﴾ إذا فُهمت باعتبارها مؤخرة عن ﴿رَافِعَكَ﴾

بعض اهل العلم يرون أن كلمة "توفى" هنا قد استعملت في معنى الموت، ولكن من حيث الوقوع فهي متأخرة عن الرفع. أي أن الترتيب المذكور في الآية ﴿إِنِّي مُتَوَفِّكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ﴾، ليس ترتيباً زمنياً. فإذا كانت "توفى" بمعنى الموت قد ذُكرت مُقَدِّمَةً، لكنها من حيث الوقوع مُؤَخَّرَةٌ. والرفع بمعنى الارتفاع حياً ذُكر مُؤَخَّرًا، لكنه من حيث الوقوع مُقَدِّمٌ. وقد أُشير بتقديم "توفى" إلى ذلك الحدث العظيم المذكور في الأحاديث، الذي سيبدأ بنزول المسيح ويكتمل بوفاة المسيح، وسيُحمى من القتل والإهانة على الصليب، ويُعطى الموت الطبيعي بكل العزة والكرامة. بالإضافة إلى أن هذا التقديم يُبرز تكديماً لنظريتهم الباطلة في ألوهية المسيح، ويوضح بأن المسيح ينتمي للجنس البشري، وسيأتي

^{١١} معارف القرآن ١ / ٦٢٩ - ٦٣٠.

عليه الموت كما يأتي على بقية البشر.

في هذا السياق، إذا اعترض شخص على أن «رَافِعُكَ» يعطف على «مُتَوَفِّيكَ» واعتقد أن تسلسل السرد يتطلب اعتبار وقوع الموت قبل الرفع، فعليه أن يعرف أن واو العطف لا تدل على ترتيب الوقوع. توجد في القرآن الكريم أمثلة توضح أن الأحداث التي تحدث لاحقاً ذُكرت أولاً.

يقول المفتي شفيع عثمانى :

"في 'تفسير الدر المنثور' تُنقل هذه الرواية عن ابن عباس رضي الله عنه على هذا النحو: 'روى إسحاق بن بشر وابن عساكر عن رواية جوهر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير آية 'إني متوفيك ورافعك إلي' هذه الألفاظ: 'أني سأرفعك إلي'، ثم سأقبض روحك في آخر الزمان وفاة طبيعية.' (٣٦/٢)

إن خلاصة هذا التفسير هي أن معنى "توفى" هو الموت، ولكن هناك تقديم وتأخير في الكلمات. (رافعك) سيحدث أولاً و (متوفيك) سيأتي بعد ذلك، والحكمة والمصلحة في ذكر (متوفيك) قبل ذلك تشير إلى هذا الأمر الذي سيحدث في المستقبل، أي أن استدعاءه لن يكون دائماً، بل لفترة قصيرة، ثم سيأتي إلى هذه الدنيا وسينتصر على الأعداء، وبعد ذلك سيحدث موته الطبيعي. وبهذه الطريقة، فإن نزوله مرة أخرى من السماء والفتح على الدنيا ثم حدوث الموت كان معجزة وأيضاً تكميلاً لتكريم عيسى عليه السلام، كما أنه كان إبطاً لعقيدة الألوهية لدى المسيحيين. وإلا فإن ذهابه إلى السماء حياً كان سيجعل هذا الاعتقاد الباطل والراسخ لديهم بأنه مثل

الله تعالى حي قيوم. لذلك، بذكر كلمة "متوفيك" أولاً تم إبطال هذه الأفكار، ثم ذكر الاستدعاء إلى نفسه..

هذه العجائب القدرية المتعلقة بشخصية المسيح عليه السلام كانت سبباً للجهلة من النصارى أن يقعون في هذا الاعتقاد، بأنهم قالوا إنه إله، مع أنه إذا تأملنا في كل خطوة وكل شيء من هذه العجائب نجد في كل حادثة دلائل على عبوديته وخضوعه لأمر الله وتوصيفه بالصفات البشرية. ولهذا السبب، في كل مناسبة مثل هذه، أشار القرآن الحكيم إلى دحض عقيدة الألوهية. يصبح الشك أقوى مع رفعه إلى السماء، لذلك تم ذكر "متوفيك" أولاً للقضاء على الشك. ومن هذا نفهم أن في هذه الآية نفي نية اليهود كان مقصوداً، حيث أن اليهود كانوا ينوون قتل المسيح عليه السلام وصلبه، ولكن الله تعالى أحبط عزائمهم. ومن خلال تقديم وتأخير الكلمات، تم أيضاً نفي ادعاء النصارى بأنه إله، لأنه ليس منزهاً عن الموت، وسيأتي وقت سيموت فيه.^{١٢}

٢- النساء، الآيات ١٥٦-١٥٩

هذه الآيات من أواخر سورة النساء. في هذا المقام بُين أن اليهود افترضوا على السيدة مريم عليها السلام وحاولوا قتل ابنها النبي عيسى عليه السلام، وادعوا بالزور أنهم نجحوا في هذا الفعل البشع. والحقيقة أنهم فشلوا في هذه المؤامرة وأدخلهم الله في الشبهة ورفع عيسى عليه

^{١٢} معارف القرآن ٧٦-٧٤/٢.

السلام إليه. قال تعالى:

﴿وَبَكَّرَهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.^{١٣}

يُستدل من هذا المقام على حياة عيسى عليه السلام. استدلال العلماء في هذا السياق يستند إلى نقطتين:

أولاً: إن عبارة ﴿وما قتلوه﴾ تمنع من أن يراد به مدلول الموت. في الآية ١٥٧ من سورة النساء (٤) عبارة ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ تشير أيضاً إلى نفي موت عيسى عليه السلام. فإن المعنى هو أن بني إسرائيل لم يتمكنوا من إيقاع الموت به. لم يستطيعوا قتله ولم يستطيعوا إهلاكه بالصليب. هذا النفي للقتل والصلب هو في الحقيقة مرادف لنفي الموت. وتختتم الآية بقول ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (أي ولم يقتلوا المسيح بيقين) مما يشكل نفياً قاطعاً للموت. بعد هذا النفي القوي ليس صحيحاً أن يُحمل لفظ "توفى" في الآية ٥٥ من آل عمران -الذي ليس صريحاً في معاني الموت- على مفهوم الموت. واحتجاجاً بالآية يترجمها أبو الأعلى المودودي:

^{١٣} النساء: ١٥٧-١٥٩.

"ولا يكون أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام قبل موت عيسى وأن عيسى يشهد عليهم بذلك".^{١٤}

القاضي ثناء الله يكتب في "التفسير المظهري":
"إِنَّ الْمُرَادَ بِالتَّوْفِي هُوَ الرَّفْعُ إِلَى السَّمَاءِ بِلَا مَوْتٍ يَشْهَدُ بِهِ
الْوَجِدَانُ بَعْدَ مُلَاحَظَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ. وَلَوْلَا نَفْيُ
الْمَوْتِ عَنْهُ لَمَا كَانَ مِنْ نَفْيِ الْقَتْلِ فَائِدَةٌ إِذِ الْغَرَضُ مِنَ الْقَتْلِ
الْمَوْتُ".^{١٦}

ثانياً: إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام قبل موته

إنه قد جاء في آية ١٥٩ الفاظ: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ
بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، "ولن يكون هناك
أحد من أهل الكتاب إلا وسيؤمن به (أي بعيسى عليه السلام) قبل
موته (يعني قبل موت عيسى)، وفي يوم القيامة سيكون (عيسى)

^{١٤} الترجمة مأخوذة من تفسيره الأردني تفهيم القرآن.

^{١٥} وافهم هذه الحجة من خلال مثال: إذا أعلن حاكم دولة أنه لن يسمح
بنجاح مؤامرة لنفي أمة خيرية معينة، فلن يتمكن أعداؤه من اختطافه أو
طرده من البلاد. وبعد ذلك، إذا قال في الجملة التالية مباشرة أنني سأطرد
هذا المحسن بنفسه، فإن معنى طرده قد يكون إخراجهم من برائن العدو،
ولكنه لا يمكن أن يكون طرده خارج البلاد، لأنه إذا كان يعني طرده خارج
البلاد، فإن المؤامرة سوف تنجح بالفعل. أي أن الحاكم سيفعل ما أراده
العدو.

^{١٦} ٥٦/٢

عليهم شهيداً). ويرى العلماء والمفسرون أن الضميرين المفعولين في ﴿لَيُؤْمَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يُشير كلاهما إلى السيد المسيح عيسى عليه السلام. والمراد هو في الآية: ﴿وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

ونتيجة هذا التفسير هو إثبات حياة النبي عيسى عليه السلام. والسبب هو أن موت المسيح (عليه السلام) وإيمان أهل الكتاب به حسب الآية لا ينفصلان. أي أن موته سوف يحدث عندما يؤمن به منكروه. فإذا كان موته قد وقع بمناسبة صعوده إلى الله، كان لا بد أن يؤمن به اليهود الذين تأمروا على قتله قبل ذلك. وبالمثل، كان من الضروري أيضاً أن يؤمن به كل يهودي منذ صعوده إلى الله، وأن يظل العالم خالياً من اليهود باستمرار طوال الألفي عام الماضية. ويشهد التاريخ أن أيّاً من هذين الحداث لم يحدث. وإن لم يحدث هذا، ولم يحدث قطعاً، فإن ذلك يعني بشكل واضح أن النبي عيسى (عليه السلام) حي وبصحة جيدة، ولم يصبه الموت.

يرى فريق من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿لَيُؤْمَنَّ بِهِ﴾ يعود إلى المسيح عليه السلام، بينما يعود الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إلى كل فرد من أهل الكتاب، فيكون معنى الآية أن كل يهودي أو نصراني سيقرّ بحقيقة رسالة عيسى عليه السلام عند مواجهة الموت، ولو في اللحظات الأخيرة من حياته. وعلى هذا الأساس ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية تؤيد وتثبت روايات نزول المسيح آخر الزمان،

فإذا جُمعت الدلائل معاً ظهر بوضوح أن حياة عيسى عليه السلام ونزوله قبل القيامة أمر حق، وقد استدلل أبو هريرة رضي الله عنه بهذه الآية نفسها على صحة أحاديث نزوله، مؤكداً أن قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إنما هو إشارة إلى موت المسيح نفسه لا إلى موت آحاد أهل الكتاب. بناءً على ما تقرّر، يرى جمهور العلماء أنّ هذه الآية الكريمة تؤيّد وتفسّر بوضوح مسألة حياة المسيح عيسى عليه السلام. وقد شرح المفتي محمد شفيع العثماني هذا المعنى في كتابه عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، حيث رجّح:

"أن الضمير في كلمة "موته" عائد إلى السيد المسيح عليه السلام. والمعنى أنّ أهل الكتاب - يهوداً كانوا أو نصارى - وإن كانوا اليوم لا يؤمنون بنبوته على حقيقتها، فإنهم عند نزوله آخر الزمان سيؤمنون جميعاً به إيماناً صحيحاً.

فاليهود الذين كذبوه واتهموه بالافتراء سيُجبرون على الاعتراف بنبوته، والنصارى الذين غلوا فيه حتى ألوهوه أو نسبوه إلى البنوة، سيتركون عقائدهم الباطلة ويؤمنون به رسولاً لله. في ذلك الوقت، يدين جميع النصارى بالإسلام، وأما اليهود الذين يقاومون الحق فسيهلكون، ومن يبقى منهم يدخل في الإسلام. وهكذا يُقضى على مظاهر الكفر كلّها، وتكون الغلبة للإسلام في الأرض.

وقد ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"لينزلن عيسى بن مريم حكماً عدلاً، فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا تكون العبادة يومئذٍ إلا لله رب

العالمين". ثم قال أبو هريرة: «اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾» وكررها ثلاثاً، أي قبل موت عيسى نفسه.

ومن هنا استدل العلماء على أنَّ تفسير الآية ثابت بحديث صحيح، وأن عبارة "قبل موته" المراد بها قبل موت عيسى عليه السلام، لا قبل موت غيره. وهذا التفسير يؤكد أنَّ عيسى لم يميت بعد، وإنما سينزل إلى الأرض قرب قيام الساعة، ثم يموت فيها بعد أن يحقق ما وعده الله به من القضاء على الكفر ونصرة دين الإسلام.^{١٧}

أما التفسير الآخر الذي ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فيرى أنَّ الضمير في "موته" راجع إلى كل فرد من أهل الكتاب نفسه؛ أي أن كل يهودي أو نصراني إذا حضره الموت أُجبر على الاعتراف بعيسى عليه السلام نبياً لله، ولو لم ينفعه هذا الإيمان المتأخر. وقد نقل الإمام السيوطي هذا القول في تفسيره الدر المنثور.

"قيل لابن عباس: أرايت إن خر من فوق بيت قال: يتكلم به في الهواء فقليل أرايت إن ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج بها لسانه وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى عليه السلام."^{١٨}

^{١٧} معارف القرآن ٢/٦٠٣-٦٠٥.

^{١٨} ٢/٧٣٣.

دلائل نزول المسيح

يُستدل من الأحاديث على تصور نزول السيد المسيح عليه السلام من السماء إلى الأرض. يقدم العلماء والمفسرون جميع الأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع كأدلة قطعية في تأييده.

وفيما يتعلق بالقرآن الكريم فلا توجد فيه أي نصوص تدل مباشرة وبشكل صريح على نزول المسيح ومع ذلك، حسب رأي العلماء، هناك بعض الآيات في القرآن التي تحتوي على إشارات تدعم نزول المسيح. وأهمها تلك الآيات المذكورة أعلاه المتعلقة برفع المسيح وحياته. بالإضافة إلى ذلك تساهم آية (٦١) من سورة الزخرف التي تستخدم فيها عبارة "وإنه لعلم للساعة" إلى نزول المسيح عليه السلام.

وهكذا، عندما نفهم آيات رفع المسيح وحياته مع أحاديث نزول المسيح ووفاته معاً، يتضح المخطط الكامل لله. إذا قرأت الآيات، تجد أنها تثبت رفع المسيح عليه السلام وحياته وتبرز إشارات نزوله. وإذا نظرت إلى الأحاديث، تجد أنها تثبت نزوله ومن ثم وفاته. هذا الإثبات يلزم رفعه وحياته،^{١٩} وبالتالي تصبح هذه الأحاديث مثبة ومؤكدة

^{١٩} ويعني ذلك أن النزول يمكن فقط في صورة حين ثبت الرفع كما أن وفاته

لتلك الآيات المذكورة:

بعد هذه المقدمة، عليكم الآن الاطلاع على تفاصيل الدلائل المتعلقة التي يدلي بها العلماء لنزول المسيح.

١- أساس مفهوم نزول المسيح: الأحاديث

اتفق العلماء على أن تصور نزول المسيح مستند إلى الأحاديث وقد وردت الروايات حول هذا الموضوع بأسانيد صحيحة وحسنة في معظم كتب الحديث، وذكر فيها أن المسيح عليه السلام سينزل من السماء مباشرةً إلى الأرض قرب القيامة. ويهبط على منارة مسجد في دمشق ويتولى قيادة جيش المسلمين. ثم يقتل الدجال وأتباعه من اليهود. وبفضل دعائه، يقضى على يأجوج ومأجوج أيضاً وتصبح الدنيا حينها مهد السلام والوئام ولن يبقى على وجه الأرض دين غير الإسلام.

فيقول المولانا أبو الأعلى المودودي في "تفهم القرآن" بعد سرد الأحاديث الممثلة لنزول المسيح:

"هذه إحدى وعشرون رواية وردت عن أربعة عشر صحابياً بسند صحيح في أصدق كتب الحديث. ... جميع هذه الأحاديث تخبر بوضوح وصراحة عن نزول ذلك عيسى عليه السلام الذي ولد قبل ألفين عام من غير أب من بطن مريم عليها السلام.... إذا كان

يمكن أن يقع أيضاً إذا كانت حياته باقية.

أحد يؤمن بالأحاديث، فمن الضروري أن يعتقد أن الذي سيأتي هو عيسى ابن مريم عليه السلام. وإذا كان أحد لا يؤمن بالأحاديث، فلا يمكنه أن يؤمن بمجيء أحد على الإطلاق، لأن الاعتقاد بمجيء القادم ليس مبنياً إلا على الأحاديث.^{٢٠}

٢ - تواتر روايات نزول المسيح

وعلماء الدين يعتقدون أن روايات نزول المسيح كثيرة ومتواترة أيضاً، طبيعتها ليست كأخبار الآحاد العامة التي تُروى عن قليل من الرواة. بل قد رواها عدد من الصحابة، وحدث عنها عدة رواة، ونقلها معظم المحدثين.

فيقول الإمام ابن كثير إن روايات نزول المسيح قد بلغت حد التواتر. ووفقاً لهذه الروايات قال النبي صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام ينزل مرة أخرى قبل يوم القيامة. في ذلك الوقت تكون مكانته كحاكم عادل. وجاء في تفسير ابن كثير:

"إنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر فيها بمجيئ المسيح عليه السلام قبل يوم القيامة والذي يأتي إماماً عادلاً مقسطاً."^{٢١}

يرى الإمام الشوكاني أن الأحاديث الواردة في نزول المسيح عليه السلام، وكذلك الأحاديث الواردة في خروج الدجال والمهدي المنتظر،

^{٢٠} تفهيم القرآن ٤ / ١٦٢.

^{٢١} ٤ / ١٦٩.

كلها بلغت حدَّ التواتر وقد نقل صاحب عون المعبود قوله:
"وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر... الأحاديث الواردة في المهدي
المنتظر متواترة، والأحاديث الواردة في الدجال متواترة، والأحاديث
الواردة في نزول عيسى عليه السلام متواترة." ٢٢

٣- الاستدلال بآية سورة الزخرف (الآية ٦١)

يُرد في سورة الزخرف الآية ٦١ أنَّ عيسى عليه السلام جعل علامة
من علامات الساعة، حيث
قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي إِنَّهُ علامةٌ ودليلٌ على قيامها،
ومعلومٌ أنَّ إطلاق وصف "العلامة" على أمرٍ ما يقتضي ارتباطه بقُرب
وقوع الساعة.

وقد ورد في كتب الحديث عددٌ من الروايات التي تذكر أشراف
الساعة وعلاماتها المختلفة، ومن جملتها رواياتٌ تُعدُّ نزولَ المسيح
من علامات الساعة. وبناءً على ذلك ذهب جمهورُ العلماء إلى أنَّ
كونَ المسيح عليه السلام علامةً للساعة في هذه الآية إنما هو باعتبار
نزوله من السماء في آخر الزمان. وعلى هذا الفهم، تكون الآية مؤيِّدةً
ومصدِّقةً لما ورد في الروايات من خبر نزول المسيح.

ونص الآيات بكاملها هي كالآتي:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا آلِهَتُنَا

٢٢ عون المعبود ١١/٣٠٨.

خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣. ٢٤﴾
أكثر المفسرين على هذا الرأي. وقد جاء في تفسير ابن كثير ما نصّه

بمعناه:

"أي إنّ عيسى عليه السلام علامة من علامات الساعة؛ لأنّ سياق الكلام من قبل كان في ذكره عليه السلام. والمقصود هنا نزوله قبل قيام الساعة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: قبل موت عيسى عليه السلام، فيؤمن به جميع أهل الكتاب، ثم يكون عليهم شهيداً يوم القيامة..

ويّضح هذا المعنى تماماً من القراءة الأخرى للآية:

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، أي إنّ روح الله عيسى عليه السلام علامة ودليل على اقتراب قيام الساعة.

وقال مجاهد رحمه الله: هو علامة من علامات الساعة، أي نزول عيسى بن مريم عليه السلام قبلها. وروى هذا المعنى عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما، وهو مرويّ كذلك عن أبي العالية،

٢٣ ٥٧-٦٢.

٢٤ هنا قد نقل الكاتب ترجمة الآيات بالأردية من تفهيم القرآن للمودودي حذفناها لأنه غير ضروري للقارئ العربي.

وأبي مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك رحمهم الله وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عيسى عليه السلام سينزل قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحاكمًا مقسطًا. فاعلموا يقينًا أنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، ولا تمتروا في ذلك.^{٢٥}

ويقول الشيخ محمد مالك الكاندهلوي في معارف القرآن: ^{٢٦}
"جمهور المفسرين متفقون على أن المقصود بـوَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ هو عيسى بن مريم عليه السلام، وأن نزوله من السماء وظهوره على الأرض من العلامات الكبرى للساعة." ^{٢٧}



^{٢٥} تفسير ابن كثير ٤/ ٦٣١، ترجمة: مولانا محمد جونا گڑھی.

^{٢٦} إن هذا مقتبس من تفسير معارف القرآن للشيخ إدريس الكاندهلوي، وقد توفي حين بلغ إلى مجلده الخامس قبل اكتماله وأكمل نجله عبد المالك بقية أجزاء التفسير بعده.

^{٢٧} معارف القرآن ٧/ ٣٠٧.

متعلقات تصور نزول المسيح

وقد بينا في المذكور أعلاه كافة المستدللات على نزول المسيح، والتي يُستند إليها في إقامة تصور رفع عيسى عليه السلام ورفعته وبقائه حياً هناك ثم نزول الثاني قرب يوم القيامة لإنجاز بعض المهمات ثم وفاته طبيعياً.

وقد أجمع العلماء على صحة هذا الاعتقاد استناداً إلى القرآن والسنة، واعتبروه من المسائل المقطوع بها ويطلبون إنكار هذا التصور. يقول العلامة زاهد الكوثري^{٢٨} في كتابه "نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة":

"ويتوضح من بحثنا المتقدم أن نصوص القرآن الكريم وحدها تحتم القول برفع عيسى عليه السلام حياً وبنزوله في آخر الزمان، ولا يعتد بالاحتمالات الخيالية التي لا تقوم على دليل. والأحاديث قد تواترت في ذلك، واستمرت الأمة خلفاً عن سلف على الأخذ بها وتدوين موجبها في كتب الاعتقاد منذ العصور الأولى إلى يومنا

^{٢٨} الشيخ زاهد الكوثري (١٨٧٩م-١٩٥٢م) عالم حنفي كبير وكاتب معروف من آخر أدوار الخلافة العثمانية.

هذا".^{٢٩}

هذه العبارة تلخص الموقف العام للعلماء. ومن الواضح من هذا أن عندما يتم ذكر نصوص نزول المسيح فإن ذلك يترتب عليه أيضاً بعض الآثار والنتائج. وتأتي هذه المناقشات في طبيعة المناقشات التكميلية والإضافية، والتي تُطرح للتأكيد على موقف معين وإزالة الاعتراضات عليه. ومع ذلك، فإنها تتمتع بأهمية خاصة في السياق العام للدين. ولذلك فمن المهم أيضاً أن نذكرها. وفيما يلي ثلاث مناقشات بارزة في هذا الصدد.

أولاً - شمول تصور نزول المسيح في العقائد

إن مفهوم نزول المسيح يندرج ضمن تصنيف الإيمانيات. ويبدو أن هذا عند العلماء اعتقاد، كالإيمان بالتوحيد والنبوة واليوم الآخر، وهو اعتقاد لا بد من الإيمان به. والمقصود أن المسلم يجب أن يؤمن بأن عيسى عليه السلام سينزل مباشرة من السماء ويقتل المسيح الدجال. هذه علامة من علامات الساعة التي ستقع في المستقبل، ولأنها مبنية على أحاديث صحيحة ثابتة فإن الإيمان بها شرط من شروط الإيمان، وإنكارها كفر. فقد جاء في كتاب عقيدة الطحاوية^{٣٠} وهو من أكبر كتب العقائد لدى الحنفية:

^{٢٩} ص ١٠٦.

^{٣٠} للإمام أبي جعفر الطحاوي.

"ونؤمن بأشراط الساعة، ومنها: خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء."^{٣١}

وجاء في كتاب منسوب للإمام أبي حنيفة:

"خروج الدجال وأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام من السماء وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت به الأخبار الصحيحة حق كائن."^{٣٢}

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم:

"نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة، للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، فوجب إثباته."^{٣٣}

وقال الإمام جلال الدين السيوطي في الحاوي للفتاوى:

"إما نفي نزول عيسى أو نفي النبوة عنه، وكلاهما كفر."^{٣٤}

ثانياً: إجماع علماء الأمة على فكرة نزول المسيح

يقول العلماء إن هناك إجماعاً بين علماء الأمة على فكرة نزول المسيح. فهو من الأمور التي أجمعت عليها الأمة:

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان:

^{٣١} ٥٩/١.

^{٣٢} ص ٧٢.

^{٣٣} ٥٩٩/٧.

^{٣٤} ٢٠١/٢.

"والإجماع على أنه حي في السماء وينزل ويقتل الدجال ويؤيد الدين".^{٣٥}

ويقول الإمام ابن عطية في كتابه البحر المحيط:
"وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من: أن عيسى
في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان، فيقتل الخنزير".^{٣٦}
ويقول الإمام الأشعري:
"وأجمعت الأمة على أن الله سبحانه رفع عيسى صلى الله عليه
وسلم إلى السماء".^{٣٧}

وجاء في التلخيص الحبير:
"فاتفق أصحاب الأخبار والتفسير على أنه رفع ببدنه حيا".^{٣٨}
ويقول شمس الدين السفاريني^{٣٩} وهو إمام حنبلي كبير:
"وأما الإجماع فقد اجتمعت الامة على نزوله ولم يخالف فيه
أحد من أهل الشريعة وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة مما لا
يعتد بخلافه وقد انعقد إجماع الامة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة
المحمدية".^{٤٠}

^{٣٥} ٥٢/٢.

^{٣٦} ٣٦٠/٢.

^{٣٧} الإبانة عن أصول الديانة ١/ ١١٥.

^{٣٨} ٤٦٢/٣.

^{٣٩} عالم ومصنف كبير (١٧٠١-١٧٧٤) كان ينتمي إلى سفارين الواقعة بفلسطين.

^{٤٠} شرح العقيدة للسفاريني ٩٠/٢.

ثالثاً: نزول المسيح وختم النبوة

إن المجيء الثاني لعيسى المسيح سوف يحدث بعد رحيل نبي آخر الزمان النبي محمد صلى الله عليه وسلم من هذا العالم، ولذلك فإن مفهوم نزول المسيح يبدو متناقضاً مع مفهوم اكتمال النبوة. ولذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه بطبيعة الحال هو أنه في حالة قبول نزول المسيح ما يكون توجيهه و تفسير النصوص الصريحة في القرآن والحديث من مثل: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾^{٤١} وحديث "أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي"^{٤٢}

والجواب على هذا السؤال عند العلماء هو أنه بعد نزوله لن ينزل على عيسى (عليه السلام) الوحي، ولن يتبع شريعته الخاصة، أي الشريعة الموسوية. فإنه يأتي إلى الدنيا عضواً و فرداً من أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتبع شريعته. وسيكون نزوله لأداء بعض المهام الخاصة به. وإنه سيموت إثر تنفيذه لها، والحجة هي أنه لن يتصف بالصفتين الأساسيتين للنبوة: الوحي وتنفيذ الشريعة، وبالتالي فإن قدومه لن يغير من واقعة انتهاء وختم النبوة.

يقول العلامة التفتازاني^{٤٣} في شرح العقائد النسفية:
"ثبت أنه آخر الأنبياء ... فإن قيل: قد روي في الحديث نزول

^{٤١} الأحزاب ٣٣: ٤٠.

^{٤٢} الترمذي، رقم ٢٢١٩.

^{٤٣} سعد الدين التفتازاني (٧٢٢هـ - ٧٩٢هـ)، فقيه أصولي حنفي.

عيسى عليه السلام بعده، قلنا: نعم، لكنّه يتابع محمّداً عليه السلام، لأن شريعته قد تُسخت، فلا يكون إليه وحي ولا نصب أحكام، بل يكون خليفة لرسول الله عليه الصلاة والسلام.^{٤٤}

وكما يصرّح الآلوسي^{٤٥} في روح المعاني بأن نزول المسيح لا ينفك عن نبوّته، غير أنّه يتّبع الرسالة المحمّدية في الأصول والفروع جميعاً، حيث قال:

"ثمّ إنه عليه السلام حين ينزل باقٍ على نبوّته السابقة، لم يُعزل عنها بحال، لكن لا يتعبّد بها لنسخها في حقه وحق غيره، وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً، فلا يكون إليه عليه السلام وحي ولا نصب أحكام، بل يكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاكماً من حكام ملّته بين أمّته."^{٤٦}

وعلى المنوال نفسه، يذهب الإمام الرازي إلى أنّ النبوة قد خُتمت بسيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، ومن ثمّ يكون المسيح بعد نزوله تابعاً لشريعة محمّد صلى الله عليه وسلم لا غير، حيث قال:

"انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمّد صلى الله عليه وسلم، فعند مبعثه انتهت تلك المدّة، فلا يبعد أن يصير (أي عيسى ابن مريم) بعد نزوله تبعاً لمحمّد عليه الصلاة والسلام."^{٤٧}

^{٤٤} ص ١٣٥.

^{٤٥} وهو الشيخ السيد محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي (١٢١٧هـ-١٢٧٠هـ).

^{٤٦} روح المعاني ٢٢/٢٩٠.

^{٤٧} التفسير الكبير ١١/٨٣.

وقد نقل المولانا المودودي من السلف موقهم هذا فقال في تفسيره "نفهم القرآن":

"إن نزول عيسى ابن مريم لا يكون في صورة نبي" لن ينزل عليه الوحي، ولن يأت برسالة جديدة أو أوامر جديدة من الله، ولن يزيد أو ينقص من الشريعة المحمدية، ولن يأت إلى العالم لتجديد الدين، ولن يأت لدعوة الناس إلى الإيمان به، ولن يشكل جماعة منفصلة من أتباعه.

سيتم مجيئه لمهمة محددة واحدة فقط، وهي القضاء على فتنة المسيح الدجال. ومن أجل ذلك ينزل بحيث لا يشك المسلمون الذين ينزل فيهم أنه عيسى بن مريم الذي جاء في الوقت المناسب حسب نبوءات رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيأتي ويلتحق بالجماعة، ويصلي خلف من يكون إمام المسلمين في ذلك الوقت، ويضع أمامه من يكون أمير المسلمين، حتى لا يكون هناك مجال للشك في أنه عاد للقيام بواجباته النبوية، كما كان في منصبه النبوي السابق. ومن الواضح أنه إذا كان لجماعة نبي من أنبياء الله فلا يمكن أن يكون إمامها وقائدها أحد غيره. ولذلك عندما ينضم إلى المجتمع الإسلامي كفرد عادي، فإن ذلك سيكون تلقائياً إعلاناً بأنه لم يأت نبياً، ومن ثم لن يكون هناك أي مجال على الإطلاق لكسر خاتم النبوة عند وصوله.

وسيكون وصوله مشابهاً بشكل لا يقارن بوصول رئيس سابق إلى الرئاسة وتقديم بعض الخدمات للدولة في عهد الرئيس الحالي. ... وبالمثل فإن وصوله لن يشير أية أسئلة جديدة تتعلق بالإيمان أو

الكافرين المسلمين. وحتى اليوم، من لم يؤمن بنبوته السابقة أصبح كافرًا. لقد آمن محمد (صلى الله عليه وسلم) بهذه النبوة بنفسه، وكان كل أمته مؤمنين به منذ البداية. وسوف يسود نفس الوضع في تلك المرة أيضًا. ولن يؤمن المسلمون بأية نبوءة جديدة، بل سيؤمنون بالنبوءة السابقة لعيسى ابن مريم، كما يفعلون اليوم. وهذا لا يخالف نهائية النبوة اليوم، ولا سيحدث في ذلك الوقت.^{٤٨}



إشكالية نزول المسيح عند غامدي

ويرى الأستاذ جاويد أحمد غامدي أن مفهوم نزول المسيح هو مسألة تكهنية. والسبب في ذلك هو بعض المشاكل في الفكر والتواصل. ومن أبرز هذه المشاكل التي تنشأ عن النظر في روايات نزول المسيح في ضوء القرآن الكريم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن التساؤلات التي تثار بشأن المبادئ المتفقة للرواية والدراية هي أيضاً مهمة، وتمنع وتشكل عقبات أمام القبول للروايات المذكورة أعلاه بالمعنى السائد عموماً. وقد ذكر الأول منهما الأستاذ الجليل في كتابه "ميزان". ولذلك فإنه في معرض ذكره لعلامات يوم القيامة وأحواله تحت عنوان "الإيمان بيوم القيامة"، ففي الوقت الذي أكد فيه على ظهور يأجوج ومأجوج والمسيح الدجال، أبدى أيضاً تردده في مجيء المسيح. فقال:

"وعلاوة على ذلك ظهور المهدي ونزول المسيح عليه السلام من السماء من بين أشراط الساعة. ولم نذكرها. ووجه ذلك أن روايات ظهور المهدي لم تثبت على معيار النقد الحديثي فبعضها ضعيف وبعضها موضوع. ولا شك أنه قد أخبر بمجيء خليفة جواد راشد في

بعض الروايات التي إسنادها مقبول (رواه مسلم رقم ٧٣١٨) ولكن إذا تأملتها بدقة نظر يتضح منها بوضوح كامل أن مصداقيها قد ثبت في حق عمر بن عبد العزيز رحمه الله أو في حق معاوية رضي الله عنه وفق بعض الروايات، الذي كان خليفة راشداً في آخر خير القرون ثبوتاً تاماً، فلا حاجة إذن لانتظار مهدي موعود. أما نزول المسيح عليه السلام فإن روايات نزوله والتي قبلها المحدثون في عامة الأحوال ولكنها كلها تصوير محل نظر إذا رأيتها ودرستها بنظرة قرآنية. أولاً لأن القرآن الكريم قد تحدث عن شخصية المسيح عليه السلام من جوانب مختلفة وعلق على شخصيته ودعوته في أماكن متعددة، وزلزلة يوم القيامة أيضاً موضوع خاص للقرآن. ورفع رسول جليل القدر كعيسى حياً إلى السماء ثم نزوله إلى الأرض هو حدث ضخم ولكن مع تواجد مناسبة بيان تلك الواقعة لم يشير إليها القرآن في مكان ما، كيف يطمئن العلم والعقل على سكوت القرآن عن ذلك؟ وليس سهلاً الإيمان به.

وثانياً لأن القرآن في سورة المائدة قد نقل محادثة تكون في يوم القيامة لعيسى عليه السلام مع الله تعالى. ففي تلك المقابلة سوف يسأله الله عن منطلق ضلال المسيحيين: يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله " فيجيبه: سبحانك ما قلت لهم إلا بما أمرتني به، وكنت عليها شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم. فإن كان المسيح قد ينزل مرة ثانية في هذه الدنيا فهذه الجملة الأخيرة من الآية الكريمة غير مطابقة

— إشكالية نزول المسيح عند غامدي —

للحال تماماً. فإنه كان عليه أن يقول نعم وأنا أعلم جيداً ما أحدثوا من ضلال كبير وقد أذرتهم أنفاً منذ فترة وجيزة. وقال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.^١

وثالثاً جاءت تلك المناسبة مرة أخرى في سورة آل عمران حيث يتحدث الله سبحانه عن مشروعه وخطته في المسيح عليه السلام ودعوته ومتبعيه إلى يوم القيامة، إذن كانت المناسبة ملائمة لأن يصرح الله له إني مرسله مرة أخرى إلى الدنيا. ولكن الله لم يصرح ذلك ولم يشير إلى ذلك. فإذا كان المسيح آتياً من جديد فلماذا هذا السكوت؟ لا وجه له.^٢

هذا بيان لاعتراضات الأستاذ الجليل في ضوء القرآن الكريم، وأما الاعتراضات التي تثار في ضوء أصول النقل والحديث والتي تسبب التردد في مفهوم نزول المسيح فقد شرحها الأستاذ الجليل تحت عنوان "نزول المسيح" في سلسلة الفيديوهات "الرد على ٢٣ اعتراضاً على فكر غامدي". تم تقديم وصف لكلا النوعين من المشاكل.

^١ المائدة ٥: ١١٧.

^٢ ميزان ١٨٢-١٨٣.

القرآن وإشكالية نزول المسيح عند غامدي

ويذكر القرآن الكريم عيسى (عليه السلام) في أمكنة كثيرة. فقد جاء ذكره في عدة أماكن في ١٣ سورة مختلفة. تتحدث عن جوانب مختلفة من شخصيته ومواقف حياته المختلفة. فهو يذكر عائلته، ويعرف بشخصية أمه المقدسة السيدة مريم (عليها السلام)، ويصف الظروف التي سبقت ولادته، ويفصل ولادته الاستثنائية، ويلخص حياته كلها من ولادته إلى رفعه إلى الله، ويحكي قصة دعوته وردة فعل من وجهها إليه، ويشير إلى معجزاته العظيمة، ويذكر موته، ويروي سلوك اليهود والنصارى بعد موته، بل ويسجل حوار مع الله تعالى في المستقبل البعيد أي يوم القيامة، الذي وصفت فيه دوره في العالم. كل هذه الأمور موصوفة في القرآن بكل وضوح، ولكن الحدث الأهم في حياته، بل وفي تاريخ البشرية - وهو أنه سينزل مرة ثانية مباشرة

من السماء بعد قرون من موته وصعوده إلى الله - لم يتم ذكره في القرآن.

الإشكالية الأولى

عدم ذكر نزول المسيح في القرآن الكريم رغم مناسبات ذكره:

كل الأحداث المهمة المتعلقة بعيسى (عليه السلام) المذكورة في القرآن الكريم. ومنها أحداث ما قبل الولادة، وما عند الولادة، وما بعد الولادة، وما وقائع عند الموت، وما بعد الموت، وما سوف يحدث يوم القيامة. ومن الجدير بالذكر أن هذه الأحداث المذكورة، ولكن لم يتم ذكر حدث واحد مهم جداً ضمنها. ومن أجل فهم هذه القضية، هناك بعض الأماكن النموذجية في هذا الصدد على النحو التالي:

(أ) تتحدث الآيات ٤٥-٤٧ من سورة آل عمران عن أهم الجوانب التي حدثت قبل ميلاد النبي عيسى (عليه السلام). والتي تستوعب أموراً وأحوالاً مستقلةً له كما يأتي:

- بشر الله مريم بميلاد المسيح عيسى قبل أن تحمل.
- عرفه الله بكلمته وسماه عيسى.
- أخبر الله أن المسيح سيتكلم عن نبوته في المهد.
- عندما يكبر، سيتم عده وحسابه من الصالحين.

والآيات هي كالتالي:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيئًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.^٣

وفي النص هنا مجال واسع لبيان أن الله تعالى لو شاء لذكر نزول المسيح. فإن هذا بيان ما قبل خلقه. ويذكر مولده العجيب الخارق للعادة ونجاحه في الدنيا والآخرة.

(ب) وكما في الآية ٥٩ من سورة آل عمران أيضاً ورد عن النبي عيسى (عليه السلام) أن مثله كمثل النبي آدم، أي كما قد خلق آدم بكلمة الله (كن) من قبل فكذلك خلق عيسى (عليه السلام). والمقصود من هذا أن نبين أنه إذا لم يكن آدم عليه السلام قد خلق من طين بأمر الله فيصبح إلهًا، فكيف يكون عيسى المسيح قد خلق بأمره فيصبح مستحقًا للعبادة؟ فجاء في القرآن:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.^٤

وهذا المكان في الواقع هو وصف للاستثناء الإبداعي الذي حققته

^٣ آل عمران ٣: ٤٥-٤٧.

^٤ آل عمران ٣: ٥٩.

شخصيتان في تاريخ البشرية، سيدنا آدم وسيدنا عيسى (عليهما السلام). وكلاهما ولدا بأمر مباشر من الله.^٥

فقد جاء آدم عليه السلام إلى الوجود بكلمة (كن) في التراب، وولد عيسى عليه السلام بإلقاء كلمة (كن) على مريم، فإذا كان الله تعالى قد وصف هذا الحدث الاستثنائي فلماذا لم يصف حدثاً استثنائياً من نفس المستوى، وهو أن ينزل عيسى المسيح من السماء مباشرة كالاستثناء الوحيد بين البشر؟

(ج) الآيات ٤٨-٥١ من سورة آل عمران (٣) تصف عمل النبي عيسى (عليه السلام) قبل ولادته. وفي هذا الصدد تم ذكر المعجزات التي أنعم الله عليه بها أيضاً. وقد قيل ذلك. الآيات ٤٨-٥١ من سورة آل عمران (٣) تصف عمل النبي عيسى (عليه السلام) قبل ولادته. وفي هذا الصدد تم ذكر المعجزات التي أنعم الله عليه بها أيضاً. وقيل:

- يعلمه الله الكتاب والحكمة، أي يعلمه التوراة والإنجيل.

- يُرسل رسولاً إلى بني إسرائيل.

- يصنع من الطين تمثالاً لطائر ثم ينفخ فيه فيصير طائراً حياً.

- يعيد البصر إلى من وُلد أعمى، ويشفى من يعانون من مرض الجذام

الذي لا شفاء منه.

^٥ جاء ذلك صراحة في الآية ٤٨ من سورة آل عمران.

• يعيد الموتى إلى الحياة.

• إنه يصدق التوراة.

• ويحل ما حرم عليهم.

والآيات هي كالتالي:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ. وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ ۖ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

كل ما يجب على عيسى المسيح (عليه السلام) أن يفعله نيابة عن الله قد ذكر هنا. أي أن هذه هي واجباته أمام الله، ومكونات دوره الدنيوي. إن نزول المسيح هو أيضاً عمل من عند الله، وهو تنفيذ لبعض قرارات الله المهمة قبل يوم القيامة. ويؤدي غيابها عن هذه القائمة أيضاً إلى خلق مشاكل.

(د) إن ولادة عيسى عليه السلام من بطن مريم عليها السلام من دون أب حدث خارق للعادة. وكان ذلك بأمر مباشر من الله تعالى.

ولذلك جعل الله تعالى مريم وابن مريم آيتين. وقد جاء في سورة المؤمنين:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً...﴾^٦

كما عبر بهما في سورة الأنبياء ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وقال:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا

آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^٧

ولذلك يتبين من سورة مريم أن ولادة عيسى المسيح من غير أب كانت حدثاً خارقاً للطبيعة، أنزله الله تعالى آية من آياته. ومن أجل ذلك خرج الله تعالى عن قانون الخلق العام فأنزل أمره مباشرة وأقره كجنين في بطن أمه بكلمته (كن) ونفخ فيه من روحه. ستبقى هذه العلامة بارزة إلى الأبد كدليل على خلق البشرية وتجدها. فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾^٨

^٦ ٢٣: ٥٠.

^٧ ٢١: ٩١.

^٨ ١٩: ١٦-٢١.

ومن الآية السابقة يتبين أن سيدنا عيسى عليه السلام كان آية من آيات الله. جعل الله شخصيته وصفاته آيات للناس. السؤال هو، إذا كان القرآن قد وصف جميع جوانب وجوده كآية إلهية، فلماذا لم يصف الجانب الخارق للطبيعة من نزوله، مع أن نزوله في معنى هو آية أعظم من خلقه. يمكن إنكار مولده الخارق للعادة بشكل افتراضي، وقد تم إنكاره بالفعل، ولكن حقيقة أن رجلاً من العصور القديمة نزل مباشرة من السماء أمام أعين الناس بعد ألفى عام هو حدث لا يمكن إنكاره. ولذلك فمن الواجب المنطقي أن يذكر نزوله كالشهادة العظيمة بأن يسوع المسيح آية من آيات الله مع بقية الأدلة. وإذا لم يذكر ذلك فإنه مما يعقل أيضاً أن يثار الشك في وقوعه.

خامساً: وقد جاء تفصيل ميلاد المسيح عليه السلام وكلامه في المهد في الآيات ٢٢-٣٣ من سورة مريم (١٩). لقد كان كلا الحدثين غير عاديين للغاية في حياته وفريدين تماماً في تاريخ البشرية. وقد جاء في سورة مريم أن السيدة مريم حملته بأمر الله فخرجت به من بلدها. ثم لما جاء وقت المخاض والولادة جاء ملاك الله يعزيها ويعطيها عين ماء. ثم أمرها أن تأخذ المولود وترجع إلى قومها. وإذا طرحوا أي سؤال أو اعتراض، فيجب عليها الإشارة إلى أنها قد التزمت بالصمت. فعادت. ولما رأوا الطفل معها بدأ الناس يشككون في عفتها، فأشارت إلى الطفل. أن كلموه فقال الناس: كيف نسأله وهو مولود جديد لم

يبلغ سن النطق؟ وعندها بدأ الطفل يتكلم. فقال:

- إنه عبد الله
- لقد آتاه الله الكتاب والنبوة
- ولذا فقد أصبح مصدرًا للخير والبركات .
- جعله الله طائعًا لأمه وبرًا بها
- ولم يجعله الله شقيًا متمرّدًا .
- وأوصاه الله تعالى بـ:
أ. يستمر في الصلاة.
ب. الاستمرار في إخراج الزكاة.
- لقد بشر الله بالسلام في ثلاث مناسبات من حياته وموته:
أ. اليوم الذي ولد فيه.
ب. اليوم الذي يموت فيه.
ج. ويوم يبعث حيًّا.
- ويقول القرآن في كل ذلك:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ۖ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي ۖ عَيْنًا ۖ فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ۖ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

— إشكالية نزول المسيح عند غامدي —

إِنْسِيًّا. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يُمَرِّمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا. يَأْخُذُ
بِهَزُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ ۖ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ
قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ. آتَنِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ۖ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ
عَلَى يَوْمِ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ^٩

والجزء الأخير من كلام عيسى عليه السلام في المهد، الذي تناولته
الآيات السابقة من سورة مريم، يحمل دلالة خاصة بالنظر إلى الموضوع
الذي نحن بصددده.

يتضح من القرآن الكريم أن كل فرد على الأرض من آدم عليه السلام
وذريته - أي البشرية كلها - سوف يمر بثلاث مراحل: الأولى الولادة،
والثانية الموت، والثالثة البعث بعد الموت أي يوم القيامة. وقد ذكر
الله تعالى استثناءً في هذه المسألة في القرآن الكريم. وهذا هو حدث
إحياء يسوع المسيح للأمموات. ولكن تفاصيلها لم تذكر في القرآن
الكريم. إذا صحت نسبة أحاديث نزول المسيح إلى النبي صلى الله
عليه وسلم، فإن النبي المسيح عليه السلام له استثناء ملحوظ من بين
البشرية جمعاء في هذا الأمر. أي أنه ليس هناك عنده ثلاث مراحل

^٩ مريم ١٩: ٢٢-٣٣.

حسب القاعدة العامة، بل خمس مراحل:

١- المولد

٢- الموت والصعود إلى السماء، أي الموت ورفع جسده إلى السماء،

٣- انتهاء الموت والنزول إلى الأرض، أي انتهاء حالة الموت والنزول

إلى الأرض،

٤- الموت الطبيعي

٥- البعث بعد الموت، أي الإعادة إلى الحياة يوم القيامة.

وإذا تم تفسير هذا الاستثناء الملحوظ في تاريخ البشرية من خلال أخبار

من المفترض أنها مثبتة وليس أخبار مثبتة بشكل قاطع، فلن يكون من

المستبعد أن يتم تجاهله. ويثار السؤال عن حقيقته.

علاوة على ذلك، فإن هناك جانب مهم جداً أيضاً: أنه عندما تحدث

يسوع المسيح في المهد عن نفسه ووصف جميع مراحل الحياة من الولادة

إلى القيامة، لماذا لم يذكر نزوله إلى العالم في ذلك الوقت؟ وكانت المناسبة

وروعة الخطاب تقتضى أنه إذا كان هذا النزول واقعاً فلا بد أن يذكر

بوضوح في هذه المناسبة.

سادساً: وفي الآيات ١٥٥-١٥٨ من سورة النساء (٤) وصف الله

تعالى جرائم بنى إسرائيل التي استحقوا بسببها لعنة الله. وأول جريمة

في هذا الصدد هي أنهم نقضوا العهد الذي أخذوه مع الله. والجريمة

الثانية هي أنهم رفضوا الإيمان بآيات الله. والجريمة الثالثة هي أنهم

قتلوا أنبياء الله بغير حق. الجريمة الرابعة هي أنهم سلكوا طريق الكفر والعصيان. الجريمة الخامسة هي أنهم سبوا السيدة مريم. الجريمة السادسة هي أنهم زعموا كذباً أنهم قتلوا النبي عيسى عليه السلام. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الجريمة السادسة، ودحض ادعائهم بشكل صريح. وفي هذا الصدد أوضح الله تعالى أنه:

- لم يتمكن الإسرائيليون من قتل يسوع المسيح أو صلبه.
- بل في هذه المناسبة رفعه الله إليه.
- وقد شُبه لهم الأمر.

فقال تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۚ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۚ﴾^{١٠}

والغرض هنا هو دحض ادعاء اليهود بأنهم نجحوا في قتل يسوع المسيح. وإذا كان قد ذكر صعود عيسى عليه السلام في هذا الرد فإن ذكر نزوله أيضاً في غير محله. أي أنه كان موافقاً لكلمة الله أن يقال لهم أن ادعائكم بأنكم كنتم قدرتم على قتل المسيح هو ادعاء كاذب. ولم تستطيعوا قتله ولكن الله بعثه وسينزله قبل يوم القيامة فيقتلكم

^{١٠} النساء ٤: ١٥٧-١٥٨.

جميعاً ويظهر الأرض من وجودكم.

المشكلة الثانية:

الحواريين الله تعالى وعيسى المسيح يوم القيامة

فتحكي الآيات ١١٦-١١٩ من سورة المائدة (٥) حوار الله تعالى مع النبي عيسى (عليه السلام) يوم القيامة. أي أنه أمر واقع في المستقبل، وقد جاء به الله تعالى سابقاً.

فقد جاء فيه:

- يسأل الله تعالى عيسى (عليه السلام) أمام قومه: أأنت أمرت قومك أن يتخذوك وأملك إلهين من دون الله؟
 - فيقول عيسى عليه السلام: كيف يحل لي أن أقول للناس ما ليس لي أن أقوله؟
 - وسيقول أيضاً لو قلتُ شيئاً كهذا أو كان في قلبي شيء كهذا لكنتَ عرفتَه بالتأكيد. فقد تحدثت معهم فقط بما أمرتَ به
 - وبناء على أمرك أمرتهم أن اعبدوا الله الذي هو ربي وربكم.
- ثم يقول:

- أ- بقيت أراقبهم طيلة وجودي بداخلهم.
- ب- ثم توفيتني ولم أعد مسؤولاً عن مراقبتهم .
- ج- فكنت أنت وليهم والرقيب عليهم من بعد يوم الوفاة

إلى يوم القيامة.

د- الآن القرار لك إما أن تعاقبهم على جريمتهم أو تسامحهم

• بعد هذا التوضيح لعيسى عليه السلام يقول الله تعالى:

أ- اليوم هو اليوم الذي لن تظهر فيه إلا ما هو صدق وحق.

اليوم ينعم الله على لأولئك الذين يقفون من أجل الحقيقة في العالم.

ب- أعظم إنجازاتهم أن الله رضي عنهم ورضوا عن الله.

وتحدثت الآيات التالية عن ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
الْبَتِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي
بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۚ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ إِنْ
تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ ۚ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ قَالَ
اللَّهُ بَئِذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^{١١}

^{١١} المائدة ٥: ١١٦-١١٩.

ففي هذه الآيات من المائدة إن عبارة: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ (وتعني: وكنت عليهم حافظًا ما دمت في وسطهم ثم لما توفيتني كنت أنت حافظهم من بعد ذلك) لها أهمية كبيرة في موضوعنا. وتشير دلالتها ومعناها إلى نفي مفهوم نزول المسيح. ومن هذا يتبين أمران:

أولاً: ذكرت فيها ثلاث فترات من حياة وموت اليسوع:

أ- فترة من الولادة إلى الوفاة وتؤشر عليها ألفاظ: ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾.

ب- فترة من الوفاة إلى القيامة- تدل عليها ألفاظ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ ولفظ: ﴿بِذَا يَوْمٍ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

ج- مرحلة القيامة والحساب، تعينها ألفاظ: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَتْتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

ومن الواضح من الآيات أن هناك ارتباطًا تامًا بين الفترات الثلاث المذكورة فيها. ويشهد ترتيب سرد النص على هذا الارتباط. وهذا يعني أن هناك ثلاث فترات فقط فيما يتعلق بحياة ووفاة عيسى (عليه السلام). ولو كان هناك فترة رابعة أيضا لكان من الممكن ذكرها هنا أو لما كان هناك أي ارتباط بين هذه الفترات الثلاث. ويمكن فهم هذه الدليل من خلال آية في القرآن الكريم نفسه. فقد جاء في سورة الكهف (١٨):

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا.

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

— إشكالية نزول المسيح عند غامدي —

مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝١٢

تحدث هذه الآيات عن ثلاث فترات من حياة أصحاب الكهف. الأولى هي الفترة التي لم يلجأوا فيها إلى الكهف، والثانية هي الفترة التي لجأوا فيها إلى الكهف فنومهم الله فيه، والثالثة هي الفترة التي استيقظوا فيها من النوم وخرجوا من الكهف، فالكلام هنا صريح جدًا أنه لا يمكن إدخال فترة رابعة فيها. أي لو قال أحد أنه استيقظ أصحاب الكهف من النوم مرتين لا مرة واحدة ثم خرجوا من الكهف، فهذه مخالفة للكلام وتجاوز عليه ولا معنى له.

ثانيًا: يترشح من لفظ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن سيدنا المسيح عليه السلام كان بعد وفاته (ورفعه) لم يكن يعلم بأمر أتباعه إلى يوم القيامة. أي أنه أوضح لله أنني قبل وفاته كنت ولي أمرهم، ولكن بعد وفاتي لم أعد ولي أمرهم؛ لقد أصبحت أنت الوصي عليهم.

لذا مهما كانت الانتهاكات التي ارتكبوها، أنت تعرفها، فأنا لست على علم بها. ولم يتسق كلام المسيح هذا ولا يتزامن مع سياق محييه ثانيًا. بل كان يجب أن يقول أنه عندما أرسلتني إلى العالم، أصبحت

على دراية بكل ضلالاتهم.^{١٣}

الإشكال الثالث:

الإعلان عن عمل يسوع المسيح الكامل وعدم ذكر نزوله

تصف الآية ٥٥ من سورة آل عمران (٣) برنامجاً عن اليسوع وأتباعه

حتى يوم القيامة. وتذكر ما يلي:

- سيتوفاه الله تعالى
- ثم سيرفعه الله إليه وهكذا يطهر اتباع اليسوع المسيح من منكريه وجاحديه.
- ويغلب الله أتباعه (المسيحيين) على منكريه ومعانديه (اليهود) حتى يوم القيامة.
- ثم في يوم القيامة يعود اليهود والنصارى وجميع الأمم إلى الله تعالى.

^{١٣} وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم ألوهيته قد خلق تدريجياً في أتباع المسيح بعد فترة طويلة من وفاته. ووفقاً لبحث أجراه باحثون في "موسوعة بريتانكا"، تم قبول هذا المفهوم رسمياً كاعتقاد في عام ٣٢٥ م. وقبل ذلك كانوا يعتبرونه إنساناً وعبداً ورسولاً لله. وكان هذا هو الحال مع مفهوم ألوهية مريم.

— إشكالية نزول المسيح عند غامدي —

• وحينئذ يقضى الله في خلافتاهم

قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَحْنُ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمَطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.^{١٤}

إذا كان يسوع (عليه السلام) عليه أن يلعب دورا في العالم مرة أخرى بعد رفعه إلى الله، فمن المستحيل عدم ذكره في هذه اللائحة العملية. في هذه الحالة، يمكن أن يكون تسلسل الإجراءات على النحو التالي:

- سيتوفاه الله تعالى
- ثم يرفعه الله إليه
- ثم سينزله الله تعالى بعد مدة من السماء إلى الأرض
- ثم يقتل الدجال ويقيم دولة الإسلام الغالب على الأرض كله
- ثم يتوفاه الله
- ثم يعود المسيح واليهود والنصارى وسائر الأمم إلى الله تعالى،
- وحينئذ يقضى الله في خلافتاهم.

^{١٤} آل عمران ٣: ٥٥.

إشكالية نزول المسيح والأحاديث عند الأستاذ غامدي

وقبل فحص روايات نزول المسيح في مجموعة الأحاديث، من الضروري فهم طبيعة حدث نزول المسيح هذا. فأول شيء في هذا الصدد هو أنه حدث محدد للغاية ومحسوس ومشهود. ومن حيث تأثيره وفعليته، فهو حدث أكبر من صيرورة العصا ثعباناً، وتفجراتي عشر ينبوعاً، وكيونة الطريق في النهر، والولادة من غير الأب، والكلام في المهدي، والهبوب بعد النوم لمدة ثلاثمائة عام، وحدث انشقاق القمر.^{١٥} والسبب في ذلك هو أنه يمكن خلق الارتباك من خلال تقديم تفسير لا أساس له من الصحة للأحداث المذكورة أعلاه ويمكن إقناع الأشخاص الأقل بصراً بإنكارها^{١٦}

^{١٥} وهذه هي آيات الله العظيمة المذكورة في القرآن الكريم. بعضها نزل مباشرة من الله وبعضها عن طريق الأنبياء.

^{١٦} على سبيل المثال، يتم طرح السؤال حول انشقاق القمر، لماذا لم يتم رصده وشهوده في جميع أنحاء العالم أو لماذا لا تقدم المعرفة العلمية أدلة على ذلك؟

لكن هذه الحادثة مرئية ومتجسدة وطويلة الأمد بحيث لا يمكن تقديم تفسير أقل قوة لدحضها.

الشيء الثاني هو أن هذا الحادث غير معتاد للغاية وخارق للعادة للغاية. إن اختفاء شخص من العالم لمدة ألفي عام ثم نزوله من السماء علنا هو ظاهرة لم تحدث من قبل في تاريخ البشرية ولن تحدث لاحقا. والشيء الثالث هو أنه ليس نزول رجل عادي، بل نزول نبي الله. وهذا يعني أنه لا يتعلق بالأمور العامة لقدرة الله ومشيئته، بل له علاقة بمسألة النبوة والرسالة الخاصة.

الأمر الرابع: أن هذا الحدث هو أعظم علامة من علامات الساعة. وقد وردت أمارات قرب الساعة في الأحاديث كثيرة. ومنها: تصاعد الدخان، وخسوف الأرض شرقاً وغرباً، وخروج دابة الأرض، وسوق النار للناس، وطلوع الشمس من الغرب، وظهور المسيح الدجال، وخروج الياجوج والمأجوج، وغير ذلك من العلامات التي من هذا القبيل.

إن مجرد إلقاء نظرة على هذه القائمة يظهر أن أمارة نزول المسيح هو الأبرز بينها.

والنقطة الخامسة هي أن هذه الحادثة تثير للوهلة الأولى تساؤلات حول قطعية و يقينية قرار قطعية ختم وانتهاء النبوة المذكور في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. أي أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يُنظر إلى عودة نبي سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد

رحيله من الدنيا في ضوء النص القرآني الواضح؟^{١٧}

هذه الأمور الخمسة المتعلقة بحادثة نزول المسيح تثبت أهميتها الاستثنائية، وهي تثير السؤال: لماذا لم يتم اختيار المصدر القاطع وهو القرآن الكريم لنقل أخبار هذا الحدث الضخم، ولماذا ترك الأمر للناس لينقلوه إن شاءوا أو لم ينقلوا إن أبوا، وليتخذوا ما شاؤوا من أسلوب في روايته؟

لكن بغض النظر عن هذا السؤال، فإذا نظرنا إلى الأمور المذكورة في سياق الأحاديث فقط، فإنها تحتاج بالضرورة إلى الأدلة والشواهد التالية:

أولاً: هذه الحادثة ينبغي أن تكون معروفة على نطاق واسع بين الصحابة والتابعين.

ثانياً: أن يرويها ذلك غالبية كبار الصحابة الكرام وتنقل أيضاً عن التابعين.

ثالثاً: ينبغي أن يذكر ذلك في كتب ومجاميع الحديث الأولى.

رابعاً: يجب أن تكون رواياتها واضحة وخالية من أي غموض أو تناقض داخلي.

^{١٧} ولذلك قد أثير هذا السؤال على العلماء مرات وكرات وأبدوا آراءهم فيه واجابوا السؤل عليه كما يرونه.

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

خامساً: ألا يكون هناك تعارض بين رواياتها وبين الروايات الأخرى للمجموعات الحديثية.

والسؤال الآن هو، هل هذه المتطلبات تتحقق في الواقع في أحاديث وآثار نزول المسيح؟ والجواب على هذا السؤال بالنفي التام. ويأتي وصفها أدناه في شكل بعض الإشكاليات.

وبعض المقامات منها تتقاضى من حيث محتواها وأسلوبها أن يذكر نزوله هناك لازماً إذا كان نازلاً، ولكن فضلاً عن ذكر ذلك إنه لم يشر إلى ذلك إشارة ما. ولذا فإن ذلك يبعث على الإشكالية عند أستاذنا الجليل وسكوت القرآن عن ذلك يبرز عدم الاطمئنان بتصور نزول المسيح عليه السلام.

الإشكال الأول:

لا يوجد حديث عن نزول المسيح في المصادر الحديثية الأولى

أول كتاب ظهر في الحديث هو "الصحيفة الصحيحة" والمعروفة باسم "صحيفة همام بن منبه".^{١٨} وكان همام بن منبه تابعياً وتلميذاً

^{١٨} تمام هذه الرسالة بترتيبها مدرجة في مسند أحمد بن حنبل. وقد ألف المسند فيما بين ٢٢٠هـ إلى ٢٣٧هـ. وهذا يعني أنّ: الموطأ للإمام مالك (ت ١٧٩هـ)، مسند أبي داود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ)، مصنف عبد الرزاق (ت

لأبي هريرة رضي الله عنه. وقد جمع هذا المصحف قبل سنة ٥٨هـ بقليل. ويحتوي على ١٣٨ حديثًا. وكلها رواها أبو هريرة رضي الله عنه. ومنها الأحاديث الواردة في مسائل الإيمان، والعبادة، والأعمال، والأخلاق والآداب، وغيرها من المواضيع المتنوعة. ومن المثير للدهشة أن هذه الآثار والأحاديث لا تتضمن حديث نزول المسيح. وتأتي هذا لعجب من عدة جوانب:

أحد الجوانب هو كيف تم تجاهل مثل هذا الحديث غير العادي. ثانيًا: إن أبا هريرة رضي الله عنه أيضًا من رواة أحاديث نزول المسيح

٢١١هـ)، مصنف ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ)، وبعض الكتب الأخرى، كانت موجودة قبل مسند أحمد بن حنبل. أما كتب الصحاح الستة فجميعها ظهرت بعده، أي في الفترة ما بين ٢٥٠هـ إلى ٣٠٣هـ تقريبًا. ومن ثم، فبمجرد كونه جزءًا من مسند أحمد، لم تكن له آنذاك صفة "أول مجموع حديثي متاح".

غير أنه من حسن الحظ أن نسخة خطية منه وجدت في العصر الحديث؛ إذ اكتشفها العلامة المحقق في السيرة والتاريخ الدكتور حميد الله في مكتبة بربلين، ثم نشرها في الهند سنة ١٩٥٥م. وبعد هذا الاكتشاف أجمع على أن له صفة أول مجموع للحديث. والأغلب أن هذا المجموع قد جُمع قبل وفاة أستاذ همام بن منبه، الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه (ت ٥٨هـ). ومع ذلك، فحتى لو جُمع بعد وفاته، فإن صفة "أول مجموع حديثي" لا تزول عنه، لأن همام بن منبه توفي سنة ١٣١هـ.

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

عليه السلام. ومن المدهش أنه عندما أُملي مباشرةً تلميذه أحاديثه لم يتضمن حديث نزول المسيح، على الرغم من أنه كان قد بينه بالفعل في مكان آخر.

ثالثاً: من جهة أن هذا الكتاب الهام جداً يحتوي على حديثين آتين متعلقين بالنبي عيسى عليه السلام:

"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق، فقال له عيسى: سرقت؟ فقال: كلا والذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني."^{١٩}

"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي."^{٢٠}
ومن الواضح أن حديث نزول عيسى عليه السلام هو أبرز وأهم من هذين الحديثين من حيث فحواه ومضمونه فإذا جاء هذان الحديثان فيها فلماذا لم يجرى حديث أكثر شهرة منهما؟

ورابعاً أن هذه الصحيفة أيضاً متضمنة لحديث عن الدجال وهي كما يأتي:

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى ينبعث

^{١٩} صحيفة بهام بن منبه، رقم ٤١.

^{٢٠} صحيفة بهام بن منبه، رقم ١٣٣.

دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله.^{٢١}
فالسؤال هو، إذا تم تضمين هذا الحديث المتعلق بالمسيح الدجال،
فلماذا لم يتم تضمين أهم حديث يتعلق بالمسيح الدجال، والذي يذكر
قتل المسيح الدجال على يد النبي عيسى؟

خامساً: من جهة أنه ورد في هذا الكتاب خمسة أحاديث عن
قرب الساعة. وقد جاء فيها أنه قرب يوم القيامة تطلع الشمس من
مغربها، ويكثر المال، ويرفع العلم، وتظهر الفتن، ويكثر القتل والهلاك،
وتقع حرب كبرى بين فئتين، ويقاثل المسلمون قومًا حمر الوجوه،
فطس الأنوف، صغار العيون. والأحاديث هي كما يلي:

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى
تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون،
وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت
في إيمانها خيراً".^{٢٢}

"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى
يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يتقبل منه صدقته.
قال: ويقبض العلم ويقترّب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج، قالوا:
الهرج أي هو يا رسول الله؟ قال القتل القتل".^{٢٣}

^{٢١} صحيفة بهام بن منبه، رقم ٢٤.

^{٢٢} صحيفة بهام بن منبه، رقم ٢٥.

^{٢٣} صحيفة بهام بن منبه، رقم ٢٢.

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة و دعواهما واحدة." ٢٤

"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تقتاتلوا جور كرمين، قومًا من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المجان المطرقة." ٢٥

"وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تقتاتلوا قومًا نعالهم الشعر." ٢٦

فإن إدخال هذه الأحاديث المتعلقة بعلامات اقتراب يوم القيامة في صحيفة همام بن منبه، مع عدم وجود أهم علامة في هذا السياق وهي نزول المسيح، يدعو إلى الشك في أحاديث نزول المسيح.

الإشكالية الثانية

ليس هناك أي حديث عن نزول المسيح في المصدر الحديثي الأول والموطأ هو أول كتاب منتظم للأحاديث النبوية. وقد جمعه الإمام مالك بن أنس بن مالك بعد أربعين سنة من العمل الدؤوب. وقد تم

٢٤ صحيفة همام بن منبه، رقم ٢٣.

٢٥ صحيفة همام بن منبه، رقم ١٢٥.

٢٦ صحيفة همام بن منبه، رقم ١٢٧.

تأليفه بأمر الخليفة المنصور العباسي وتم تأليفه في حوالي سنة ١٤٠ هـ. فهو لا يشمل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل يشمل أقوال الصحابة والتابعين أيضاً. لقد أمضى الإمام مالك حياته كلها في المدينة المنورة وكتب كتابه في تلك البيئة.^{٢٧}

وقد جمع روايات من كان على صحبة ومصاحبة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الكرام. وقد انتشر هذا الكتاب في العالم الإسلامي في عهد الإمام مالك. وعاش الإمام مالك بعد جمعه نحواً من أربعين سنة، واستمر في مراجعته وتنقيحه.^{٢٨}

ولكن ليس في هذه المجموعة الأولى للحديث النبوي حديث

^{٢٧} أول من قدم إلى المدينة من عائلة الإمام مالك وأسلم هو جده الأكبر أبو عامر. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد توفي في ذلك الوقت. لذلك، لم يكن من الممكن أن يحظى بشرف أن يكون صحابياً له. تزوج في قبيلة تميم، وأقام في المدينة المنورة بشكل دائم. روى والد الإمام مالك مالك وعمه أبو سهيل نافع أحاديث عن أبي عامر. كان أبو سهيل نافع عالماً فاضلاً في الحديث، ومن شيوخ الإمام الزهري. وكان النضر بن مالك، الأخ الأكبر للإمام مالك أيضاً عالماً بالحديث. ومن هذا التفصيل يتبين أن أسرته كانت تعيش في المدينة المنورة، وكانت لها شغف خاص بعلم الحديث.

^{٢٨} وقد عد العلماء المؤطاً من الطبقة الأولى من مجاميع الحديث يقول الشافعي: لم أرفي وجه الأرض أصح كتب بعد كتاب الله من المؤطاً. ويقول الإمام ولي الله الدهلوي أنه ليس هناك كتاب أحكم في الفقه من المؤطاً.

يتعلق بموضوع نزول المسيح.

وجه من أوجه الإشكالية أن زمن تأليف هذا الكتاب قريب جداً من زمن الصحابة. وقد تم جمع وتأليف بقية مجاميع الحديث بعد حوالي مائة عام. رواية الأحاديث كلها هم الصحابة. فما هو السبب في عدم بلوغ هذا الحديث المهم المروي من الصحابة والذي كان ينبغي أن يكون معروفاً على نطاق واسع، إلى الإمام مالك؟

والجانب الثاني هو أن هذه المجموعة تم تجميعها على مدى فترة طويلة بلغت أربعين عاماً. وقد ظل الإمام مالك طيلة هذه الفترة يقرأها على تلاميذه ويهذب محتواها ويعدله ويضيف إليه. ومن غير المعقول أن هذا الحديث لم يصل إليه بعد هذه الفترة الطويلة من التجميع والتدوين والتهذيب. وإن لم يصل فهذا أيضاً يبعث على الشك فيه، وإن وصل ولم يقبله فهذا أيضاً يدعو للإشكال.

الوجه الثالث هو أن الإمام مالكا وضع هذا الكتاب وهو جالس في قلب الإسلام، أي في المدينة المنورة، في بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم. أي أن هذا هو المكان الذي قضى فيه كبار صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حياتهم. وبالمقارنة مع بقية العالم الإسلامي، فإن غالبية التابعين كانوا يعيشون أيضاً في هذه المنطقة وما حولها. وكان لزماً على أتباع النبي الذين كانوا يعيشون في بلدان أخرى أن يأتوا إلى هذه المنطقة أيضاً لأداء فريضة الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي.

ويبدو أن احتمال عدم وصول هذا الحديث إلى الإمام مالك أمر مستحيل ظاهراً.

الوجه الرابع: أن منطقة الحجاز كانت مركزاً لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعليمه، وتربيته.^{٢٩} وكثير من رواة قصة نزول المسيح عليه السلام ينتمون إلى الحجاز. أغلبهم معاصرون للإمام مالك. ويبدو أن هؤلاء هم الذين تسوغ القرينة لهم كثرة لقاء الإمام مالك بهم. فكيف لم يذكر هؤلاء أحاديث نزول المسيح عن الإمام مالك، ولم يسألهم عنها الإمام مالك مع بحثه وجمعه للأحاديث؟

الوجه الخامس أن راويا أوليا لروايات نزول المسيح معمر بن راشد (التابعي) كان معاصراً للإمام مالك. وُلد معمر في البصرة سنة ٩٥ هـ. واستقر لاحقاً في اليمن. وفي اليمن كانت حلقة درس وتعليم لهمام بن منبه التلميذ لأبي هريرة رضي الله عنه مستمرة. والتحق معمر بن راشد بحلقته وتلمذ عليه. وبجانب ذلك قد استفاد أيضاً من قتادة وابن شهاب الزهري.^{٣٠} وتوفي سنة ١٥٣ هـ عن عمر يناهز ٥٨ عاماً.

^{٢٩} وحجاز تحتوي على مناطق مكة والمدينة والطائف وغيرها من المناطق.
^{٣٠} أخذ معمر بن راشد العلم من هؤلاء المشايخ: ثابت البناني، قتادة، الزهري، عاصم الأحول، أيوب، الجعد أبو عثمان، زيد بن أسلم، صالح بن كيسان، عبد الله بن طاووس، جعفر بن برقان، الحكم بن أبان، أشعث بن عبد الله الحدّاني، إسماعيل بن أمية، ثمامة بن عبد الله بن أنس، بهز بن حكيم، سمالك

السؤال هو، على الرغم من معاصرة معمر بن راشد والإمام مالك، لماذا لم يأخذ الإمام مالك عنهما رواية نزول المسيح؟ الملاحظة السادسة هي أنّ بعض رواة أحاديث نزول المسيح قد روى عنهم الإمام مالك أحاديث في موضوعات أخرى، لكنه لم يرو عنهم روايات نزول المسيح رغم غرابتها وأهميتها. يثور هنا سؤال: لماذا قِيلَ للإمام مالك رواياتهم في أبواب متعددة، لكنه أعرض عن روايات نزول المسيح بالذات؟ ثم إنّ من بين هؤلاء الرواة مَنْ كان معاصراً للإمام مالك، بل إنّ بعضهم كانوا من سكان المدينة في زمنه، ومع ذلك لم ينقل الإمام عنهم أي رواية في هذا الباب. ومن هذه الزاوية سنعرض فيما يلي بعض التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الرواة.

وفما يلي تفاصيل بعض الرواة في هذا الصدد:

١- ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) هو راوي قصة نزول المسيح. وكان من سكان المدينة المنورة. وكان معاصراً للإمام مالك. وقد أخذ الإمام مالك عنه نحو ١١٥ حديثاً، إلا أنه لم يأخذ عنه حديث نزول المسيح.

بن الفضل، عبد الله بن عثمان بن خثيم، عبد الله بن عمر العمري، يحيى بن أبي كثير، همام بن منبه، هشام بن عروة، محمد بن المنكدر، عمرو بن دينار، عطاء الخراساني و عبد الكريم الجزري.

٢- عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧ هـ) هو أيضاً راوي قصة نزول المسيح. وكان من أهل المدينة المنورة. وقد أخذ الإمام مالك عنه نحو ٦١ حديثاً، إلا أنه لم يأخذ عنه حديث نزول المسيح.

٣- صالح بن كيسان (ت ١٤٠ هـ) هو أيضاً أحد رواة قصة نزول المسيح. وكان من أهل المدينة المنورة. وهو معاصر للإمام مالك. وقد أخذ الإمام مالك عنه ثلاثة أحاديث، إلا أنه لم يأخذ عنه أيضاً حديث نزول المسيح.

٤- زياد بن سعد الخراساني (ت ١٥٠ هـ) وهو أيضاً من رواة حديث نزول المسيح. وكان يسكن مكة. وكان معاصراً للإمام مالك. وقد أخذ الإمام مالك عنه ثلاثة أحاديث، إلا أنه لم يأخذ بحديث نزول المسيح.

٥- محمد بن مسلم بن تدرس أبو الزبير (ت ١٢٨ هـ) أحد رواة حديث نزول المسيح. وكان يسكن مكة. وكان معاصراً للإمام مالك. ولم يأخذ الإمام مالك عنه شيئاً.

٦- الأسود بن قيس العبدي الكوفي (ت ١٤٠ هـ) هو أحد رواة قصة نزول المسيح. وهو من أهل الكوفة. وهو معاصر للإمام مالك. ولم يأخذ الإمام مالك عنه شيئاً.

٧- سعيد بن جمهان أبو حفص (ت ١٣٦ هـ) هو أحد رواة قصة نزول المسيح. وكان من سكان البصرة. وهو معاصر للإمام مالك، ولم يأخذ الإمام مالك عنه شيئاً.

٨- أبو مالك الأشجعي (ت ١٥٠ هـ) روي رواية نزول المسيح. وكان من أهل الكوفة. وهو معاصر للإمام مالك. ولم يأخذ الإمام مالك عنه شيئاً.

٩- معمر بن راشد (ت ١٥٣ هـ) هو أيضاً روي قصة نزول المسيح. وكان من سكان البصرة. وهو معاصر للإمام مالك. ولم يأخذ الإمام مالك عنه أيضاً شيئاً.

الوجه السابع: أن هذا الكتاب فيه باب خاص عن عيسى عليه السلام والمسيح الدجال. عنوانه ب: «باب صفات عيسى ابن مريم والمسيح الدجال»، والحديث الوحيد الذي يرويه في هذا الباب كالتالي:

"عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أراني الليلة عند الكعبة، فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم قد رجليها، فهي تقطر ماءً متكئاً على رجلين أو على عواتق رجلين يطوف بالكعبة، فسألت من هذا ؟ قيل: هذا المسيح ابن مريم، ثم إذا أنا برجل جعد ققط أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية، فسألت: من هذا؟ فقيل لي هذا المسيح الدجال." ٣١

من بواعث الإشكالية فيه أن هناك باباً منتظماً ويحتوي أيضاً على

٣١ موطأ، رقم ٣٤٠٥.

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

حديث المسيح عليه السلام والمسيح الدجال، ولكن حديث الأكثر بروزاً حول نزول المسيح لم يتم ذكره. ولا يوجد حتى تلميح إلى ذلك في الكتاب بأكمله.

الإشكالية الثالثة:

قد قبل الإمام البخاري فقد عدة من أحاديث نزول المسيح فقط

على أنه هناك أحاديث وآثار مرفوعة^{٣٢} عن نزول المسيح تربو على ثمانين حديثاً وأخرجها كافة المحدثين ماعدا الإمام مالك. ورويت عن صحابة مذكورين أدناه:

- ١- أبو هريرة رضي الله عنه
- ٢- جابر بن عبد الله رضي الله عنه
- ٣- النواس بن سمعان رضي الله عنه
- ٤- عبد الله بن عمرو رضي الله عنه
- ٥- حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه
- ٦- ثوبان رضي الله عنه

^{٣٢} ويراد بالمرفوع حديث اتصل سنده برسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا وقفت سلسلة إسناده على صحابي ولم يصله يقال له موقوف وإن وقفت على تابعي فقط يطلق عليها مقطوع.

- ٧- مجمع بن الجارية رضي الله عنه
- ٨- أبو أمامة البابلي رضي الله عنه
- ٩- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
- ١٠- عثمان بن العاص رضي الله عنه
- ١١- سمرة بن جندب رضي الله عنه
- ١٢- عبد الله بن عمر رضي الله عنه
- ١٣- أنس رضي الله عنه
- ١٤- واثله بن الأسقع رضي الله عنه
- ١٥- عبد الله بن سلام رضي الله عنه
- ١٦- عبد الله بن عباس رضي الله عنه
- ١٧- أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه
- ١٨- عمران بن حصين رضي الله عنه
- ١٩- أم المؤمنين عائشة بنت ابوبكر رضي الله عنها
- ٢٠- سفينة مولى النبي صلى الله عليه وسلم
- ٢١- حذيفة بن اليمان رضي الله عنه
- ٢٢- عبد الله بن مغفل رضي الله عنه
- ٢٣- عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه
- ٢٤- أبو سعيد الخدري رضي الله عنه
- ٢٥- عمار بن ياسر رضي الله عنه

٢٦- كيسان بن عبدالله بن طارق رضي الله عنه

٢٧- سلمة بن نفيل السكوني رضي الله عنه

٢٨- أم المؤمنين صفية رضي الله عنها

٢٩- نافع بن كيسان رضي الله عنه

٣٠- أبو الدرداء رضي الله عنه

٣١- عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه

ومن الروايات المتعددة والمتنوعة في نزول المسيح عليه السلام

اختار الإمام البخاري الروايات الثلاثة التالية:^{٣٣}

١- حدثنا إسحاق، أخبرنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح،

عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب، سمع أبا هريرة رضي الله عنه،

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسى بيده، ليوشكن

أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، و

يضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة

خيراً من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم: وإن من أهل

الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً.^{٣٤}

^{٣٣} ويمكن الاطلاع على تراجم هذه الروايات الثلاث في الباب الأول من هذا

الكتاب.

^{٣٤} البخاري، رقم ٣٤٤٨.

٢- حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا الليث، عن ابن شهاب، عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسى بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد.^{٣٥}

٣- حدثنا ابن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن نافع، مولى أبي قتادة الأنصاري، أن أبا هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم.^{٣٦}

من خلال دراسة هذه الروايات يتضح لنا الحقائق التالية: أولاً: لم يأخذ الإمام البخاري إلا ثلاث روايات من بين أكثر من ثمانين رواية مرفوعة هذه.

ثانياً: وطبيعة اثنين من هذه الروايات الثلاثة هي أنهما طريقتان مختلفتان لنفس الحديث. أي أن مناسبة الكلام، وموضوعه، ومعناه واحدة، فيهما ولكنها وصلت إلى الإمام البخاري من طريقتين مختلفتين. ثالثاً: هناك روايات مفصلة وأخرى مختصرة حول نزول المسيح،

^{٣٥} البخاري، رقم ٢٢٢٢.

^{٣٦} البخاري، رقم ٣٤٤٩.

إلا أن الإمام اقتصر على الروايات المختصرة.

رابعاً: والأحاديث المرفوعة جاءت عن نحو ثلاثين صحابياً. وقد اختار الإمام روايات أحد هؤلاء الصحابة فقط، وهو أبي هريرة رضي الله عنه.

خامساً: وكذلك الراوي الأول بين هؤلاء الثلاثة هو ابن شهاب الزهري. أي أنه اعتمد في هذا على روايات الزهري فقط. وهذا السلوك من الإمام البخاري يوحى بتردده تجاه كل ما ورد في نزول المسيح عليه السلام.

الإشكالية الرابعة:

تعيين الوقت لنزول المسيح في حديث مسلم

المشكلة الرابعة هي أن بعض الأجزاء المتصلة بحادثة نزول المسيح المذكورة في الروايات قد جاءت في زمن الماضي. السؤال هو إذا كان النبي عيسى عليه السلام لم ينزل رغم حدوثها فكيف يمكن التأكد من صحة الحدث؟ قبل شرح هذه المسألة، من المهم أن نفهم أمرين حول الواقعة نفسها.

أولاً، إن روايات نزول المسيح هي وصف لحدث مستقبلي. وهناك خلاف بين علماء المسلمين في رفضها أو قبولها. والرأي السائد هو أن نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة وبالتالي فإن

نزول المسيح عليه السلام يكون مؤكداً. وعلى العكس من ذلك فإن بعض العلماء يرى أن نسبة هذه الأحاديث إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم تثبت، وبالتالي لا يصح إقامة فكرة نزول النبي عيسى (عليه السلام) عليها.

ولكن لن يستمر هذا الخلاف حتى يحدث أحد الحالتين التاليتين: أحدها: أن النبي عيسى عليه السلام ينزل قبل يوم القيامة. وفي هذه الحالة يتبين صحة قول من يعتقد أن أحاديث نزول المسيح هي صحيحة موصولة إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وبعد ذلك لن يكون هناك مجال للخلاف.

الحالة الثانية: أن تقوم القيامة ولا ينزل المسيح عليه السلام. فإذا كان هذا فقد ثبت قول من لم يصح نسبة هذه الأحاديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا يعني أنه إذا كانت مسألة الخلاف متعلقة بمحادثة ظاهرة مشهودة فإن وقوعها أو عدم وقوعها يُعد دليلاً حاسماً لحل الخلاف. إذا وقع ذلك الحادث ثبت قول من قاله، وإذا مضى وقت وقوعه ولم يقع ثبت قول من خالفه. أي أنه بعد ذلك لا مجال للغموض أو الخلاف.

ثانياً، إن حدث نزول المسيح المذكور في الروايات هو عبارة عن مجموعة من الأحداث الجزئية. فعندما يقع حادث ما، يجب التعامل

معه بأقصى درجات الحذر. أي أن العناصر التي هي جزء منه يجب أن تكون واضحة للعيان. من حيث الزمان والمكان، ومن حيث تسلسل الأحداث، ومن حيث التفاصيل الإضافية. لا ينبغي أن يكون إكماله من خلال الجمع بين الأحداث من فترات مختلفة إذا كان الحدث مرتبطاً بفترة واحدة، أو إذا كانت بعض العناصر مختلفة عن وصف الحدث فيجب تجاهلها، أو إذا لم تكن بعض روابط وصف الحدث موجودة في ظاهر الحدث فيجب الاكتفاء بتفسيرها تفسيراً غامضاً أو غير عقلاني. وهذا يعني أن الحادثة المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا بد أن تكون موافقة لكل معايير العقل والنقل، والسبب في ذلك أن كلامه هو كلام الله الذي لا يحتمل الخطأ ولا النسيان ولا السهو.

بعد هذه المقدمة، دعونا الآن ندرس الحديث الذي يحدد زمن نزول

المسيح بشكل واضح للغاية فقد جاء في صحيح مسلم:

"عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصافوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا، والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله ويفتح الثلث،

لا يفتنون أبدًا. فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فأمرهم فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانداب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته.^{٣٧}

- ويشير هذا الحديث إلى ما يلي:
- سيحدث هذا الحدث على أرض الشام قبل يوم القيامة.
- تقوم الحكومة الإسلامية في سوريا بسجن بعض المسيحيين.
- ردًا على ذلك، يتوجه جيش من المسيحيين لمهاجمة الشام أي سوريا حاليًا.

- يصل هذا الجيش تدريجياً إلى موقع "أعماق" أو "دابق" في سوريا.
- إذا علمت حكومة المدينة المنورة المسلمة بهذا الهجوم، فإنها ترسل جيشها لمساعدة أهل الشام.

- يتكون هذا الجيش من مسلمين صالحين للغاية.
- عندما يصل هذا الجيش إلى سوريا ويصطف ضد الجيش المسيحي، يُطلب منه من قبل الجيش المسيحي عدم التدخل في شؤونهم وشؤون

سوريا والوقوف جانباً.

- جيوش المدينة ترفض التراجع. وسيقولون: لا نستطيع أن نترك إخواننا ونخزلهم وحيدين في قتالكم.
- بعد ذلك سوف تبدأ الحرب.
- بمجرد أن تبدأ المعركة، سوف يفر ثلث جيش المسلمين. وهذا من الكبائر التي لا يغفرها الله تعالى.
- يستشهد ثلث جيش المسلمين. وهؤلاء سيكونون أفضل الشهداء عند الله.

- الثلث المتبقى من الجيش يهزم المسيحيين.
- ثم يتقدم هذا الجيش من الفاتحين ويتجه نحو القسطنطينية، مركز المسيحية.

- فى النهاية سيتم فتح القسطنطينية وسقوطها فى أيدي المسلمين.
- بعد تحقيق النصر يتم تقسيم الغنائم ويرضى جنود جيش المسلمين ويعلقون سيوفهم على أشجار الزيتون.
- وفى هذه الأثناء، يُخبر الشيطان المسلمين أن المسيح الدجال قد جاء من خلفكم إلى أهاليكم وأولادكم.

- وعند سماع ذلك، سيخرج جيش المسلمين من القسطنطينية.
- إذا رجع الجيش واصطف للصلاة ينزل عيسى بن مريم عليه السلام.
- عيسى عليه السلام يصلي بالناس.

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

• و عندما يرى المسيح الدجال عيسى (عليه السلام) فإن وجوده سيبدأ بالذوبان .

• يقتله عيسى عليه السلام برمحه قبل أن ينداب ويختفي.

ومن هذا التفصيل في الحديث يتبين لنا أن نزول النبي عيسى عليه السلام سيكون في وقت عودة الجيش الإسلامي بعد فتح القسطنطينية. ويجب أن يلاحظ مكرراً معاداً أن هذا الحديث الذي أخرجه مسلم ينص بوضوح على أن النبي عيسى (عليه السلام) سوف ينزل في نفس اللحظة التي سيعود فيها الجيش الإسلامي إلى المدينة المنورة بعد فتح القسطنطينية عند سماعه خبر ظهور المسيح الدجال.

والحقيقة الثابتة اليوم هي أن القسطنطينية تم فتحها في ٢٩ مايو ١٤٥٣ في ٢٠ جمادي الأول ٨٥٧ هـ. منذ ذلك الحين، لا يزال المسلمون محتلين لها، وهي أكبر مدينة في دولة تركيا الإسلامية تعرف اليوم باسم اسطنبول^{٣٨}. وهذا يعني أن الوقت الذي حدده الحديث الذي أخرجه مسلم لمجيء يسوع المسيح متزامن لفتح القسطنطينية. وقد مر هذا الوقت في يونيو / يوليو ١٤٥٣. حين تم غزو القسطنطينية، لكن لم يظهر الدجال ولم ينزل اليسوع.

الآن إذا كانت الحقيقة، فيجب اعتبار أحد الأمرين في السرد صحيحا

^{٣٨} اسم جديد للقسطنطينية التي سموها المسلمون به بعد الفتح.

والآخر يجب أن يعزى إلى خطأ الراوي أو إضافته.

فإما أن يُسلم بأن ذكر نزول المسيح صحيح في الحديث، لكن ذكر فتح القسطنطينية وجيشها المنتصر هو أمر إضافي، لا علاقة له بنزول المسيح.

أو يجب الاعتقاد بأنه يصح أن يذكر الحديث فتح القسطنطينية وجيشها المنتصر، لكن نزول المسيح إضافي فيه.

لا يمكن التسلم بحدوث هذين الحدثين في نفس الوقت، لأن أحد هذين من الأحداث المترابطة حدث قبل ٥٧٠ عاما. لكن المشكلة هي أنه إذا قُبلت إحدى هاتين الحادثتين ولم يقبل الآخر، فإن البيان كله يأتي في حيز الاشتباه. والسبب في ذلك أنه إذا كانت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم قد رويت وجاءت بشكل صحيح، فلا يمكن أن يكون هناك تغيير فيها ولو في أدنى درجاتها. إنه قرار مصيري كتبه كاتب القضاء والقدر فيجب أن يتم بنفس الطريقة التي نطقت بها نبينا صلى الله عليه وسلم وهو ما ينطق عن الهوى.

من أجل حل هذه المشكلة، قدم علماؤنا تفسيراً مؤلاً لهذه المشكلة بدلاً من تفضيل أحد الاحتمالين المذكورين أعلاه أو التوقف عن الروايات. ووفقاً لهذا التفسير، فإن فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ليس هو الفتح المذكور في الحديث. فوفقاً لهم، فإن غزو القسطنطينية سيحدث مرة أخرى. في ذلك الوقت ينزل يسوع وتحدث الأشياء

المذكورة في الحديث أعلاه.

وترد على هذا التأويل إشكالات عقلية قوية تالية ومنها:

الإشكال الأول هو أن الخلفية التاريخية غير العادية للقسطنطينية والطريقة التي ناضل بها المسلمون لقرون مستمرة لغزوها وفتحها والطريقة التي أخذوا بها بعين الاعتبار نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم وبشارته السارة في هذا الأمر، يبدو أنه إذا تم فتح القسطنطينية مرة أخرى، فإن هذا الانتصار الثاني لا يكون مثل النصر الأول في عظمتة وأهميته.

من أجل فهم هذا المشكلة، من الضروري معرفة خلفية القسطنطينية والمعلومات الأساسية عن نضال المسلمين لغزوها.

وقسطنطينية (Constantinople) اسم قديم لمدينة استنبول حالياً.

في القرن الثالث الميلادي، اعتنق الملك الروماني قسطنطين المسيحية وجعل المدينة عاصمة له. سميت القسطنطينية بسبب اسمها. كانت المدينة عاصمة الإمبراطورية الرومانية لمدة ١١٠٠ عام. في القرن الخامس الميلادي، انقسم العالم المسيحي إلى إمبراطوريتين رئيسيتين. أصبحت عاصمة الإمبراطورية الغربية مدينة روما وأصبحت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية. تضمنت الإمبراطورية الشرقية البلقان واليونان وآسيا كوتشاك وسوريا ومصر والحبشة وما إلى ذلك. كان

رئيس كنيسة العظيمة يدعى البطريرك (Patriarch). كما كان رئيس كنيسة الإمبراطورية الغربية يدعى البابا (Pope).^{٣٩} كانت للقسطنطينية أيضا مكانة غير عادية في التاريخ الديني للمسيحية. والسبب في ذلك هو أن إحدى الكنيستين الرئيسيتين للمسيحيين قد تم إنشاؤها في هذه المدينة. كان اسمها آيا صوفيا. كانت أقدم وأقدس مكان للعبادة للمسيحيين. وكان المسيحيون يعتقدون أن الكنيسة لن يحتلها أبدا غير مسيحي.

إن الوضع الاستثنائي للقسطنطينية هو أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر اللجنة للمسلمين الذين سوف يهاجمونها. فقد جاء في البخاري: "فحدثنا أم حرام : أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول : أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا، قالت: أم حرام، قلت: يا رسول الله انا فيهم، قال: انت فيهم ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله، قال: لا."^{٤٠} وجاء في مسلم:

"عن نافع بن عتبة، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه

^{٣٩} وسلطنة رومة كانت قوة عظمى سياسية في وقتها وكانت هيمنتها السياسية والحضارية قائمة على العالم كله.
^{٤٠} رقم ٢٩٢٤.

وسلم في غزوة، قال: فاتى النبي صلى الله عليه وسلم قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد. قال: فقالت لي نفسى: اتتهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال: ثم قلت: لعله نجى معهم . فاتيتهم، فقامت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه اربع كلمات اعدهن في يدي. قال: تغزون جزيرة العرب، فيفتحها الله ثم فارس، فيفتحها الله ثم تغزون الروم^{٤١} فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحها الله. قال: فقال نافع: يا جابر لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم^{٤٢}. " ٤٣

^{٤١} أريد بها قسطنطينية عاصمة السلطنة الرومانية.

^{٤٢} رقم ٧٤٦٦.

^{٤٣} في هذه الروايات، رويت بشارتان عن النبي صلى الله عليه وسلم. الأول هو أن جيشا من المسلمين سيخرج للجهاد عن طريق البحر ويضم أم حرام (رضي الله عنه). ثانيا أول جيش من المسلمين الذين يجاهدون في غزو القسطنطينية، مدينة قيصر، ويكون جديرا بمغفرة الله. تم تحقيق أول هذه المبشرات السارة خلال خلافة عثمان (رضي الله عنه). فقد غزا معاوية رضي الله عنه قبرص وأبحر لهذا الغرض. كانت هذه أول حملة بحرية في تاريخ المسلمين. كما شارك في هذه الحملة الصحابي عبادة بن صامت (رضي الله عنه) وزوجته أم حرام (رضي الله عنها). على أنه قد ظهرت البشارة الثانية في خلافة معاوية رضي الله عنه، عندما أرسل جيشا بقيادة ابنه

إنه هجم وغادر أول جيش إسلامي لغزو القسطنطينية تحت قيادة معاوية (رضي الله عنه)، خلال خلافة عثمان (رضي الله عنه). غزا هذا الجيش قبرص. لم يفز المسلمون باحتلال قبرص، لكن المسلمين صنعوا السلام مع أهل قبرص. ثم أرسل معاوية جيشا بقيادة ابنه يزيد بن معاوية في عهده. وحاصر هذا الجيش القسطنطينية. بعد حصار طويل، عندما لم يتحقق النصر، عاد الجيش. بعد ذلك، قام العديد من الحكام المسلمين بعدة هجمات على القسطنطينية، لكن النصر لم يتمكن عليها.^{٤٤}

يزيد لغزو القسطنطينية. حاصر الجيش القسطنطينية وعاد في النهاية دون انتصار. كما شارك فيها الصحابي الجليل مضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) مع صحابة آخرين وتوفي أثناء الحصار. وقد دفن قرب سور المدينة طبق وصيته.

^{٤٤} وقد وصف المفتي تقي عثمانى الأسباب الرئيسية لعدم غزو هذه المدينة في كتابه "جهان ديدة" بهذه الكلمات:

"أولا : كان موقع المدينة محاطة بالخليجات البحرية. والثانية هي المنطقة الجبلية التي أصبح فيها فصل الشتاء لا يطاق خاصة بالنسبة للبادين من العرب. ثالثا، كان هناك ثلاثة جدران متتالية حول المدينة، مع أبراج قوية على مسافة مائة وسبعين قدما، كان كل جدار مستحكما متماسكا جدا، وبين الجدارين الأول والثاني كان هناك خندق لا يعبر بسهولة يبلغ عرضه ستين قدما وعمقه مائة

وكان البارز من بين هؤلاء الحكام سليمان بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، والمهدي العباسي، وهارون الرشيد، وبايزيد يلدريم، وحفيده مراد الثاني.

يعود الفضل في الانتصار على القسطنطينية إلى محمد الثاني، حفيد بايزيد يلدريم. فقد حاصر القسطنطينية في ٦ أبريل ١٤٥٣، في ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧ هـ. وبعد نضال استثنائي وتاريخي، استطاع أن يفتح القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣م، وفقا ليوم ٢٠ جمادي الأول ٨٥٧ هـ، ولهذا أصبح معروفا في التاريخ باسم السلطان محمد الفاتح.

هذه هي خلفية لفتح القسطنطينية التاريخية- "إذا عُرِضَ هذا الأمر أما م النظر مجردًا من أيّ سياق أو إشارة، فكلُّ إنسان سيجزم من فوره بأن هذا الحدث غير العادي هو عين ما بشرَّ به رسول الله صلى الله

قدم، وبهذا المعنى كان هذا الحصن يعتبر الحصن الأكثر استحكما ومناعةً في العالم. ونظرا للموقع السياسي والديني الذي تمتعت به القسطنطينية في العالم المسيحي. رابعاً : كان العالم المسيحي بأسره يستعد في كل مرة للتضحية بحياته.

لهذه الأسباب، لم تستطع معظم هذه الحصارات والغزوات للمسلمين فتح المدينة، إلا أنه في عهد بعض الملوك قد وافق أهل القسطنطينية على دفع الجزية، لكن المدينة لم يتم احتلالها. "(٣٢١)

عليه وسلم.^{٤٥}

الآن انظر إلى ذلك من زاوية أخرى.

على سبيل المثال، لقد تم نزول المسيح عليه السلام ، ولكن لا يتم غزو القسطنطينية ولا يتم خروج الدجال، فهل سيقال إن يسوع المسيح سينزل مرة أخرى في المستقبل في مرحلة ما وستحدث أحداث تنبأت

^{٤٥} وهذه الخلفية التاريخية العظيمة قد أفضت بشاعر الشرق إقبال إلى أن اعتبر فتح هذه المدينة حصيلة مئات القرون من الدماء والتضحيات فقال:

خطہ قسطنطنیہ، یعنی قیصر کا دیار
مہدی اُمت کی سَطوت کا نشانِ پندار
صورتِ خاکِ حرم یہ سر زمیں بھی پاک ہے
آستانِ مند آراے شہِ لولاک ہے
نگہتِ گل کی طرح پاکیزہ ہے اِس کی ہوا
تربتِ ایوب انصاری سے آتی ہے صدا
اے مسلمان! ملتِ اسلام کا دل ہے یہ شہر
سینکڑوں صدیوں کی کشت و خوں کا حاصل ہے یہ شہر

"إقليم القسطنطينية، أي ديار قیصر / هو العلامة الباقية لسطوة مهديّ الأمة
هذه الأرض طاهرة كتراب الحرم / إنّها عتبة عرش سيّد لولاک ﷺ
هواؤها طاهر كعطر الورود / ومن ضريح أيوب الأنصاري ينبعث النداء
أيها المسلم! إنّ هذه المدينة قلب ملّة الإسلام / إنّها ثمرة مئات القرون من
الدماء والجهاد"

لها الآثار في ذلك الوقت، أم سيقال إن نزوله هذا قد نفى أحداثاً أخرى؟

وبنفس الطريقة إذا خرج الدجال، ولكن لم ينزل المسيح ولا يتم فتح القسطنطينية، فهل سيقال إن الدجال سيخرج مرة أخرى لاحقاً وسيظهر الحدثان المتبقيان في هذه المناسبة أم سيقال إن هذه الحادثة قد أبطلت الحدثين الآخرين؟

لذا فإن السؤال هو: إذا كان فتح القسطنطينية قد تم من بين الأحداث الثلاثة المذكورة أعلاه، ولكن لم يحدث حدثان متصلان به فما هو المانع من إنكارهما؟^{٤٦}

ومن الجدير بالذكر هنا أن وصف أي حدث في الماضي أو الحاضر أو المستقبل هو عبارة عن مجموعة من الأحداث المساعدة المذكورة فيه. إذا أردنا أن نصدق قصة ما، فمن الضروري أن نؤمن بكل الأحداث المكونة لها، وتسلسلها، وترابطها. ولا يمكن حذف بعض عناصرها، أو

^{٤٦} الجواب الوحيد على ذلك هو أن المانع فيه أن الإمام مسلم قد قبل هذا الحديث لأنه نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم. إذا كان هذا هو الجواب، فالسؤال هو لماذا يستجوب العلماء والمحدثون ما يعرض عن النبي صلى الله عليه وسلم من حيث الرواية والدراية ويستخدمون آلية الجرح والتعديل فيه، وإذا كان هناك تردد بسيط، فلماذا يرفضونه وأحياناً يمتثلون مع بعضهم البعض في قرار الرد والقبول؟

تغيير ترتيبها، أو تفسيرها تفسيراً يؤدي إلى قطع سلسلة الاتصال، أو تصور فترة زمنية بينها، وهو ما يرفضه سرد الحدث.

ويجب أن نلاحظ أيضاً أنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامفهومه: أن أمارات الساعة تكون على شكل أحداث متتالية. أي أنه لا يمكن تصور حدوث مثل هذا الانقطاع أو التأخير فيها، وهو أمر غير منطقي وغير طبيعي. كلمات الحديث هي:

"عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الآيات خرزات منظومات في سلك، فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً." ^{٤٧}

"وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خروج الآيات بعضها على إثر بعض، يتابعن كما تتابع الخرز في النظام." ^{٤٨}

هذه هي المشكلة الأولى. المشكلة الثانية هي أنه لكي نقبل هذا التأويل الذي قدمه العلماء، لا بد من إعادة عجلة الحضارة إلى الماضي. وهذا يعني أنه يجب أن نفترض أن العصر سيعود حيث ستكون الحروب بالرمح والسيوف بدلاً من الأسلحة المتفجرة والنووية والكيميائية. سينتهي الجيش النظامي الحديث، الذي يعتبر الجنود فيه موظفين حكوميين يتقاضون رواتب. وبدلاً من ذلك، سوف تعود الطريقة القديمة، حيث

^{٤٧} أحمد، رقم ٧٠٤.

^{٤٨} المعجم الاوسط للطبراني، رقم ٤٢٧١.

كان يتم توزيع الغنائم بين الجنود بعد الانتصار.^{٤٩}

المشكلة الثالثة هي أنه لا بد من الافتراض بأن مدينة إسطنبول (القسطنطينية) عاصمة تركيا، سوف تقع مرة أخرى تحت السيطرة الرومانية وسوف تتمتع بنفس المكانة الدينية والسياسية الاستثنائية في العالم التي كانت لها في القرن الخامس عشر الميلادي أو قبل ذلك.

المشكلة الرابعة هي أنه إذا تم قبول هذا التفسير فإن الحديث المذكور أو مجموعة الأحاديث تفقد صفة النبوة. والسبب في ذلك هو أن التنبؤ لا يعتبر تنبؤاً إلا عندما يقدم معلومات محددة ومؤقتة عن المستقبل. فإذا كان سياق فتح القسطنطينية غير مؤكد، أي أنه غير مؤكد كم مرة سيفتح المسلمون القسطنطينية وأي فتح سيكون الذي سيؤدي إلى نزول المسيح، فكيف يمكن تفسير هذا الحديث على أنه نبوءة؟ وعلاوة على ذلك، إذا كان معنى وتطبيق حدث واحد في الحديث، وهو فتح القسطنطينية، غامضاً، فكيف يمكن إعلان معنى وتطبيق أحداث أخرى، وهي نزول المسيح وظهور المسيح الدجال، خالياً من الغموض؟

^{٤٩} إن هذا التراجع في الحضارة والتمدن يبدو متناقضاً مع بنية الكون التي خلقه الله عليها.

الإشكالية الخامسة:

اختلاف ذكر نزول المسيح عليه السلام في رواية واحدة من وجهين

وفي هاتين الروايتين من "باب في الآيات التي تكون قبل الساعة" في "كتاب الفتن وأشراط الساعة" لمسلم وصف عشر علامات لاقتراب الساعة وجاء فيه:

"عن حذيفة بن اسيد الغفاري، قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، وياجوج وماجوج، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم^{٥٠}." ^{٥١}

"عن أبي سريحة حذيفة بن اسيد، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في غرفة، ونحن أسفل منه، فاطلع إلينا، فقال: ما تذكرون؟ قلنا: الساعة، قال: إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الارض، وياجوج وماجوج، وطلوع الشمس من

^{٥٠} يقال إنه اسم لمقام في الشام.

^{٥١} رقم ٧٢٨٥.

مغربها، وناار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس. قال شعبة: وحدثني عبدالعزيز بن رفيع، عن أبي الطفيل، عن أبي سريحة، مثل ذلك. لا يذكر النبي صلى الله عليه وسلم. وقال احدهما في العاشرة نزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، وقال الآخر: ويرج تلقى الناس في البحر.^{٥٢}

وهذه الرواية بلغت الإمام مسلما عن طريقين:

أولاً: مسلم عن سفيان بن عيينة عن فرات القزاز (من أتباع التابعين) عن أبي الطفيل (تابعي) عن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه (صحابي) يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: مسلم عن عبيد الله بن معاذ عن معاذ العنبري شعبة عن فرات القزاز (تبع التابعي) عن أبي الطفيل (التابعي) عن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه (الصحابي) يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. عند النظر إلى هاتين الطريقتين، يصبح من الواضح أنهما طريقتان مختلفان لنفس الحديث. والحجة في ذلك أنها تصف علامة واحدة فقط من أشراف يوم القيامة العشر. ليس هناك إلا صحابي واحد وهو حذيفة بن أسيد رضى الله عنه. وقد روى عنهم تابعي واحد هو أبو الطفيل. وبعد أبي الطفيل تغير الرواة. وهذا يعني أن الإسناد إلى أبي الطفيل واحد، أما من بعده فقد اختلف الرواة وتغير الإسناد. وقد

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

روى هذا الحديث في العشر آيات، غير أبي الطفيل، عن اثنين من الرواة على انفراد، وهما فرات وشعبة. وبناء على هذا فقد جاء هذا الحديث وصولاً إلى الإمام مسلم عن طريقين.

ففي رواية سفيان بن عيينة عن طريق الفرات القزاز ذكر أشرط الساعة العشر:

١- الدخان

٢- خروج الدجال

٣- خروج دابة الأرض

٤- طلوع الشمس من المغرب

٥- نزول المسيح

٦- خروج الأاجوج و المأجوج

٧- خسف بالشرق

٨- وخسف بالمغرب

٩- وخسف بجزيرة العرب

١٠- خروج نار من اليمن تسوق الناس

على أن في رواية شعبة عن طريق الفرات القزاز ذكر أشرط الساعة

التسع فقط وهي:

١- الدخان

٢- خروج الدجال

—— نزول المسيح 142 ——

٣- خروج دابة الأرض

٤- طلوع الشمس من المغرب

٥- خروج الياجوج و المأجوج

٦- خسف بالشرق

٧- وخسف بالمغرب

٨- وخسف بجزيرة العرب

٩- خروج نار من اليمن تسوق الناس

أي أن هناك تسع أشراط في هذا الحديث، وهذه العلامات التسع لا تتضمن علامة نزول المسيح. وينتهي هذا الحديث في الوصف بهذه العلامات التسعة. لكن يبقى السؤال: بما أن الرقم عشرة كان مستخدماً في بداية الحديث، فلا بد أن تكون هذه الرموز العشرة كاملة. وفي الإجابة على هذا السؤال، نقل شعبة شرطين مختلفين من راويين مختلفين:

والعلامة العاشرة حسب أحد الرواة هي نزول المسيح. وبحسب راوي آخر، فإن العلامة العاشرة هي الريح التي تحمل الناس وتلقيهم في البحر. هنا تنشأ مشكلتان من دراسة هذا الحديث: أولاً، إذا كانت هناك عشر علامات لحدث ما، وكانت واحدة منها هي الأبرز والأغرب، فكيف يمكن للراوي أن يصف العلامات التسع الأخرى ويترك تلك العلامة البارزة؟ وفي مثل هذه المناسبات فإن النسيان أو الغفلة يكون في العادة فيما هو شيء ثانوي. ومن المستحيل منطقياً أن يذكر تفسير

كل الأشياء الأخرى، ولكن الأمر الأكثر أهمية يقع تجاهله. ثم عندما يتم الاتصال براوين آخرين بالإضافة إلى ذلك الراوي للتحقيق في العلامة العاشرة، فقد يخبر أحدهما بعلامة أخرى بدلاً من تلك العلامة الأكثر أهمية. فالمشكلة في هذا الحديث أن الحديث الأصلي يذكر تسع علامات بدلاً من عشر، ولا يتضمن العلامة الأبرز وهي نزول المسيح. ثم عندما طلب من الراويين الآخرين تحديد العلامة العاشرة، يذكر أحدهما، بدلاً من علامة نزول المسيح، علامة أخرى وهي ظهور ريح تحمل الناس وتلقيهم في البحر.^{٥٣}

وقد روى هذا الحديث نفسه الإمام الترمذي عن سفيان بن عيينة.

^{٥٣} كتب العالم الجليل السيد جاويد أحمد غامدي عن حديث " ريح تحمل الناس وتلقيهم في البحر ":

"مع أن هذا الطريق موقوف إلا أنه في رأينا له الأولوية من حيث الموضوع لسببين. لذا، ينبغي فهم العلامة العاشرة على أنها هذه الريح: أحد الأسباب هو أن وقت نزول المسيح، كما ورد في إحدى الروايات كان مباشرة بعد فتح القسطنطينية. وقد حدث هذا النصر والفتح سنة ١٤٥٣م، وكل من لديه إلمام بالمعرفة والتاريخ يعلم أن مثل هذه الحادثة لم تحدث منذ ذلك الحين.

ثانياً، لأن أوصاف المسيح عيسى عليه السلام في القرآن لا تقبل نزوله بأي حال من الأحوال." (علم النبي ص ٥٨٦)

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

ولم يذكر فيه نزول المسيح. أي أن حديث سفيان بن عيينة الذي وصل إلى مسلم يذكر علامة نزول المسيح، ولكن عندما أخذ الترمذي الحديث نفسه عن سفيان بن عيينة لم يذكر نزول المسيح والحديث هو:

"عن حذيفة بن أسيد، قال: أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وباجوج وماجوج، والدابة، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس، فتبیت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا." ^{٥٤}

الإشكالية السادسة:

بعض روايات أشراف الساعة لا تذكر نزول المسيح

يتضح من الروايات أن حدث مجيء المسيح هو أحد رموز القيامة القريبة. يتفق العلماء أيضا على هذا الأمر. والروايات التي تذكر علامات القيامة القريبة، والتي تحسب وتعدد تلك الأشراف. فيصف بعضها ثلاثة، وبعضها أربعة، وبعضها ستة، وبعضها عشرة أشراف. وإذا

^{٥٤} رقم ٢١٨٣.

———— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ————

جمعناها ظهرت العلامات التالية ككل:

١- الدخان

٢- ظهور الدجال

٣- خروج دابة الأرض

٤- طلوع الشمس من المغرب

٥- نزول المسيح

٦- خروج الأاجوج و المأجوج-

٧- خسف بالشرق

٨- خسف بالمغرب

٩- وخسف الارض في جزيرة العرب

١٠- نار تخرج من العدن باليمن وتسوق الناس

١١- ريح تحمل الناس وتلقيهم في البحر

١٢- الموت

١٣- خروج ثلاثين دجالاً

١٤- كثرة الروم

بالنظر إلى هذه الأشراف، فإن أكثرها غرابة هو نزول المسيح.

بالمقارنة مع بقية العلامات، فهي أيضا الأكثر بروزا، كما أنها صريحة

للاغاية ومعناها واضح جدا أيضا. على هذا الأساس، من الطبيعي أنه

إذا وصف الراوي بعضاً من هذه الرموز الأربعة عشر أو الخمسة عشر، فعليه أن يصف هذا الرمز الأبرز. إنه ضد العقل البشري والخبرة أن تترك الشيء الأكثر أهمية وتبين أشياء أقل أهمية نسبياً. والحقيقة هي أن العديد من أشراط وعلامات القيامة لا تصف علامة نزول المسيح. في حديث لمسلم قد تم ذكر ست علامات للقيامة، لكنها لا تذكر نزول المسيح وهو كما يأتي:

"عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بادروا بالأعمال ستا طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة احدكم، أو أمر العامة."^{٥٥}

وبالمثل، في الرواية التالية للبخاري، تم ذكر ١١ علامة من علامات القيامة، لكنها لا تذكر نزول المسيح:

"عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج: وهو القتل، وحتى يكثروا فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه عليه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى

يتناول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس، يعني آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها.^{٥٦}

انظر، هذه الأشرار الحادية عشر تذكر علامة الدجال، ولكنها لا تذكر أهم الرموز منها وهو نزول المسيح. وهي كما يأتي:

١- اقتتال بين جماعتين عظيمتين

٢- ظهور عدة دجاجة

٣- ادعاء النبوة من ثلاثين دجلاً

٤- رفع العلم

٥- وقوع الهرج والمرج وهو الفساد والفوضى

٦- كثرة المال وفيضانه

٧- عدم تواجد من يقبل الصدقات

٨- تناول الناس في البنيان

٩- التسابق في بناء الابنية الشاحخة

١٠- تمنى الناس الموت

١١- طلوع الشمس من المغرب وإيمان الناس حين رأوه وكذلك روى الترمذي بمثل ذلك ولكن يكتفى فقط بذكر أشراط ثلاثة وليس فيها علامة نزول المسيح فقال:

"عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ثلاث إذا خرجن ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾: ٥٧ الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من المغرب أو من مغربها. ٥٨"

وجاء في رواية لمسند الإمام أحمد بن حنبل أشراط ستة للقيامة إلا أنها أيضا لم تشمل أمانة نزول المسيح من ضمنها فقد رواه أحمد عن طريق صحابي:

"عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في خدر له، فقلت: أدخل؟ فقال: ادخل قلت: أكل؟ قال: كلك فلما جلست قال: أمسك ستاً تكون قبل الساعة، أولهن وفاة نبيكم. قال: فبكيت، قال هشيم: ولا أدري بأيها بدأ؟ ثم فتح بيت المقدس، وفتنة تدخل بيت كل شعرومدر، وأن يفيض المال فيكم حتى يعطى الرجل مائة دينار فيتسخطها، وموتان يكون في الناس كقعاص الغنم قال: وهدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون بكم فيسيرون إليكم في ثمانين غاية، (وقال يعلى: في ستين

٥٧ الأنعام ٦: ١٥٨.

٥٨ رقم ٣٠٧٢.

غاية)، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً.^{٥٩}

كما وردت هناك في كتب الحديث روايات أخرى عن علامات القيامة. ونقصد هنا فقط التأكيد على إشكاليتنا أن العديد من هذه الروايات التي تذكر أشراف الساعة لا تذكر علامة مجيء يسوع المسيح من ضمنها. مما يجعل مفهوم نزول المسيح الثاني في محل النظر والشك والإشكال، ونتيجة لذلك لا يمكن قبوله بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم.

الإشكالية السابعة:

بعض المفارقات في آثار وأحاديث نزول المسيح والروايات الأخرى

لا يمكن أن يكون هناك تناقض أو مفارقة في ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم. فكل ما يقوله عن الدين هو من عند الله وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، لذلك يجب أن يكون قوله خاليا من الصراع والتناقض. إنها أيضا حقيقة وهو أصل مسلم به في مبادي الحديث. لذلك إذا نشأ مثل هذا الوضع التناقضي، ففي تقاليدنا العلمية، يفضل ويرجح حديث من بين حديثين متناقضين، يستحق الأولوية في ضوء الكتاب والسنة والعلم والعقل. وإذا لم يكن هذا التفضيل

ممكنا، فإن طريقة التطبيق والتوجيه تعتمد رعايةً للظروف والزمان والمخاطبين. إذا كانت هناك مشكلة في ذلك أيضا يتوقف في الحكم بينهما ويتجنب الاحتجاج بهما والاستدلال .

في أحاديث وآثار نزول المسيح، هناك بعض الأشياء، التي تؤدي إلى المفارقة والتناقض من الجوانب الداخلية والخارجية. ومن الأمثلة البارزة على ذلك أنه من الواضح تماما من روايات نزول المسيح أنه حدث من أحداث قرب القيامة وطبيعته أنه من أشراط الساعة. كما يتضح من هذه الأحاديث نفسها أن المسيح عليه السلام بعد نزوله سيقفل الدجال أولاً ويقضى على المسيحيين واليهود من جميع أنحاء العالم. لذلك ستحدث القيامة عندما يبقى المسلمون فقط في العالم، والمسيحيون غير موجودين. ولكن هناك حديث أخرجه مسلم ويعطى خبراً مختلفاً تماماً من ذلك. فوفقاً له، ستحدث القيامة عندما تكون هناك غالبية من المسيحيين في العالم. والحديث كالآتي:

"عن المستورد القرشي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، قال: فبلغ ذلك عمرو بن العاص، فقال: ما هذه الأحاديث التي تذكر عنك أنك تقولها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال له المستورد: قلت الذي سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، فقال عمرو: لئن، قلت ذلك: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأجبر الناس عند مصيبة،

—— إشكالية نزول المسيح عند غامدي ——

وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم.^{٦٠}



^{٦٠} رقم ٢٨٩٨.

—— نزول المسيح 152 ——

نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي

في الفصل السابق تم تسليط الضوء على اعتراضات السيد جاويد أحمد الغامدي على مفهوم نزول المسيح. وقد ظهرت في ضوء نصوص القرآن الكريم، وأصول فهم الحديث، وحقائق التاريخ، ومسلمات المعرفة والعقل. إن هذه المشاكل تحول دون قبول نزول المسيح والأحداث المرتبطة به، كما وردت في الروايات، كأحداث محددة وملموسة وقابلة للملاحظة.

ولا يجوز عرض المفهوم المذكور على النبي صلى الله عليه وسلم. والسبب في ذلك هو أن نسب أي شيء غير مرضي ومشكوك فيه إلى قدوسه هو أمر يخالف الدين والإيمان. وقد يؤدي مثل هذا الفعل إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة.

والسؤال الآن هو: إذا كان الأستاذ غامدي لا يعتبر المفهوم المشهور لنزول المسيح صحيحاً في نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهل يرفض الأخذ بالروايات الكثيرة في هذا الموضوع؟ الجواب هو لا. وقد أخذ غامدي جميع الروايات الواردة في هذا الباب من حيث الأصل،

إلا أنه يفسرها على ضوء رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في سنن ابن ماجه وبعض الكتب الأخرى. ومن هذا الحديث يتبين أن نزول المسيح وقتل المسيح الدجال ذكرهما المسيح نفسه في مناسبة المعراج للنبي صلى الله عليه وسلم. وبحسب التقاليد، خلال رحلة الإسراء والمعراج، عندما التقى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأنبياء المختلفين، كان موضوع حدوث يوم القيامة أيضاً مطروحاً للمناقشة. وفي تلك المناسبة قال عيسى عليه السلام أنه سينزل قبل يوم القيامة ويقتل المسيح الدجال. والحديث هو كما يلي:

"عن عبد الله بن مسعود قال لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى. فتذاكروا الساعة. فبدأ بإبراهيم. فسأله عنها. فلم يكن عنده منها علم. ثم سأله موسى. فلم يكن عنده منها علم. فرد الحديث إلى عيسى بن مريم. فقال قد عهد إلى فيما دون وجبتها. فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله. فذكر خروج الدجال. قال فأنزل فأقتله. فيرجع الناس إلى بلادهم. فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون. فلا يمرون بماء إلا شربوه. ولا بشيء إلا أفسدوه. فيجأرون إلى الله. فأدعو الله أن يميتهم. فتنتن الأرض من ريحهم. فيجأرون إلى الله. فأدعو الله. فيرسل السماء بالماء. فيحملهم في البحر. ثم تنسف الجبال وتدمر الأرض مد الأديم. فعهد إلي متى كان ذلك كانت الساعة من الناس. كالحامل

التي لا تدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها^١."٢

يقول أستاذنا الجليل إن هذا الحديث يزيل اللبس والغموض في تقاليد نزول المسيح. وإذا اعتبرنا هذا الحديث هو الأصل، واعتبرنا غيره تابعاً له، فإن جميع الأحاديث المتعلقة بنزول المسيح، وظهور المسيح الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وعلامات يوم القيامة تبدو مترابطة ومتسقة إلى حد كبير، ويصبح من الممكن للعلماء قبولها.

كيف يحتفظ هذا الحديث بمكانته الأصلية، وكيف تخضع الروايات الأخرى له، وما هو الادعاء الممكن وتطبيق محتوياته، وخاصة نزول المسيح؟ إن شرح هذه الأسئلة يحتاج إلى كتاب مفصل. وفيما يلي بعض النقاط كملخص:

١- رواية من باب نزول المسيح

وهذا الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يتعلق بأبواب نزول المسيح، وخروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وعلامات

^١ ابن ماجه، رقم ٤٠٨١.

^٢ قد صحح الحاكم والذهبي اسناده ووثق البوصيري جميع رواته، وقد تكلم البعض في أحد رواته وهو مؤثر بن عبازة ولكن وثقه ابن حبان وغيره من المحدثين. (أنظر الصحيح المسبور من الصحيح المأثور لحكمت بشير ياسين ٣/٣٩٦).

يوم القيامة. وقد ورد ذلك في سنن ابن ماجه في باب فتنة المسيح الدجال، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، وفي هذا الباب أحاديث أخرى في هذه الموضوعات. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الحديث يذكر كل تلك الأمور التي هي جزء لا يتجزأ من مفهوم نزول المسيح، والتي وردت مراراً في الروايات في هذا الموضوع، وهي:

* إن نزول المسيح هو إحدى علامات اقتراب القيامة.

* قبل يوم القيامة ينزل المسيح عليه السلام.

* يظهر المسيح الدجال أمامه.

* يقتل المسيح الدجال.

* ثم يخرج أمامه يأجوج ومأجوج.

* يقفزون من كل ارتفاع.

* ثم يدعو المسيح عليه السلام بهلاكهم، فيهلكوا أجمعين.

* وتمتلئ الأرض بجثثهم.

* ثم يصلي يسوع المسيح، فتتطهر الأرض من حضوره.

* وحينئذ تكون الساعة قريبة.

ومن هذه النقاط، فمن الواضح أن هذا الحديث يصف بشكل موجز نفس الأمور التي روي بالتفصيل في بعض الأحاديث الأخرى عن نزول المسيح. ومن أمثلة ذلك حديث نواس بن سمعان الذي رواه ابن ماجه في نفس الكتاب والباب الذي روى فيه الحديث المذكور. وهذا

المقارنة تبين أن حديث ابن مسعود وحديث نواس بن سمعان رضي الله عنهما هما روايتين مختلفتين لموضوع واحد. أحدهما موجز والآخر مفصل. هناك أيضاً بعض الإضافات المتنوعة لكليهما، والتي تملأ الفجوات بين بعضهما البعض. وهكذا هو الحال في بقية الروايات في هذا الموضوع. والرواية هي كما يلي:

"عن النواس بن سمعان الكلبي، يقول: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال الغداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظننا أنه في طائفة النخل. فلما رحنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف ذلك فينا، فقال: ما شأنكم؟ فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ثم رفعت، حتى ظننا أنه في طائفة النخل، قال: غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قطط، عينه طافئة، كاني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن رآه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف. إنه يخرج من خلة بين الشام، والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله، اثبتوا. قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: فاقدروا له قدره. قلنا: فما إسرعه في الأرض؟ قال: كالغيث اشتد به الريح، قال: فيأتي القوم فيدعوهم فيستجيبون له، ويؤمنون

به، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون محملين ما بأيديهم شيء، ثم يمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فينطلق، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف ضربة فيقطعه جزلتين رمية الغرض. ثم يدعو فيقبل يتהלل وجهه يضحك. فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طاطأ رأسه قطر، وإذا رفعه ينحدر منه جمان كاللؤلؤ. ولا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه، إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فينطلق حتى يدركه عند باب لد فيقتله. ثم يأتي نبي الله عيسى قوماً قد عصمهم الله، فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله إليه: يا عيسى، إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، واحرز عبادي إلى الطور. وبعث الله ياجوج وماجوج، وهم كما قال الله: من كل حذب ينسلون. فيمر أوائلهم على بحيرة الطبرية، فيشربون ما فيها، ثم يمر آخرهم، فيقولون: لقد كان في هذا ماء مرة. ويحضر نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة. ويهبط نبي الله عيسى وأصحابه فلا

— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي —

يجدون موضع شبر إلا قد ملأه زهمهم ومنتهم ودماءؤهم فيرغبون إلى الله فيرسل عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله عليهم مطراً لا يكن منه بيت مدر، ولا وبر فيغسله، حتى يتركه كالزلزلة، ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تاكل العصابة من الرمانة فتشبعهم، ويستظلون بقحفها، ويبارك الله في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل تكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي القبيلة، واللقحة من الغنم تكفي الفخذ. فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحاً طيبةً، فتأخذ تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم، ويبقى سائر الناس يتهارجون كما تتهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة^٣.

وكل لفظ لهذه الرواية عن النواس بن سمعان يدل على أنها تفصيل لرواية عبد الله بن مسعود جاءت من قبل.

فبحسب الأستاذ السيد جاويد أحمد الغامدي، فإن أحد المبادئ المهمة لفهم الحديث هو أنه عند تحديد محتوى حديث ما، يجب أخذ جميع روايات ذلك الفصل في الاعتبار حتى تظهر جميع التفاصيل المتاحة عن تلك الحادثة، وتلك المناسبة، وذلك الموضوع. ومن ثم يتبين من هو الراوي الذي أغفل ماذا، ومن رواه، وأين الغموض أو الإيجاز

^٣ ابن ماجه، رقم ٤٠٧٥.

^٤ الحديث رواه مسلم أيضا رقم ٧٥٦٠ والترمذي، رقم ٢٢٤٠ وصححه الألباني.

—— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ——

وأين الوضوح والتفصيل. وبهذه الطريقة يتم الكشف عن الصورة الأكثر شمولية للموضوع.^٥

ولذلك، عندما ندرج حديث عبد الله بن مسعود المذكور بين الأحاديث الأخرى المتعلقة بنزول المسيح، فإن الحقيقة الحقيقية للموضوع تصبح واضحة تماماً، وتزول الترددات والشكوك التي كانت تمنعنا من قبول مفهوم نزول المسيح.

٢- بيان نزول المسيح في الرؤيا

ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه المذكور يتبين أن نزول المسيح

^٥ قال الأستاذ الجليل في الميزان تحت عنوان "مبادئ تدبر الحديث" وفي مبحث "النظر في أحاديث الباب" ما نصه:

"عند تعيين مراد حديث ما، لا بد من استحضار جميع الروايات الواردة في الباب نفسه. فكثيراً ما يحدث أن يتبادر إلى الذهن معنى لحديث بعينه، ولكن إذا جُمعت جميع روايات الباب، ظهر ذلك المعنى في صورة مغايرة تماماً. ومن أمثلة ذلك الروايات الواردة في شأن الصورة؛ فإنك إذا نظرت إلى بعضها بدا وكأن كل أنواع الصور محرمة، لكن عند جمع جميع الروايات يتضح جلياً أن النهي مخصوص بالصورة التي تُصنع للعبادة والعبودية. ومن هذا القبيل يمكن إيراد عشرات الأمثلة من ذخيرة الحديث. لذا فإن من الضروري أنه إذا وقع التردد في معنى حديث ما، فلا يُبنى فيه حكم قطعي إلا بعد جمع روايات الباب كلها." (ص ٦٦)

كان في رؤيا ليلة الإسراء.^٦

فإنه يتبدأ بلفظ: لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى وذلك يدل على أنه يعني أن التفصيل الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في نزول المسيح، وظهور المسيح الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، مرتبط بأحداث الإسراء والمعراج.^٧

^٦ معنى كلمة "الإسراء" هو الأخذ والسير ليلاً. وفي الأحاديث والآثار وشروحها يُستعمل هذا اللفظ غالباً للدلالة على الرحلتين العظيمتين: الإسراء والمعراج. وهما من أعظم أسفار الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ في الأولى أُسري به إلى المسجد الأقصى، وفي الثانية عُرج به إلى السماوات. وقد ورد ذكر رحلة المسجد الأقصى في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(بني إسرائيل ١٧: ١)

^٧ ويتضح من حديث عبد الله بن مسعود الآتي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما تحدث عن سفره للإسراء قد ذكر الدجال مع المسيح عليه السلام. فقد جاء فيه:

"قال ابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم (ابن عباس): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران عليه السلام رجل آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن

— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي —

ومن الواضح من القرآن الكريم أن حادثة الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومشاهدته الآيات الإلهية كانت في عالم الرؤية. كما تدل على ذلك الفاظ جاءت في سورة بني إسرائيل الآية ٦٠ ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾. والآية هي:

﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ. وَنُحَوِّثُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

ويؤيد رواية أنس بن مالك ما جاء في صحيح البخاري برقم ٧٠٧٩ أن رحلة المعراج أيضاً كانت في عالم الأحلام. أنظر الجمل ذات الصلة: "عن شريك بن عبد الله أنه قال سمعت أنس بن مالك قول: ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة. فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عينه، - ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم قال: واستيقظ وهو في مسجد الحرام." ^٨

مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس وأري مالكا خازن النار والدجال في آيات أراهن الله إياه." (مسلم، رقم ١٦٥)

^٨ للإطلاع على ظاهرة أحداث الإسراء والمعراج وعلى تفسير الآيات والأحاديث

ومن هذا الوصف يتبين أن التفاصيل المذكورة عن نزول المسيح عليه السلام، وظهور المسيح الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج قرب يوم القيامة، هي من مشاهدات النبي صلى الله عليه وسلم في مواقع الإسراء والمعراج. وقد تم تقديم هذه الملاحظات له في الرؤيا.

٣- رؤيا الأنبياء

ومن أساليب الوحي والإلهام التي يستخدمها الله تعالى في تعليم وتربية أنبيائه هو الكلام والخطاب. أي أن كلام الله يصل إلى الأنبياء بشكل اللغة والتعبير. إن الكتب المقدسة أو الصحائف الإلهامية هي في الأساس عبارة عن مجموعة من هذا الإلهام والوحي. وأبرز مثال على ذلك هو القرآن الكريم. وفيه يروى كلام الله بألفاظه وأسلوبه.

وهناك طريقة أخرى للتعليم والتربية وهي التجربة والملاحظة. ويعرض فيها الحقائق بطريقة واضحة وموجزة. وتظهر الملاحظات من هذا النوع أحياناً بأعين مفتوحة في حالة اليقظة وأحياناً أخرى في شكل أحلام في حالة النوم. وفي كلا الحالتين يكونان حقاً وصدقاً من جانب الله. ومن أمثلة الحالة الأولى: أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد نزول جبريل عليه السلام على سدرة المنتهى. ومثال آخر على ذلك هو

والآثار المتصلة بها يمكن المراجعة لكتابتنا: قضية الإسراء والمعراج.

مشاهداته للإسراء والمعراج.

والحالة الثانية تنطبق عادة على الأمور التي تتطلب الخبرة الحسية أو الملاحظة المباشرة لفهمها بشكل كامل. فعليه إن دعاء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لله تعالى: «ربنا أرنا مناسكنا» هو طلب أن يُعرّف إليه طرق عبادة الله تعالى ممثلة خلال النظائر.^٩

يتضح من هذا أن رؤيا الأنبياء هي من جانب الله، ونوع من الوحي والإلهام. وبالتالي، لا يتدخل فيه أي تجسس من الشيطان أو أي فكرة من النفس. فهي صادقة، مطابقة للواقع، ومبنية على الحقيقة، وأحياناً تكون أوضح وأظهر من رؤيا العين أثناء اليقظة. يقول المولانا أمين إحسن الإصلاحى عن هذا:

"إن المنامات والرؤى التي تُعرض على الأنبياء عليهم السلام هي

^٩ وقد جاء هذا الدعاء في الفاظ آتية من سورة البقرة رقم ١٢٨: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾.

ويقول أستاذنا الجليل في تفسيره:

"أصل الكلمة: أرنا مناسكنا" ومعنى أرنا فيها: أرنا، وقد استخدم سيدنا إبراهيم هذه الكلمة لأن سنن العبادة التي وضعها الأنبياء عليهم السلام كانت تُعلّم عادةً بحيث تعمل بها الملائكة بأمر الله تعالى، وتُربهم في الرؤيا وغيرها." (البيان ١/١٣٠)

—— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ——

منامات صادقة. وتوجد العديد من الجوانب المميزة لذلك، التي يجب أن تُؤخذ بعين الاعتبار.

أول شيء هو أن الرؤيا الصادقة هي واحدة من وسائل الوحي الإلهي. فإن الله تعالى ينزل وحيه على أنبيائه ورسله من خلال الكلام عبر الملائكة، وأحياناً يوجههم أيضاً من خلال الرؤيا والمنام.

الشيء الثاني هو أن هذه المنامات تكون واضحة جداً، غير مبهمة، ومشركة مثل "كفلق الصبح"، حيث يحصل للنبي شرح صدر كامل واطمئنان في القلب. إذا كان هناك شيء فيها بصيغة رمزية، فإن الله تعالى يوضح تعبيرها لنبيه.

الشيء الثالث هو أنه حيثما يكون الهدف هو تقديم الأحداث والحقائق ممثلة للمشاهدة فإن هذه الوسيلة تكون أكثر إرضاءً للنبي، لأنه بهذه الطريقة تأتي التفاصيل الكاملة للأحداث ممثلة له، وتظهر المعاني والحقائق التي يصعب على الكلمات التقاطها.

الشيء الرابع هو أن الرؤى والمنامات التي يشاهدها الإنسان هي أكثر يقينية وواسعة وأعمق وأبعد مدى من مشاهدة العين. قد تتعرض العين للخطأ، لكن الرؤيا الصادقة خالية من الأوهام. تستطيع العين أن ترى في نطاق محدود، بينما تغطي الرؤى على نطاق واسع في آن واحد. العين عاجزة عن مشاهدة الحقائق والمعاني، إذ تقتصر قدرتها على المرئيات فقط، لكن الرؤى تشمل أيضاً المعاني والحقائق والأنوار والتجليات. فمثلاً قد أراد النبي موسى عليه السلام أن يشاهد التجلي الإلهي بعينه، لكنه لم يستطع احتماله. وعلى النقيض من

—— نزول المسيح 165 ——

—— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ——

ذلك، أرى وأشهد نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج مشاهدات عديدة، ولم تتأثر بصره بأي من تلك المشاهد.^{١٠}

٤- تعبير المشاهدات التمثيلية

الحقائق التي يُريها الله لأنبيائه عليهم السلام، سواء كانت على هيئة مشاهدات بصرية تُرى بعين الرأس، أو رؤى صادقة تُعرض على عين القلب، قد تكون في بعض الأحيان مطابقة تماماً لما هو مشهود، وقد تكون أحياناً أخرى بحاجة إلى تأويل وتفسير.

فإن كانت من النوع الأول، أي إذا كانت المطابقة بين المشاهدة والنتيجة مطابقةً عينيةً تامة، فلا يعتريها غموض ولا التباس في الفهم. إذ تكون واضحة للنبي، كما تكون سهلة الإدراك لدى المخاطبين به. ويرجع ذلك إلى أن ما يراه النبي حينئذٍ، يكون حدثاً وقع في الماضي أو يجري في الحاضر، أو سيظهر مستقبلاً كما هو على مسرح الواقع. ومن أمثلة ذلك: ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من بناء المسجد الأقصى. فقد رآه أول مرة في رؤيا ليلة الإسراء، ثم رآه مرة أخرى في حالة اليقظة حين كذّبه المشركون ورفضوا تصديق الحادثة، وسأله عن تفاصيل عمارة المسجد. فعندها صوّر الله تعالى المسجد أمام

^{١٠} تدبر قرآن ٤/٤٧٥-٤٧٦.

عينيّه، فنظر إليه مباشرة، ووصفه لهم وصفاً دقيقاً.
وأما المشاهدات التي لا يُراد لها أن تتحقق على وجه المطابقة التامة،
فإنها تكون بحاجة إلى تأويل وتفسير. وغالباً ما تُرى هذه في عالم الرؤيا.
حيث تُعرض المناظر فيها بأسلوب التمثيل والتشبيه، فلا يكون المقصود
بها ظاهراً وواقعياً، بل يكون معناها مجازياً ودلالاتها رمزية. ويرى
أستاذنا الجليل أن هذه الرؤى تُعدّ من نوع الوحي، ولكنها من قبيل
"الإراءة". ولذلك، فبدلاً من فهمها على ظاهرها، ينبغي تفسيرها على
ضوء ما تدل عليه رموزها ومعانيها. وقد كتب بهذا الصدد، عند
حديثه عن روايات علامات الساعة والفتن:

"إن ما ورد في الروايات من أحداث تتعلق بعلامات الساعة والفتن
ونحوها، لم يُخبر به النبي صلى الله عليه وسلم إخباراً مباشراً، بل عُرض
عليه عرضاً، سواء أكان ذلك في المنام أم في حالة اليقظة. ولذلك، فإن
المزج بين الواقع والتمثيل الذي يكون حاضراً في مثل هذه المشاهدات،
يجب أن يُؤخذ في الحسبان عند شرحها وتفسيرها."

وقد ورد في مواضع متعددة من القرآن الكريم ذكرٌ لهذا النوع من
الرؤى. ومن ذلك ما جاء في سورة "الصافات" (الآية ١٠٢)، حيث رأى
سيدنا إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

وكانت تأويل هذه الرؤيا أنه يُفرد ويخصّصه لخدمة بيت الله. ولكن إبراهيم عليه السلام لم يسلك مسلك التأويل، بل اختار أن يطبق الرؤيا حرفياً، رغبةً منه في الامتثال الكامل لأمر الله، وألا يدع في طاعته أي تقصير. وقد خلد الله تعالى هذه الروح العالية من التسليم والانقياد، وبين بكل حب ورفق أن ما رآه كان رؤيا، وبالتالي فهو محتاج إلى تأويل، ولا يُطلب منه التطبيق الحرفي التام.^{١٢}

^{١٢} رأى سيدنا يوسف عليه السلام في منامه الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون له، ولم تكن هذه الرؤيا تعني أن الأجرام السماوية نفسها ستسجد له، بل كانت تعبيراً رمزياً عن أن والديه وإخوته الأحد عشر سيظهرون له الاحترام والتوقير بالخضوع أمامه. وقد بين القرآن الكريم أن يوسف عليه السلام حين تحقق هذا الحدث في الواقع، اعتبره هو نفسه تأويلاً وتحققاً لرؤياه، فقال:

﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

(يوسف ١٢: ١٠٠)

أي أن الرؤيا لم تكن على ظاهرها، بل كانت رمزية، وقد فُسرت بالواقع الذي تحقق لاحقاً. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْيَ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ

اللَّهُ آمِنِينَ. وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ

رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...﴾. (يوسف ١٢: ٩٩-١٠٠)

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّه لِجَبِينِ. وَنَادَيْتُهُ أَنْ يَأْتِرِبِيْمُ. قَدْ صَدَّقَتْ
الرُّؤْيَا...﴾^{١٣}

استاذنا الجليل يرى أنه في الغالب يُتَّبَع هذا المنهج في الإخبار عن أحوال المستقبل ووقائعه؛ إذ تُعرض هذه الوقائع في عالم الرؤيا على هيئة التمثيل والتشبيه. وتكون طبيعتها أنّ ما سيقع في المستقبل يظهر متجسّداً في صورة أمثلة، وكأنّ المثال يتجسّم أمام الناظر. فتارةً يظهر في هيئة واقعة ممثلة، وتارةً يُروى في ألفاظ كأنه حكايةٌ حادثة. وفي كلا الحالين يكون الرابط بين الواقعة والمثال هو علاقة التشبيه. ولهذا السبب عُدَّت هذه المشاهدات بحاجةً إلى التعبير والتأويل، لا إلى حملها على وقوعها بعينها كما هي.

إن الرؤى من هذا النوع التي وردت في القرآن والحديث، قد بُيِّنَت بعض تعبيراتها ومصادقاتها في نفس القرآن والحديث، بينما قد ثبت بعضها الآخر في وقائع التاريخ كحقائق واقعة.^{١٤}

١٣: ١٠٣-١٠٥.

^{١٤} ومثال بارز على هذا هو رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، حيث رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل، وشاهد في رؤياه أن طرف سيفه قد انكسر، ثم عاد كما كان، سليماً. وكانت تأويل هذه الرؤيا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيتوجه إلى يثرب، وأن هناك ستقع معركة أحد، والتي

الآن لم تعد بحاجة إلى أيّ تأويلٍ أو تفسير، غير أنّ ما يتعلّق بأحلام الأنبياء التي لم تتحقّق بعد، فإنها تبقى مجالاً للتأمل والتفكير، ويجوز لأهل العلم والفكر أن يتدبّروها ويجهّدوا في تأويلها وشرحها.

أما موقف الأستاذ الجليل من هذا النوع من الرؤى فهو كما يلي:

- ينبغي فهمها في ضوء رؤى الأنبياء التي فسّرت وتحقّقت.
- يجب تحديد مصداق تمثيلاتنا في ضوء مجمل المعرفة الدينية.
- ينبغي تقديم نتائج البحث والتأمل بشأنها لا على سبيل القطع والحزم، بل كآراء احتمالية قابلة للخطأ والصواب.
- أما التمثيلات التي لا يُفهم لها تأويل، فالأولى التريث وانتظار

سُيْصَاب فِيهَا الْمُسْلِمُونَ أَوَّلًا بِالْهَزِيمَةِ، ثُمَّ يَظْفَرُونَ بِالنَّصْرِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ بِهَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ. وَقَدْ وَرَدَ هَذَا فِي "صَحِيحِ مُسْلِمٍ" فِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

"عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبْتُ وَهَلَيْتُ إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرْتُ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ فَإِذَا هُوَ مَا أَصِيبُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أَحَدٍ ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضًا بَقْرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ فَإِذَا هُمُ النَّفَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أَحَدٍ وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْخَيْرِ بَعْدَ وَثَوَابِ الصَّدَقِ الَّذِي أَتَانَا اللَّهُ بَعْدَ يَوْمِ بَدْرٍ." (رقم ٢٢٧٢)

—— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ——

قضاء الله فيها، بدلاً من الخوض في تخمينات لا طائل تحتها. في رأي الأستاذ الجليل، فإنّ الأحاديث المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن نزول المسيح، وظهور الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، والمعارك العظيمة والفتن والاضطرابات في آخر الزمان، ما هي إلّا رؤى صادقة رآها النبي صلى الله عليه وسلم. وهي مستندة إلى أساليب التمثيل والتشبيه، ومن ثمّ ينبغي تأويلها وتفسيرها. وإذا لم تُفهم تعبيراتها، وجب الإقرار بصحتها والتوقف عند معناها دون الخوض في تفاصيلها.

وقد كتب الأستاذ قائلاً:

"ينبغي النظر إلى ما ورد في الروايات بشأن الفتن، والملاحم، وعلامات الساعة من هذا المنظور نفسه، وإذا لم يتبين لنا تأويلها، فلنكل أمرها إلى الله، لأنّ مثل هذه الأمور لا تتضح في الغالب إلّا بعد انكشاف مصداقها، والمقصود منها أيضاً أن تتضح في وقتها المعين فقط." ^{١٥}

٥- مصداقية بيان نزول المسيح

لقد تبين من المباحث السابقة الأمور التالية بشكل جلي:
أولاً: إن ذكر نزول المسيح وتفاصيله ورد في سياق حادثة الإسراء

^{١٥} علم النبي ٤٥٤.

والمعراج.

ثانياً: إن وقائع الإسراء والمعراج وقعت في عالم الرؤيا، وبالتالي فإن جميع الروايات المتعلقة بنزول المسيح إنما هي بيان لرؤى النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: إن رؤى الأنبياء هي نوع من أنواع الوحي والإلهام، وهي حق لا ريب فيه، ولا يمكن معاملتها كأحلام بشرية عادية.

رابعاً: إن هذه الرؤى تأتي غالباً في صورة تمثيلية، ولذلك فهي وإن كانت صادقة ومبنية على الحق، فهي بحاجة إلى تعبير وتفسير.

خامساً: وبما أنها تحتاج إلى تعبير، فلا يصح تفسيرها بناءً على ظاهرها الحرفي، بل يجب حملها على معناها المجازي، ولا ينبغي البحث عن مصداق حرفي لها، بل عن مصداق معنوي يحقق دلالتها الحقيقية.

وبعد هذا الملخص، فلننتقل إلى فهم التعبير الذي قدّمه الأستاذ الجليل بخصوص تمثيل نزول المسيح عليه السلام:

في الرواية المنسوبة إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في رؤياه مجلساً كان فيه إبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، وكان موضوع النقاش بينهم هو وقوع الساعة (يوم القيامة).^{١٦}

^{١٦} وهذا هو الموضوع الجوهرى في مهمة الأنبياء؛ فإن من واجبهم الرسالى

فكان أول من سُئِلَ عن ذلك إبراهيم عليه السلام، فقال إنه لا يعلم وقتها. ثم سُئِلَ موسى عليه السلام، فأبدى هو الآخر عدم علمه. ثم سُئِلَ عيسى عليه السلام، فقال إنه لا يعلم توقيت الساعة تحديداً، ولكنه يعلم أن الدجال سيظهر قبلها، وأنه (أي عيسى) سينزل فيقتله. والرواية جاءت في النص التالي:

"فرد الحديث إلى عيسى بن مريم. فقال قد عهد إلي فيما دون وجبتها. فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله. فذكر خروج الدجال. قال فأُنزل فأقتله."^{١٧}

لا يمكن حمل ألفاظ «فأنزل» و«فأقتله» على ظاهرها، أي على نزول المسيح عليه السلام بنفسه من السماء، وذلك لسببين جوهريين: أولاً: القرآن الكريم يابى أن يقبل ذلك.

لقد عالج القرآن الكريم شخصية المسيح عليه السلام من جوانب متعددة، ومع ذلك لم يرد فيه أدنى إشارة إلى نزولٍ آخر له، رغم كثرة المواضع التي كان من الممكن ذكره فيها. ففي سورة المائدة (الآيات ١١٦-١١٩)، يتحدث القرآن عن حوارٍ يقع يوم القيامة بين الله تعالى

أن يُنذروا الناس بيوم القيامة، ولذلك فمن الطبيعي تماماً أن يدور الحديث في لقائهم فيما بينهم حول وقت القيامة وعلامات اقترابها".^{١٧} ابن ماجه، رقم ٤٠٨١.

والمسيح عليه السلام، حيث يسأله ربّه عن ضلال النصارى وادعائهم الألوهية فيه، فيُظهر المسيح في جوابه عدم علمه بذلك. وواضح أنه لو كان قد نزل مرة أخرى، لما كان له أن يجهل هذا الأمر. وكذلك في سورة آل عمران (الآية ٥٥)، وردت خطة إلهية شاملة عن مستقبل المسيح عليه السلام إلى قيام الساعة، ولم يُذكر فيها أي شيء عن نزوله مرة أخرى، لا تصريحاً ولا تلميحاً^{١٨}.

ثانياً: الوقت المحدد لنزول المسيح عليه السلام في الروايات قد مضى، ولم يقع النزول المرعوم.

فقد حُدد هذا الوقت في بعض الروايات بعام ٨٥٤ هـ / ١٤٥٣ م، أي قبل أكثر من ٥٤٠ عاماً^{١٩}. ولو كان المقصود من نزول المسيح نزوله

^{١٨} وقد مرّ البحث التفصيلي على هذه الاعتراضات والإشكاليات في الأبواب السابقة للكتاب.

^{١٩} وقد جاء في مسلم رقم الحديث ٤٢٦٠ القصة الكاملة لنزول المسيح، ويتضح منها أن نزوله سيقع حين يرجع الجيش المسلم بعد فتح القسطنطينية إلى المدينة إذ يفجأهم خبر ظهور الدجال -أما فتح القسطنطينية فقد وقعت في ٢٩ مايوسنة ١٢٥٣هـ (الموافق ل جمادى الأولى سنة ٨٥٤هـ وهي حتى الآن يحكمها المسلمون ولكن لم يظهر الدجال ولم ينزل عيسى عليه السلام ولم يقتل الدجال - ويمكنك الاطلاع على البحث التفصيلي في الأبواب السابقة.

الشخصي، لوجب أن يظهر الدجال في ذلك الوقت، وأن ينزل المسيح فيقتله، كما جاء في الأحاديث. لكنّ الشواهد التاريخية تُثبت خلاف ذلك، فلا المسيح نزل، ولا الدجال ظهر، ولا وقع بينهما القتال المذكور. بناءً على هذه الأسباب القطعية، فليس صحيحاً أن تُحمَل نبوءة نزول المسيح على نزوله الشخصي، لأن ذلك يفضي إلى إثارة اعتراضات على آيات القرآن، كما يجعل الأحاديث ثابتة على خلاف الواقع.^{٢٠} وعليه، فإن السبيل الوحيد لقبول نزول المسيح هو اعتباره تمثيلاً وتأويله مجازياً. وهذا أقرب إلى الصواب لسببين:

١- ذكر نزول المسيح في الرؤيا.

فعادةً ما تُعرض على الأنبياء عليهم السلام أحداث المستقبل في الرؤى على سبيل التمثيل. وكذلك عُرض هذا الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه.

٢- الأسلوب التمثيلي في كلام السيد المسيح عليه السلام.

يتضح من الإنجيل أن أسلوب السيد المسيح عليه السلام في البيان كان تمثيلاً. فقد كان يعتمد غالباً على المجاز لتوضيح مقاصده،

^{٢٠} وعلى العكس من ذلك، إذا تمّ رفض روايات نزول المسيح استناداً إلى هذين السببين، أي مخالفتها للقرآن ومخالفتها للواقع، فلن يبقى حينئذٍ أيّ مضمون يُعتدّ به يكون مصدراً لهذا التصوّر.

فيسوق الحكايات ويضرب الأمثال، ويستعمل التشبيه^{٢١} والاستعارة

^{٢١} ويتّضح هذا الأمر بجلاء في صفحات الإنجيل صفحةً صفحة، لا سيما في إنجيل متى أو كتاب الإصحاح:

- ١- « فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ خَرَجَ يَسُوعُ مِنَ الْبَيْتِ وَجَلَسَ عِنْدَ الْبَحْرِ.
- ٢- فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ، حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ السَّفِينَةَ وَجَلَسَ، وَالْجَمْعُ كُلُّهُ وَقَفَ عَلَى الشَّاطِئِ.
- ٣- فَكَلَّمَهُمْ كَثِيرًا بِأَمْثَالٍ قَائِلًا: «هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ.
- ٤- وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ، سَقَطَ بَعْضُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ.

- ٥- وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمُحْجَرَةِ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَتَبَتَ حَالًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمُقٌ أَرْضٍ.
- ٦- وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، احْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ.

- ٧- وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْكِ، فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ.
- ٨- وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ، فَأَعْطَى ثَمَرًا بَعْضُهُ مِئَةً وَآخَرُ سِتُونَ وَآخَرُ ثَلَاثُونَ.

- ٩- مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ.
- ١٠- فَتَقَدَّمَ التَّلَامِيذُ وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا تُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَالٍ؟»
- ١١- فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «لِأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا لِأُولَئِكَ فَلَمْ يُعْطَ.

١٢- فَإِنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَيَزَادُ، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ سَيُؤْخَذُ مِنْهُ.

١٣- مِنْ أَجْلِ هَذَا أَكَلَّمْتُهُمْ بِأَمْثَالٍ، لِأَنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لَا يُبْصِرُونَ، وَسَامِعِينَ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ.

١٤- فَقَدْ تَمَّتْ فِيهِمْ نُبُوَّةُ إِسْعِيَاءَ الْقَائِلَةِ: «تَسْمَعُونَ سَمْعًا وَلَا تَفْهَمُونَ، وَمُبْصِرِينَ تُبْصِرُونَ وَلَا تُبْصِرُونَ.

١٥- لِأَنَّ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ قَدْ غَلِظَ، وَأَذَانُهُمْ ثَقُلَتْ، وَعْيُونُهُمْ أَعْمَضُوهَا، لِئَلَّا يُبْصِرُوا بْعْيُونِهِمْ، وَيَسْمَعُوا بِأَذَانِهِمْ، وَيَفْهَمُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ.

١٦- وَلَكِنْ طُوبَى لَأَعْيُنِكُمْ لِأَنَّهَا تُبْصِرُ، وَلَأَذَانِكُمْ لِأَنَّهَا تَسْمَعُ.

١٧- فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَنْبِيَاءَ وَأَبْرَارًا كَثِيرِينَ اسْتَهْزَؤا أَنْ يَرَوْا مَا أَنْتُمْ تَرَوْنَ وَلَمْ يَرَوْا، وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا.

١٨- فَاسْمَعُوا أَنْتُمْ مَثَلَ الزَّارِعِ.

١٩- كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الْمَلَكُوتِ وَلَا يَفْهَمُ، فَيَأْتِي الشَّرِيرُ وَيَخْطِفُ مَا قَدْ زُرِعَ فِي قَلْبِهِ. هَذَا هُوَ الَّذِي زُرِعَ عَلَى الطَّرِيقِ.

٢٠- وَالَّذِي زُرِعَ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْمُحْجَرَةِ، فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَحَالًا يَقْبَلُهَا بِفَرْحٍ.

٢١- وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ، بَلْ هُوَ إِلَى حِينٍ. فَإِذَا حَدَثَ ضَيْقٌ أَوْ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ، فَحَالًا يَعْثُرُ.

٢٢- وَالَّذِي زُرِعَ بَيْنَ الشُّوكِ، فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَهُمْ هَذَا

والتلميح والكناية في خطابه لإيصال المعنى إلى سامعيه.

العَالَمَ وَغُرُورَ الْغِنَى يَخْنُقَانِ الْكَلِمَةَ فَتُصِيرُ بِلَا مَرٍّ.
٢٣- وَأَمَّا الَّذِي زُرِعَ عَلَى الْأَرْضِ الْجَيِّدَةِ، فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ
وَيَفْهَمُ، وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِثَمَرٍ فَيَصْنَعُ بَعْضُهُ مِثَّةً وَآخَرُ سِتُونٍ وَآخَرُ
ثَلَاثِينَ.

٢٤- قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ قَائِلًا: «يُشَبِّهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا
زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا فِي حَقْلِهِ.
٢٥- وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَاعَ زَوَانًا فِي وَسْطِ الْحِنْطَةِ
وَمَضَى.

٢٦- فَلَمَّا نَبَتَ الزَّرْعُ وَصَنَعَ ثَمَرًا، حِينَئِذٍ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضًا.
٢٧- فَجَاءَ عَبِيدُ رَبِّ الْبَيْتِ وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعًا جَيِّدًا
زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟
٢٨- فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هَذَا. فَقَالَ لَهُ الْعَبِيدُ: أَتَرِيدُ أَنْ
نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟

٢٩- فَقَالَ: لَا، لِيَلَّا تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ.
٣٠- دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلَاهُمَا مَعًا إِلَى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ
أَقُولُ لِلْحَصَادِيِّينَ: اجْمَعُوا أَوَّلًا الزَّوَانِ وَاحْزِمُوهُ حُزْمًا لِيُحْرَقَ، وَأَمَّا
الْحِنْطَةُ فَاجْمَعُوهَا إِلَى مُخْرَجِي.

٣١- مَثَلًا آخَرَ قَدَّمَ لَهُمْ قَائِلًا: «يُشَبِّهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ
خَرْذَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ،

—— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ——

بناءً على الاستدلال الوارد أعلاه، يرى الأستاذ الجليل أن ما ورد بشأن نزول المسيح عليه السلام هو من باب التمثيل، وقد بين مصداقه في ضوء نظائر من القرآن الكريم والإنجيل والأحاديث النبوية.

وعليه، فإن موقفه هو أن المقصود من نزول المسيح هنا ليس نزوله الشخصي، بل نزول مجازي.^{٢٢} أي إن قول المسيح عليه السلام: "سأنزل"، لا يعني أنه سينزل بنفسه مرة أخرى، بل معناه أن هدايته التي طُمست كلياً من قبل النصارى ستظهر من جديد. وقد كتب الأستاذ في شرح رواية عبد الله بن مسعود المذكورة ما نصه:

"من الواضح في القرآن والحديث أن هذه أحداث رؤيوية، تحتاج إلى تأويل. ومن ثم فقد أولنا روايات نزول المسيح بأنها تشير إلى نزول هدايته، والتي ستظهر قبيل قيام الساعة بين أتباعه أنفسهم، بهذا الشأن والوضوح، حتى كأن المسيح نفسه نزل من السماء، وأصلح حال قومه، ثم انصرف."^{٢٣}

إنه، في نظره، تمثيل شبيه تماماً بما عبّره عنه بنفسه بشأن قيامه بالحكم. ويتضح من إنجيل متى أنه بوصفه رسولاً، عبّر عن إقامة عدالته

^{٢٢} "تماماً كما كانت رؤيا نبي الله إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ورؤيا نبي الله يوسف عليه السلام بسجود الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له، رؤى حقّة رغم أنها كانت تحمل مصاديق مجازية".

^{٢٣} علم النبي ٧٨٢.

بأنها هي نفسها مجيئه الثاني، فقال:

"وكما كان في أيام نوح، كذلك سيكون في مجيء ابن آدم (المسيح عليه السلام). فكما كان الناس في الأيام التي سبقت الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون، إلى اليوم الذي دخل فيه نوح السفينة، ولم يدركوا شيئاً حتى جاء الطوفان وأهلكهم جميعاً، هكذا يكون مجيء ابن آدم."^{٢٤}

٦- تفهيم تمثيل نزول المسيح

في باب نزول المسيح، فإن موقف أستاذنا الجليل قائم على قياس ألفاظ الحديث ومقصودها على ألفاظ الإنجيل ومقصودها المذكورة أعلاه. فقد قاس قوله في الحديث: «سأنزل (أنا عيسى بن مريم)» على ما ورد في الإنجيل: «سيأتي ابن آدم (عيسى بن مريم)»، وحمل المقصود به على أنه نزول مجازي، تماماً كما أن التبشير في الإنجيل بمجيء المسيح قد تحقق على وجه مجازي تثبته وقائع التاريخ. وفي هذا القياس، فإن المقيس - أي نزول المسيح بمعنى نزول هدايته - والمقيس عليه - أي مجيء المسيح بمعنى مجيء حكمه القضائي - يجب أن يفهم ما بينهما من علاقة. ولهذا، من الضروري أولاً أن ندرك تلك التمثيل ومقصودها التي جرى القياس

^{٢٤} متى ٢٤: ٣٧-٣٩.

عليها. لقد كان السيد المسيح عليه السلام نبياً ورسولاً في الوقت نفسه. فقد بُعث إلى بني إسرائيل بوصفه قاضياً من عند الله تعالى، وكان من واجبه بوصفه هذا أن يُقيم الحجة على قومه، وأن يُنزل بعد ذلك الجزاء والعقاب السماوي. وكان المقرر في شريعة الله تعالى أن بني إسرائيل إن آمنوا به فسيُفيض الله عليهم بركات السماء والأرض، وإن كفروا فسيستحقون العقوبة، وسيُعجل لهم العذاب في الدنيا.^{٢٥}

^{٢٥} قانون محاكمة الأمم من قبل الرسل كما ورد في سورة يونس:
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس ١٠: ٤٧)
وقد أوضح أستاذنا الجليل هذا المعنى بقوله:

"هذا هو نفس القانون الذي سبق أن بيناه في مواضع متعددة، وهو أن النبوة والرسالة، قبل أن تُخصَّص في ذرية إبراهيم، كانت تشمل كل أُمم الأرض، حيث أُقيمت عليهم الحجة من خلال رسلهم الذين بُعثوا إليهم. ومن خلال تفاصيل هذا في القرآن، يتضح أن هؤلاء الرسل جاؤوا ليكونوا محكمة إلهية في حق أقوامهم، فأصدروا الحكم الإلهي، ثم غادروا هذه الدنيا. ويبين القرآن أن هذا الحكم كان يصدر بعد أن تمرَّ دعوة الرسول بمراحل:

الإندار،

ثم الإنذار العام،

ولكن، يا للأسف، فإن بنى إسرائيل بدلاً من أن يختاروا طريق الإيمان والطاعة، سلكوا سبيل الإنكار والانحراف. فلم تُثَنِّم ولادته المعجزة، ولا كلامه وهو في المهد، ولا الآيات الخارقة العظيمة التي ظهرت على يديه،^{٢٦} عن عنادهم وعداوتهم للحق، بل استمرت قلوبهم في القسوة والضلالة، حتى بلغت بهم الشقاوة أن دبّروا مؤامرة لقتله عليه السلام.^{٢٧}

حينما تبلغ أمم الرسل غاية الطغيان والتمرد، تنتهي المهلة التي منحها الله لهم، ويصدر القرار الإلهي بإنزال العذاب.^{٢٨} وفي هذه

ثم إتمام الحجة،

ثم الهجرة والبراءة،

حتى تتحوّل الأرض إلى محكمة سمائية، ويظهر قضاء الله فيها، وتقوم

على قوم الرسول صورة مصغرة من القيامة - أي قيامة صغرى.

(البيان ٢ / ٤٣٨)

^{٢٦} فكان بإذن الله ينفخ في طير مبني من الطين ويحييه وبرئ الأكمه والأبرص والأعمى بإذن الله ويحيى الموتى بإذن الله ويخبر من يزوره ماذا اكلوه قبل المجيء وماذا ادخروه في بيوتهم.

^{٢٧} وكان نفس الخطة التي خططها قوم إبراهيم من قبل المسيح له وقوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم له.

^{٢٨} وفقاً لسنة الله تعالى، فإن العذاب الدنيوي الذي يُنزل بمنكري الرسل يمكن تقسيمه إجمالاً إلى ثلاث صور:

المرحلة، يُفصل الرسول عن قومه ويُحفظ من العذاب. وقد تكون هذه الحماية على صورة الهجرة إلى أرض أخرى وهو على قيد الحياة، أو على صورة الوفاة والانتقال إلى السماء. وفي كلتا الحالتين، تُعدّ هذه الهجرة انتقالاً إلى الله، ويتم هذا وفق إذنه ووفق الحكمة الإلهية

الصورة الأولى: أن تكون أمة الرسول قائمة في أصلها على الشرك، فيؤمن بالرسول عدد معتدّ به من الناس نتيجةً للدعوة، ويُمنح الرسول وأتباعه سلطة في أرض من الأرض. في هذه الحالة، يُنقذ حكم العذاب بأيدي الرسول وأصحابه بالسيف. وقد حدث هذا مع أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بني إسماعيل.

الصورة الثانية: أن تكون أمة الرسول قائمة في أصلها على الشرك، ولكن الذين يستجيبون للدعوة لا يتجاوزون عددًا قليلاً، ولا يتيسر للرسول دار هجرة يقيم فيها سلطانه. في هذه الحالة، تُقام المحكمة الإلهية على هذه الأمة بأن يهجر الرسول وأتباعه عنها، ثم يُفني الله بقية الأمة تماماً من على وجه الأرض. وقد وقع هذا مع أقوام نوح، هود، صالح، لوط، شعيب وغيرهم.

الصورة الثالثة: أن تكون أمة الرسول قائمة في أصلها على التوحيد، لكنها ترفض الإيمان بالرسول. فيكون عدد الذين يؤمنون قليلاً، لا يستطيعون مواجهة المنكرين، كما لا تتوفر للرسول دار هجرة يقيم فيها سلطانه. في هذه الحالة، يُنزل الله بهم عذاب الذل والاستعباد، ويستمر ذلك إلى يوم القيامة، دون أن يُفْنُوهم من الوجود، لأنهم في أصلهم كانوا موحدين. وقد حدث هذا مع بني إسرائيل، حيث نزل بهم هذا العذاب نتيجة إنكارهم لرسالة السيد المسيح عليه السلام.

المقررة.

وفي حالة المسيح عليه السلام، قضى الله أن يتوفاه ويرفع جسده الطاهر إليه، وأعلن في الوقت نفسه أن العذاب سينزل على المكذابين به بسبب إنكارهم.

وقد نزل هذا العذاب بعد وفاة السيد المسيح عليه السلام بعدة سنوات، في سنة ٧٠ ميلادية. وتمثل في أن الإمبراطورية الرومانية غزت أورشليم ودمرتها تدميرًا شاملاً، حتى سوت بنيانها بالأرض. فهُدم رمز عظمتهم، الهيكل السليماني^{٢٩} وقُتل مئة وثلاثة وثلاثون ألف إنسان، واستُرق سبعة وستون ألفًا منهم، وتحولت المدينة بأكملها إلى خراب ودمار.

وهذه هي الصورة التي اتخذها عذاب الله بعد إتمام الحجة من قبل المسيح عليه السلام، وهي التي أشار إليها القرآن الكريم بعبارة: ﴿وَعُدُّ الْآخِرَةَ﴾ (أي الوعد الثاني): "فقد قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءَ أَوْجُوبُكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتَّبِرًا﴾^{٣٠}

^{٢٩} وهو لم يعمر ثانيًا حتي اليوم وليتضح أن الهيكل هو بالنسبة لليهود كما أن الكعبة الشريفة بالنسبة لنا.

^{٣٠} بنى اسرائيل ١٧: ٧.

حول هذا العذاب كتب الأستاذ الجليل قائلاً:

"هذا يشير إلى تلك الكارثة التي حلّت باليهود عام ٧٠م بعد إتمام الحجة من قبل المسيح عليه السلام، حيث وقعت على أيدي الرومان بقيادة الإمبراطور تيطس. في ذلك الوقت، قُتل الآلاف، وسُبي الآلاف، وأُرسل كثيرون للعمل في مناجم مصر، فيما تم إرسال آخرين إلى مدن مختلفة ليكونوا وسيلة ترفيه للجماهير، إما بأن تفرسهم الوحوش في المدرجات الرومانية أو أن يكونوا هدفاً لمبارزات السيوف. أما الفتيات الطويلات القامة والجميلات، فقد اختارهنّ الغزاة لأنفسهم، ودُمّرت مدينة القدس تماماً، بما في ذلك مسجدها، حتى سوّي كل شيء بالأرض."^{٣١}

هذا هو نفس القضاء الذي نزل من السماء على بني إسرائيل نتيجة لإقامة الحجة عليهم من قبل رسول الله عيسى عليه السلام. وقد أخبر المسيح عليه السلام عن هذا القضاء بصيغة تمثيلية تُعبّر عن مجيئه. وفيما يلي الاقتباس الكامل من الإنجيل، الذي تنبأ فيه المسيح عليه السلام بمجيء هذا القضاء.

فقد بيّن أن هذا الجزاء والعقاب سيقع على هذه الجيل من اليهود قبل أن تنقرض، وأن الأمر سيكون شبيهاً بما جرى مع قوم نوح، بل سيكون هو نفسه من يأتي بذلك القضاء السماوي عليهم. فيقول

^{٣١} البيان ٣ / ٦٧-٦٨.

المسيح عليه السلام:

"الحق أقول لكم: لا يزول هذا الجيل حتى يكون هذا كله. السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول. وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا ملائكة السماوات، ولا الابن، إلا الآب وحده. وكما كانت أيام نوح، كذلك يكون مجيء ابن آدم^{٣٢}. لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون، إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذهم جميعاً، كذلك يكون أيضاً مجيء ابن آدم. حينئذ يكون اثنان في الحقل، يُؤخذ الواحد ويترك الآخر. اثنتان تطحنان على الرحى، تُؤخذ الواحدة وتترك الأخرى. اسهروا إذًا، لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم. واعلموا هذا: أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق، لسهر ولم يدع بيته يُنقَب. لذلك كونوا أنتم أيضاً مستعدين، لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان."^{٣٣}

النبوة المذكورة في الإنجيل تعني أن المسيح عليه السلام سيعود مرةً أخرى في الجيل نفسه من بني إسرائيل الذي بُعث فيه أول مرة، وذلك قبل أن ينقرض ذلك الجيل. وعند عودته هذه، سيتم رسالته،

^{٣٢} وقد استخدم المسيح لفظة ابن آدم في حق نفسه وأراد بمجيئ ابن آدم مجيئ المسيح نفسه.

^{٣٣} كتاب متي ٢٤: ٣٤ - ٤٤.

—— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي ——

ويُنقذ الحكم على من كفر به من قومه.

والسؤال الآن هو: هل وقع عذاب الله على بني إسرائيل كما أخبرت النبوءة؟

الجواب: نعم، لقد نزل بهم العذاب فعلاً في عام ٧٠ للميلاد، تماماً كما ورد في النبوءة.

والسؤال الثاني: هل نزل المسيح عليه السلام بنفسه ليحكم على بني إسرائيل ويُجري فيهم الجزاء والعقاب؟

الجواب: لا، لم يأت المسيح عليه السلام بنفسه، ولكن حكمه نُقذ على بني إسرائيل من خلال سيوف الرومان، فكان ذلك تجلياً عملياً لعدالة المسيح، وإن لم يكن حضوره شخصياً.^{٣٤}

إن هذه الشهادة التاريخية تثبت أن النبوءة الواردة في الإنجيل عن "مجيء المسيح" لم تكن تشير إلى نزوله الشخصي، بل كانت تمثيلاً لمجيء عدالته، وهي العدالة التي نزلت من السماء كما نزلت عدالة نوح عليه السلام. والفرق الوحيد بينهما كان في "أدوات العقوبة"؛ إذ استُخدمت في عدالة نوح عليه السلام الأدوات السماوية من سحابٍ ورياح،

^{٣٤} ونزول عذاب الله عقاباً لجحود وإنكار الرسل هو أمر تكويني بحت - فينزل في صورة الطوفان والسحاب والرعد والرجفة والزلازل والصيحة أو في صورة هجمات وغارات جنود بشرية قاهرة، فهي في كل صورة تكون من الله وتكون مظهر السنة الله التي لا تبديل لها على كل حال.

—— نزول المسيح 187 ——

بينما استُخدمت في عدالة المسيح عليه السلام الأدوات الأرضية من سيفٍ ورماح.

وبهذا التوضيح، يتبين جلياً أن العبارات المنقولة في الإنجيل مثل: "سيأتي ابن آدم" ما هي إلا تمثيل لمجيء عدالة المسيح عليه السلام، ولا يمكن استنباط نزوله الشخصي من هذه الألفاظ.

بعد ذلك، ينبغي أن نعلم أن الأستاذ الجليل قد قاس روايات "نزول المسيح" على هذه العبارة الإنجيلية ومضمونها المجازي، واتخذ هذا الموقف: أن عبارة "مجيء المسيح" التي استُخدمت تمثيلاً لمجيء عدالته، قد استُخدمت على هذا النمط ذاته عبارة "نزول المسيح" تمثيلاً لظهور هدايته^{٣٥}. أي أن الأسلوب المستعمل في الإنجيل، كقولهم: "مجيء ابن آدم"^{٣٦} أو "سيأتي ابن الإنسان"^{٣٧} هو نفسه الأسلوب المستعمل في

^{٣٥} في ضوء القرآن الكريم، فإن الأمر المقرر هو أن رسول الله لا يأتي إلى قومه إلا بأمرين اثنين: الهداية و العدالة. فأما الهداية فالمقصود بها ذلك الدين المبني على الحكمة والشرعة، الذي يتعين على القوم قبوله حتماً، وأما العدالة فالمقصود بها حكم الجزاء والعقاب الذي يُنقذ على القوم بعد إتمام الحجة عليهم.

^{٣٦} متي ٢٤: ٣٧.

^{٣٧} متي ٢٤: ٤٤.

الروايات النبوية مثل: "فأنزل" (سأنزل)^{٣٨} أو "ينزل فيكم ابن مريم"^{٣٩} أو "فبيعث الله عيسى ابن مريم"^{٤٠}.

وهذه العبارات أيضاً تدل على معنى مجازي ومعنوي، لا على الحقيقة الحسية. وكما كان المقصود من "مجيء المسيح" في الإنجيل هو مجيء عدالته، كذلك ينبغي أن يُفهم "نزول المسيح" في الروايات على أنه نزول هدايته.

والجدير بالذكر أن العبارتين الواردتين في الإنجيل والروايات كليهما قد صدرتا عن لسان المسيح عليه السلام، فنقل كلٌّ من الإنجيل والحديث أقواله نفسها. وهذه الشهادة الصادرة من نفس الشخصية، بهذا الأسلوب الموحد، تعضد وتؤيد موقف الأستاذ الجليل.

نتأج هذا البحث في معنى نزول المسيح:

* إن العبارات الواردة في الروايات مثل: "فأنزل" و"فأقتله" (سأنزل وأقتله)، هي في الأصل أقوالٌ منسوبة إلى المسيح عليه السلام، وردت أثناء المعراج حين خاطب النبي صلى الله عليه وسلم.

* أسلوب هذه العبارات تمثيلي، كما هو أسلوب المسيح عليه السلام عموماً في خطباته.

^{٣٨} ابن ماجه، رقم ٤٠٨١.

^{٣٩} البخاري، رقم ٢٢٢٢.

^{٤٠} مسلم، رقم ٧٥٦٨.

— نزول المسيح: موقف الأستاذ غامدي —

* وقد استخدم في هذه العبارات نفس الأسلوب الذي استعمله في خطبته الإنجيلية.

* في الإنجيل، "مجيء المسيح" كان تمثيلاً لعدالته، التي ثبتت كمصدق لها حقيقة تاريخية.

* وفي الروايات، "نزول المسيح" هو تمثيل لنزول هدايته، والذي يمكن أن يكون هو المقصود الحقيقي من تلك الأحاديث.

٧- نزول المسيح "بمعنى" نزول هداية المسيح

يرى الأستاذ الجليل أن تمثيل "نزول المسيح" إنما يُراد به نزول هدايته عليه السلام. ويثار في هذا السياق سؤال مهم، وهو: إذا كانت هداية السيد المسيح عليه السلام قد نزلت قبل ألفي عام، فما وجه نزولها مرة أخرى؟ وما هي الحاجة إلى ذلك؟

والجواب: أن المقصود بهذا النزول هو تجديد هدايته عليه السلام وإحيائها، أي أنها ستكون ظهوراً ثانياً لهدايته. وهذا الظهور الثاني ضروري لأن هدايته الأصلية قد مُحيت تماماً من فكر وعمل أتباعه، واستُبدلت بدينٍ يخالفها تماماً، بل ويُعرض على الناس باسم المسيح، ويُنسب إليه زوراً وبُهتاناً. والواقع أن مثل هذا التحريف العميق لم يلحق برسالة أي نبي من الأنبياء كما لحق برسالة المسيح عليه السلام. وهذا الحدث له ثلاثة أبعاد خطيرة:

أولاً: إن هداية المسيح عليه السلام قد جُردت من أساس التوحيد،

وهو أمر يُعد مأساة عظيمة في تاريخ الإنسانية، إذ جعل هذا النبي العظيم، حامل راية التوحيد، - معاذ الله - رمزاً مجسماً للشرك، وأُقنع الناس بأنه ابن الله، بل تجلّ للذات الإلهية نفسها في صورة بشر. ثانياً: إن شريعة المسيح المصدّقة قد أُلغيت بالكامل. فقد نُسب إليه، خلافاً لحقيقته، أنه جاء لإبطال التوراة، في حين أن دعوته الأصلية كانت تقوم على تطبيق أحكامها. وبهذا تقرر أن التوراة خاصة ببني إسرائيل، وأنه لا شريعة للنصارى.

ثالثاً: تم ترسيخ الاعتقاد بأن المسيح عليه السلام قد كُفّر بصلبه عن خطايا البشر جميعاً، وهو ما أدى إلى إلغاء المفاهيم الأساسية للدين مثل الابتلاء، والخطيئة، والثواب والعقاب، والمحاسبة. وقد أصبحت هذه الانحرافات الثلاثة من أبرز سمات العقيدة النصرانية، رغم تعدد طوائفها واختلافاتها. فجميعهم متفقون على هذه الضلالات الكبرى^{٤١} ولهذا وصفهم القرآن الكريم بـ "الضالين"،^{٤٢} أي الذين ضلوا عن طريق الحق.

وفي هذا السياق، يقدّر الأستاذ جاسم غامدي أن هداية المسيح

^{٤١} لأن الفرق الثلاث من الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس مع ما فيها من خلافات كثيرة تتفق على هذه الانحرافات البنيوية.

^{٤٢} المائدة ٥: ٧٧.

عليه السلام ستعود إلى الظهور على حقيقتها قبيل قيام الساعة. ويرجح أن ذلك سيكون من خلال نهضة تجديد ديني^{٤٣} داخل العالم النصراني، تنشأ فيها حركة تسعى إلى إزالة الدين المحرف الذي وضعه بولس، وتُعيد إحياء دين المسيح الحقيقي كما أنزله الله. وهذا هو الذي يُعد الظهور الثاني لهديته ودعوته عليه السلام.

انظر الآن إلى مضامين الروايات من هذا المنظور، فستبدولنا أمورٌ كثيرة منسجمةً مع المنطق. على سبيل المثال:

* كسر الصليب:

الصليب هو رمز التثليث وأكبر شعار من شعارات الشرك. فإذا ظهرت هداية المسيح عليه السلام من جديد، فمن الضروري أن يُحطم الصليب بجميع معانيه ومفاهيمه.

* قتل الخنزير:

الخنزير في حقيقته رمز للمحرمات الشرعية. فعندما جاء السيد المسيح عليه السلام وطبّق شريعة التوراة، أصبحت تلك الأحكام ملزمة للنصارى، كما كانت ملزمة لبني إسرائيل. غير أن القديس بولس

^{٤٣} كما كانت هناك نهضات لتجديد الدين في الأمة المسلمة بين الفينة والفينة الأخرى، فقد ولد الكثير من المجددين والمصلحين الذين قاموا بأعمال الإصلاح والتجديد فيها وكان من بينهم في الماضي الإمام ابن تيمية وأخيراً العلامة حميد الدين الفراهي.

خصّصها لبني إسرائيل فقط، وأعفى النصارى من التقيّد بها. ونتيجة لذلك، أُبطل تحريم الخنزير وسائر الأحكام الشرعية، وكأنّ الخنزير قد "بعث حيّاً" من جديد؛ أي إنّ ما كان حراماً صار حلالاً. فإذا تجددت الهداية وعاد القانون الأصلي، فلا بد أن يُعاد تحريم الخنزير. وهذا هو المعنى المقصود من "قتله".

* زوال العداوة بين المسلمين والنصارى:

وهذا أمر بديهي. فعندما يعود النصارى إلى الهداية الأصلية، ويتوبون من عقيدة التثليث ويؤمنون بالتوحيد، فإنّ سبب النزاع والعداء بينهم وبين المسلمين سينتفي. وحينها يصبح من المعقول أن يتحد الفريقان تحت راية واحدة لمحاربة الدجال وأعوانه من اليهود. ويمكن فهم سائر التنبؤات الواردة في الروايات في ضوء هذا الفهم أيضاً.



إشكاليات واردة على موقف غامدي

في ختام هذا البحث، من الضروري تناول تلك الأسئلة التي تُثار حول موقف الأستاذ جاويد أحمد غامدي في مقابل مواقف العلماء التقليديين.

السؤال الأول: العديد من كبار علماء الأمة ومفكري القرآن الكريم استنبطوا من بعض الآيات تصور حياة المسيح عليه السلام، فما هو موقف الأستاذ غامدي من تفسير هذه الآيات؟ وإذا كان موقفه مختلفاً، فما هو تفصيل استدلاله؟

السؤال الثاني: ما طبيعة الخلاف بين الأستاذ غامدي وشيخه المولانا أمين أحسن إصلاحه بشأن رفع المسيح حياً؟ ولماذا حصل هذا الخلاف رغم اتفاقهما في أصول التفسير؟

السؤال الثالث: ما السبب الذي يجعل الأستاذ غامدي لا يرى أن الإيمان بنزول المسيح عليه السلام وسائر الأخبار المماثلة يجب أن يكون جزءاً من العقائد الإيمانية القطعية؟

———— إشكاليات واردة على موقف غامدي ————

ستُعرض مناقشة هذه الأسئلة بالتفصيل تحت العناوين التالية:

- ١- المقصود من قول الله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ﴾
- ٢- تفسير الشيخ أمين إصلاحي لقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ﴾
- ٣- المقصود من قول الله: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾
- ٤- المراد بعبارة: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ في سورة النساء
- ٥- ماهي مصداقية ﴿وإنه لعلم للساعة﴾؟
- ٦- هل يعدّ تصور نزول المسيح عليه السلام من مسائل العقيدة والإيمان؟



١- المراد بـ «إني متوفيك»

يرى الأستاذ جاويد أحمد غامدي أن قوله تعالى في سورة آل عمران (الآية ٥٥): «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ» (أي: إني أميتك)، يُفهم بمعنى الوفاة والموت الحقيقي، وليس بمعنى أخذ الروح مؤقتاً مع بقاء الجسد حياً أو رفعه حياً إلى السماء.
ويؤكد أن:

• لفظ "توفي" في القرآن الكريم يُستعمل غالباً للدلالة على الموت الحقيقي؛

• ومعاني ألفاظ هذه الآية، وتركيب جملها، وسياق الكلام الذي وردت فيه، وكذلك النظائر والشواهد الأخرى في القرآن، كلها تدل بوضوح على أن المقصود بـ «إني متوفيك» هو إماتتك؛

• أما تفسير هذا التعبير بمعنى "أخذك كاملاً إلى السماء حياً"، فهو تأويل غير صحيح ولا يتفق مع السياق.^١

^١ ويتضح من ذلك أن غامدي يختلف مع العلماء في تعيين معاني "توفي"، فالأستاذ

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

وقد ترجم الأستاذ غامدي هذه الآية في تفسيره "البيان" كما يلي:
"واذكر حين قال الله: يا عيسى، إني متوفيك ورافعك إلي،
ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا
إلى يوم القيامة..."

وهذا الترجمة تُعبر صراحةً عن موقفه بأن المسيح عليه السلام قد
توفاه الله حقاً، وأن كل ما ورد في القرآن يدل على هذا المعنى. قال
تعالى:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى
إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^٢

معاني "توفي"

كلمة "توفي" مأخوذة من باب تفعل للفعل وفي (وفي)، وتستخدم
في أصل معناها للدلالة على: "أخذ الشيء كاملاً غير منقوص"^٣، أي

غامدي يعني منه الموت والعلماء يحملون معناه على الاستيفاء بكامله.
٣: ٥٤-٥٥.

^٣ متوفي هو اسم فاعل منه. وفي ﴿إني متوفيك﴾ إن فاعله هو الله المضمري
لفظ "إني" ومفعوله هو الضمير المخاطب في "ك" والمراد به هو عيسى عليه

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

الاستيفاء التامّ. ومن هنا، تُستعمل أحياناً بمعنى مجازي للدلالة على الموت، باعتباره نوعاً من الاستيفاء الكامل للإنسان.

لكن المفسرين يرون أن هذه الكلمة، في الآية المتعلقة بسيدنا عيسى عليه السلام، ليست مستعملة في معناها المجازي، أي الموت، وإنما في معناها الأصلي، وهو أخذ الشيء كاملاً. وبالتالي، فالمقصود من قوله تعالى: ﴿إني متوفيك﴾ ليس إِمَاتته، بل أخذه واستيفأه تامّاً وسليماً دون أن يلحق به أذى أو نقص.

وسبب هذا التفسير أن الآية لم تتوقف عند قول الله تعالى: ﴿إني متوفيك﴾، بل أتبعها بقوله: ﴿ورافعك إليّ﴾. وهذه الجملة تُشكل مانعاً قوياً من تفسير "توفى" على أنها تعنى الموت؛ لأن الموت يعنى انفصال الروح عن الجسد، وعندها لا يبقى الكيان المتكامل الذي يمكن رفعه. فإذا مات الإنسان، لم يعد "هو" بشخصه، بل أصبح روحاً وجسداً منفصلين. وفي هذه الحال، تصبح ضمير الخطاب "ك" في ﴿رافعك إليّ﴾ بلا معنى، لأنه لا تشير إلى الكيان الشخصي الكامل لعيسى عليه السلام، بل إلى أجزاء مفترقة.

ويضاف إلى ذلك ما ورد في سورة النساء (٤: ١٥٧): ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾، حيث تؤكد الآية أن بني إسرائيل لا قتلوا عيسى عليه

السلام.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

السلام ولا صلبوه. وهذه النفى القاطع للقتل والصلب هو في الحقيقة نفى للموت نفسه. فإذا نفى القرآن وقوع الموت عن عيسى عليه السلام بهذا الأسلوب الحاسم، فلا يصح بعد ذلك أن نؤول كلمة "توفى" في هذه السياق بمعنى الموت، ولو مجازاً.

هذا هو خلاصة ما ذكره العلماء في تحديد معنى "توفى" في هذا السياق القرآني.^٤

وفقاً لرأي جاويد احمد غامدي، فإن لفظ "توفى" في هذا الموضع مستعملٌ صراحةً في معنى الوفاة الحقيقية، ولا يصحّ حملُهُ على معنى «الأخذ الكامل» أو «الاستيفاء» بمعزلٍ عن دلالة الموت.

وأدلتُّه في ذلك تقوم على الأسس الآتية:

أولاً، من المسلّمات في علم اللغة أنّ تحديد دلالة الألفاظ والتراكيب إنما يكون بالرجوع إلى معانيها المعروفة والمستعملة بين الناس. فالمعنى الذي يُراد من كلمةٍ ما في جملةٍ معينة لا يخضع لذوقنا الشخصي، ولا لتفضيلاتنا، ولا لاختيارنا الانتقائي؛ بحيث نأخذ من بين المعاني المتعددة المذكورة في المعاجم ما يوافق رغبتنا ثم نُلصقه باللفظ إلصاقاً. بل إن الفيصل في ذلك كله هو الاستعمال الشائع في العرف العام؛

^٤ يمكن الاطلاع على تفصيل هذه الأدلة في الباب الثاني تحت عنوان "موقف العلماء".

فهو الذي يحدد أيّ المعاني هو المراد، وكيف يُفهم الكلام في سياقه الطبيعي^٥.

وكذلك فإنّ البتّ في ما إذا كان اللفظ في سياقٍ معيّنٍ وأسلوبٍ بيانيٍّ محدّد قد استُعمل في معناه الحقيقي أم في معناه المجازي، ليس أمرًا راجعًا إلى اختيارنا. بل إنّ تعيين ذلك إنّما يكون بحسب العُرف اللغوي العام.

فعلى سبيل المثال، «الانتقال» و«التحوّل» مترادفان في الأصل، وكلاهما يدلّ على الذهاب من مكان إلى آخر. لكنّ قولنا: «انتقل فلانٌ إلى رحمة الله» وقولنا: «انتقل فلانٌ إلى مكانٍ آخر» ليسا سواءً في الدلالة. فالجملة الأولى تدلّ دلالةً قاطعة على الموت، ولا يمكن حملها على مجرد الانتقال المكاني في الدنيا. أمّا الجملة الثانية فتمتنع دلالتها على الموت، ويتعيّن حملها على انتقالٍ في شؤون الحياة الدنيوية. وهذا هو المعنى المتعارف عليه في الاستعمال.

^٥ ومع ذلك، ينبغي أن يكون واضحًا أن المعجم — سواء أكان جاريًا على السنة الناس أم مدوّنًا في كتب اللغة — إنّما يقوم في أصله على العُرف. فالعُرف هو الذي يحدّد: في أيّ المعاني يُستعمل اللفظ، وأيُّ هذه المعاني يختصّ بأساليب معيّنة، وما هي القرائن السياقية التي تُعيّن المعنى على جهة الحقيقة، وما الذي يصرفه إلى المجاز، ثم أيُّ هذه المعاني هو المعروف الشائع المتداول، وأيّها يُعدّ شاذًا أو غريبًا أو خارجًا عن القياس.

فإن حُمِلَت هذه التراكيب — من غير قرينة واضحة — على غير ما استقرَّ عليه العُرف، كان ذلك مخالفاً تماماً لمراد المتكلم. وعليه، فإنَّ تحديد معنى «التوفي» لا يكون بالنظر إلى ما ذكرته المعاجم من معانٍ متعدّدة، بل بالنظر إلى كيفية استعماله في الجملة. فيُنظر: إذا كان فاعل الفعل هو الله تعالى، ومفعوله إنساناً، فهل يُحمَل — بحسب العُرف اللغوي — على معناه الحقيقي، أم على معنى مجازي؟ والحكم في ذلك إنما يكون لما يقضي به الاستعمال العربي المتعارف، فهو الذي يُعتمد ويُقبل.

ثانياً، إذا استعمل الفعل في جملةٍ ما، فإنَّ تحديد معناه لا يكون بالنظر إلى صورته المجرّدة فحسب، بل يُراعى فيه الطرف الذي أُسند إليه أو تعلّق به، أي الفاعل أو المفعول. فكلّ فعلٍ لا بدّ له من فاعلٍ يصدر عنه، ومفعولٍ يقع عليه.

ومن المعلوم أنّ الفاعلين يختلفون، كما تختلف المفاعيل. وهنا يثور السؤال: إذا تغيّر الفاعل أو المفعول، فهل يمكن أن يتغيّر معنى الفعل تبعاً لذلك؟ والجواب: نعم. فالمعنى في السياق لا يُستفاد من ذات الفعل وحده، بل من علاقاته الإسنادية ومن طبيعة الأطراف المرتبطة به.

ولتقريب الفكرة، نضرب مثلاً من الاستعمال اليومي في اللغة الأردية، وهو الفعل «أُثْهانا» (الرفع أو الأخذ). الفعل واحد، لكن معناه يتبدّل

بتبدّل الفاعل أو المفعول

١- رفعت الأم الصبي أي رفعتَه في حضنها (المعنى الحقيقي)

٢- رفع الله الولد أي توفاه (المعنى المجازي)^٦

٣- الطفل رفع السماء على رأسه: أي أحدث جلبة وصخباً (المعنى

المجازي)

رفع الصبي السماء على الرأس أي جلب الصخبة والضجة (المعنى

المجازي وهو استعمال أردي لاعربي).^٧

^٦ بعض الأمثلة للولد كمفعول:

١- رفع اللاعبون الولد - (أي حملوه على الأكتاف - المعنى الحقيقي)

٢- لقد رفعت الشرطة الولد. (أي اعتقلته - المعنى المجازي)

٣- لقد رفع الأثقياء الولد. (أي اختطفوه - المعنى المجازي)

٤- لقد رفعت الأخت الولد من نومه (أي أيقظته - المعنى المجازي).

وهو استعمال أردي لاعربي).

^٧ بعض الأمثلة على ولد من حيث الفاعل:

١- لقد رفع الفتى المسؤولية. (أي: عبّر عن عزمه. مجازي) وهو استعمال

أردي لاعربي

٢- لقد رفع الفتى يده. (أي: تراجع عن الأمر. مجازي)

٣- لقد رفع الفتى اليمين. (أي: تعهّد بتحمّل المسؤولية. مجازي)

٤- لقد رفع الفتى القرآن. (أي: أقسم بالقرآن. حقيقي ومجازي)

٥- لقد رفع الفتى السلاح. (أي: أصبح مستعداً للهجوم. حقيقي ومجازي)

فكما نرى، الفعل هو نفسه: "رفع / أخذ"، ومعه نفس الصيغة لكن بسبب تغيّر الفاعل أو المفعول تغير المعنى كلياً.
فإذا سمعنا: "الله رفع (أخذ) الطفل" فلن نفهم أن الله رفعه حياً إلى السماء كما تُحمل الأمتعة، بل سنفهم أنه مات. وكذا عندما نسمع قولهم: "لقد رفع السماء على رأسه"، فإننا لا نعتمد على أسلوب قولهم: "حمل الأمتعة على رأسه" لنستنتج أنه وضع السماء على رأسه بالمعنى الحرفي، كما توضع الأمتعة على الرأس.

ومعنى ذلك أن الاشتراك في الصياغة اللغوية لا يقتضى الاشتراك في المعنى الحقيقي؛ فالتعبير الأول مجازي يُراد به المبالغة في الضجيج أو إثارة الاضطراب، بينما الثاني حقيقي يُراد به الحمل الفعلي.
ولو اعترض أحد وقال: «لكن الأم أيضاً رفعت الطفل»، فلماذا لم نحمل معناها على الموت؟ فالجواب أن هذا الاعتراض لا يستند إلى أسس لغوية صحيحة.

في هذه الجمل كلّها استُعمل الفعل الواحد "أثّهاناً" (الرفع)، وجاء معه الصلّة الواحدة "لينا" (الأخذ)، ولكنّ مجرد تغيّر الفاعل أو المفعول

٦- لقد رفعه الفتى على عينيه ورأسه. (أي: أكرمه وأحسن استقباله. مجازي)

٧- لقد رفعه الفتى على كفيه. (أي: دلّله واعتنى به كثيراً. مجازي)

٨- لقد رفع الفتى الحراسة. (أي: أنهى المراقبة أو الحصار. مجازي)

أدى إلى تغيير تام في المعنى.^٨ والمقصود أنه حين نسمع الجملة "اس
نے آسمان سر پر اٹھا لیا ہے" (لقد رفع السماء على رأسه)، (لقد رفع
الأمّعة على رأسه) أنه فلن نفهم من ذلك - بالقياس إلى قولنا "اس
نے سامان سر پر اٹھا لیا ہے" وضع السماء على رأسه كما توضع
الأمّعة، لأنّ الأسلوب هنا مجازي لا حقيقي. وبالمثل، إذا سمعنا قولهم
"الله نے لڑکے کو اٹھا لیا ہے" (لقد رفع الله الغلام)، فلن نفهم أنّ
الله نقله حيّاً إلى السماء، بل إنّ معنى ذلك أنّ الله أمّاته. فإن قال
قائل: "لكن في الجملة "ماں نے لڑکے کو اٹھا لیا ہے" (الأم رفعت
الغلام) استعمل الفعل نفسه والأسلوب نفسه، ومع ذلك يُراد به أنّها
حملته حيّاً في حجرها فالجواب: إنّ هذا الاعتراض لا صلة له بعلم
اللغة والبيان، لأنّ اختلاف المقام والسياق هو الذي يحدّد المعنى، لا
محجّز التماثل في الألفاظ والتركيب.

ثالثاً: من المسلم به في اللغة أن فعل "توفى" يتغيّر معناه بحسب
الفاعل والمفعول وقد ذكر صاحب معجم "أقرب الموارد" أن له
أربع نسب (علاقات) رئيسية يتغير بها معنى هذا الفعل.

^٨ أي: إذا اختلفت الصلّة (المتعلّق بالفعل) ظهر مزيد من التنوّع في الدلالات
ويمكن إدراك ذلك بالتأمّل في أساليب مثل: "أبقاه مرفوعاً"، "رفعه"، "أزاله
بالرفع" إذ يبيّن اختلاف التركيب تغاير المعنى ودقائقه.

منها:

١- إذا جاء مع أمر مفعولاً فيكون معناه: "أخذ الشيء وافيًا" أو "أخذه بالكامل"، أي: القبض التام على الشيء:
"توفى حقه توفياً: أخذه وافيًا. ويقال توفيت من فلان ما لى عليه".^٩

٢- إذا كان لفظ المدة يقع مفعولاً به فإن المعنى يكون: بلوغ المدة إلى غايتها أو استكمالها تماماً:
"توفى المدة: أي بلغها واستكملها".^{١٠}

وعليه يكون معنى العبارة: أنه وصل إلى نهاية المدة أو أتمها كاملة.
٣- وإن جاء مفعوله عدد القوم يراد به استيعاب عدد القوم كلهم فقد جاء:

"توفى عدد القوم: عددهم كلهم".^{١١}
٢- وإذا كان فاعل فعل التوفي هو الله يكون المعنى أن أماته الله وقبض روحه فقد جاء:
"توفى الله زيدًا: قبض روحه (تُوفِّي) فلان مجهولاً: قبضت روحه

^٩ ص ١٤٧٢.

^{١٠} ص ١٤٧٢.

^{١١} ص ١٤٧٢.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

ومات. فالله المتوفى والعبد المتوفى.^{١٢}

وعبارة أقرب الموارد تامة هي كالتالي:

"(توفى) حقه توفياً: اخذه وافياً، مطاوع وفي ويقال 'توفيت من فلان ما لي عليه' والمدة: بلغها واستكملها وعدد القوم: عدتهم كلهم وفي التاج عدتهم لهم والله زيداً: قبض روحه (تُوفِّي) فلان مجهولاً: قُبِضَتْ روحه ومات فالله المتوفى والعبد المتوفى.^{١٣}

رابعاً، ففي هذه الخلفية انظر عبارة في الآية التالية:

﴿...يُعِيسَى اِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ اِلَى﴾.^{١٤}

في عبارة ﴿اِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ يتّضح جلياً أن الفعل المستخدم هو "توفى"، وفاعل هذا الفعل هو الضمير المتكلم "إني" الذي يعود إلى الله تعالى، في حين أن المفعول به هو الضمير المخاطب "ك" الذي يعود إلى السيد المسيح عليه السلام. أي أن فعل "توفى" صادر من الله وينطبق على إنسان، هو المسيح عليه السلام. وفي هذه الحالة، لا يمكن أن يحمل هذا الفعل أي معنى آخر غير قبض الروح، والذي هو نتيجة حتمية للموت. ومن ثم، من الناحية اللغوية والبيانبة في اللغة العربية، لا يمكن أن يُفهم من هذه العبارة أي معنى سوى وفاة السيد المسيح عليه

^{١٢} ص ١٤٧٢.

^{١٣} ص ١٤٧٢.

^{١٤} آل عمران ٣: ٥٥.

السلام.

خامساً، إن نظائر هذه العبارة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تؤكد أن فعل "توفى" عندما يُنسب إلى الله تعالى ويكون متعلقه إنساناً، فإن معناه يكون قبض الروح. ولا يمكن تقديم مثال واحد من القرآن أو الحديث يخالف هذه القاعدة اللغوية البينانية. وستُذكر هذه النظائر في الصفحات القادمة.

أمثلة من القرآن على أن معنى توفي هو قبض الروح

لقد استعمل فعل "توفى" في القرآن الكريم في مواضع عديدة، ويُفهم منه في بعض السياقات معنى قبض الروح. ويمكن تصنيف استعماله في أربع صور:

١- "توفى" كفعل منسوب إلى الله تعالى.

٢- "توفى" كفعل منسوب إلى الملائكة.

٣- "توفى" بمعنى الموت.

٤- "توفى" بصيغة المجهول (توفى ويُتوفى).

لكن قبل دراسة الآيات التي ورد فيها هذا الفعل بهذه الصور المختلفة، من الضروري أن نفهم ما هي الموت؟ أي ما هو الحدث أو الظاهرة أو

المرحلة التي تُسمى موتاً، أو التي تفضى إلى الموت؟
القرآن الكريم قد أجاب عن هذا السؤال بكل وضوح، كما جاء في
سورة الزمر:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ
الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^{١٥}

وهذا يعني أنه عندما يقع "توفي النفس" من قبل الله، أي قبض الروح،
فإن الموت قد وقع. فكأن الموت هو نفسه "توفي النفس"، و"توفي النفس"
هو نفسه الموت. وبالتالي، فعندما يُقال "مات"، فالمقصود أن "توفي
النفس" قد حدث^{١٦} وعندما يُقال "توفي النفس"، فالمقصود أن الموت
قد وقع.

وبعد هذا التوضيح، إليك الآن شواهد من القرآن الكريم تُبين أن

^{١٥} ٣٩: ٤٢.

^{١٦} إذا أخذت بعين الاعتبار هذه التعريفات التي قررها القرآن لـ(توفي النفس)،
فإنه ينبغي أن نفهم عبارة سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ على أن المقصود
بها هو (توفي النفس) أيضاً. وعلاوة على ذلك، من الضروري أن ننتبه إلى
أن الألفاظ التي وردت في القرآن بصيغ مثل: نَتَوَفَّيْكَ، يَتَوَفَّاكُم، تَوَفَّنَا،
وَتَوَفَّنِي، جاءت جميعها مقرونةً بضمائر مختلفة تشير إلى الأنفس البشرية.
فمثلاً، عبارة يَتَوَفَّاكُم معناها هو يَتَوَفَّى نَفُوسَكُمْ أو يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ.

"تَوْفَى" بمعنى الموت:

١- فعل "تَوْفَى" باعتباره فعلاً لله تعالى

في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ورد فعل "تَوْفَى" باعتباره فعلاً من أفعال الله تعالى، أي أن تركيب الجمل يكون بحيث يكون الله تعالى هو الفاعل والإنسان هو المفعول. وقد وردت هذه الصيغة في العبارات أو التراكيب التالية:

- تَتَوَفَّيَنَّكَ: (أيها النبي) نحن نميتك.
- يَتَوَفَّاكُم: هو (الله) يميتكم.
- تَوَفَّيْنَا: (ربنا) أميتنا^{١٧}
- تَوَفَّيْ: (رب) أميتني.

في جميع هذه الأساليب، استعمل فعل "تَوْفَى"، وتركيب الجمل يجعل الله تعالى هو الفاعل والإنسان هو المفعول. وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: في سورة يونس (١٠: ٤٦-٤٧)، وسورة الرعد (١٣: ٤٠)، وسورة المؤمن (٤٠: ٧٧)، خُوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل له: إن قريشاً إذا أصرّت على تكذيب رسالتك، فسينزل عليهم في الدنيا

^{١٧} وإن كان هذا التعبير صادراً من الإنسان، فإن إسناد فعل 'تَوْفَى' فيه أيضاً إلى الله تعالى".

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

نفس العذاب الذي يُعدّ تمهيداً لعذاب الآخرة، والذي ينزل حتماً -
وفق سنّة الله - على مكذّبي الرسل. وهذا وعد من الله، فهو ثابت لا
يتبدّل.

ويُفهم من التاريخ القرآني للرسل أن لهذا العذاب صورتين:

- الصورة الأولى: أن يقع في حياة الرسول نفسه، كما حدث
مع فرعون وجنوده الذين أُغرقوا في حياة موسى عليه السلام.
- الصورة الثانية: أن يُنزل الله عليهم العذاب بعد وفاة الرسول،
كما حدث مع بني إسرائيل، إذ بدأ نزول العذاب عليهم بعد وفاة المسيح
عليه السلام.

وفي الآيات المذكورة، أُشير إلى هذين الاحتمالين في حق قريش -
قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي من الممكن أن يظهر جزء
من هذا العذاب في حياته صلى الله عليه وسلم، ومن الممكن أن يُهلهم
الله حتى بعد وفاته ثم يُنزل بهم العقاب.

وقد وردت في هذه المواضع الثلاثة عبارة ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، أي: "نحن
نُمتّيك". وفعل "توفّى" هنا ورد في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم،
والله تعالى هو الفاعل فيه.

وقوله تعالى:

﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ "نحن نُمتّيك"

يدل بوضوح على أن الوفاة المقصودة هنا هي الوفاة الحقيقية، أي

الموت، وليس شيئاً آخر.

كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا نُزْيَتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ
بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{١٨}

﴿وَإِنْ مَا نُزْيَتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلُغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^{١٩}

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ
نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾^{٢٠}

كتب الأستاذ الجليل في توضيح هذا الأمر ما يلي:

"هذا يشير إلى تلك السنة الإلهية التي جعلت للمكذبين من
أقوام الرسل. وفي العادة، لا تخرج عن صورتين اثنتين. وقد وردت
أمثلة للصورة الأولى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم. وأما الصورة
الثانية، فمثالها بنو إسرائيل، الذين بدأ سوط العذاب ينهال على
ظهورهم بعد أن فارق المسيح عليه السلام هذه الدنيا."^{٢١}

ب- وردت عبارة ﴿يَتَوَفَّيْكُمْ﴾ في سورة النحل (١٦)، الآية ٧٠ وسورة

^{١٨} يونس ١٠: ٢٤-٢٦.

^{١٩} الرعد ١٣: ٤٠.

^{٢٠} المؤمن ٢٠: ٤٤.

^{٢١} البيان ٤ / ٣٨٢.

يونس (١٠)، الآية ١٠٤. ومعناها: "إن الله تعالى هو الذي يُميتكم".
في سورة النحل، جاء هذا البيان لتأكيد أن الحياة والموت بيد الله وحده. فهو الذي خلق الإنسان، وهو الذي يُنهي حياته بالموت. وسواء جاء هذا الموت في الطفولة أو في الشباب أو في الشيخوخة، فإن توقيته مرهون بإرادة الله. طول الحياة أو قصرها مرتبط بمشيئته سبحانه.

أما في سورة يونس، فقد تم إبراز هذه الحقيقة نفسها من خلال خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، لتوضيح أن الذي يُميتكم هو الله، فأنتم مسؤولون أمامه وحده.

وفيما يلي نص الآيتين:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.^{٢٢}
وقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهَ ۚ فَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.^{٢٣}

ج- ورد هذا الفعل ﴿تَوَفَّنَا﴾ في سورتي آل عمران (٣) والأعراف

^{٢٢} النحل ١٦: ٧٠.

^{٢٣} يونس ١٠: ١٠٤.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

(٢) بصيغة الدعاء. ومعناه: (ربنا آتنا الوفاة).

في الآيات ١٩٠ إلى ١٩٤ من سورة آل عمران، يصف القرآن حال أولي الأبصار الذين، عند سماعهم دعوة رسول الله، يقابلونها بكل جدية وإرادة صادقة، فيستجيبون لها دون تردد. هؤلاء لا يجادلون كالفهاء ولا يطالبون بالآيات والمعجزات، بل يرفعون أكفهم إلى ربهم يسألونه المغفرة، ويرجون أن يختم حياتهم في صحبة عباده الأوفياء.

وقد نقل القرآن دعاءهم بهذه الكلمات:

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.^{٢٤}

ورد في سورة الأعراف (٧) تفصيل المواجهة بين نبي الله موسى عليه السلام وسحرة فرعون، حيث يُبين أنه لما تبين الحق للسحرة وآمنوا بموسى عليه السلام، صاح فرعون قائلاً: أتؤمنون به قبل أن آذن لكم؟ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة... ثم توعدهم فقال: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبكنم أجمعين.

فكان جوابهم بكل عزم وثبات: "فاقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا، إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى".

^{٢٤} آل عمران ٣: ١٩٣.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

ثم توجهوا إلى الله بالدعاء أن يرزقهم الصبر والثبات في هذا الابتلاء، ويسلّمهم إليه وهم ثابتون على الإسلام، فقالوا: "ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّقنا مسلمين". كما قال تعالى:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ وَ مَا نَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَن آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوْفّقْنَا مُسْلِمِينَ﴾^{٢٥}

د- في سورة يوسف (١٢)، الآية ١٠١، وردت عبارة ﴿تَوْفّقْنِي﴾، أي: "ربّ أمتني"، وذلك في سياق دعاء من النبي يوسف عليه السلام. وقد جاءت هذه الدعوة في لحظة مؤثرة حين سجد له والداه وإخوته، فتحققت بذلك رؤياه في طفولته، التي رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون له.

في هذا المقام العظيم، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، دعا يوسف عليه السلام ربه بأن يمّيته وهو على الإسلام، أي على حال الإيمان والطاعة. وكانت كلماته كما وردت في القرآن: ﴿تَوْفّقْنِي مُسْلِمًا وَ الْحَقّقْنِي بِالصّٰلِحِينَ﴾ أي: اجعل ختام حياتي على الإسلام، وقربني في الآخرة من عبادك الصالحين. ونص الآية:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ ۚ أَنْتَ وَلِيّٰ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ ۚ تَوْفّقْنِي مُسْلِمًا وَ الْحَقّقْنِي بِالصّٰلِحِينَ﴾.

^{٢٥} الاعراف ٢: ١٢٥ - ١٢٦.

II - ﴿تَوَفَّى﴾ كفعل للملائكة

إن إماتة البشر فعلٌ من أفعال الله، غير أن الله تعالى في العادة يُجري هذا الأمر بواسطة ملائكته؛ ولذلك جاء فعل "توفى" في القرآن الكريم أحياناً منسوباً إلى الملائكة أيضاً. وفي جميع هذه المواضع يكون معناه قبض الروح، أي الموت.

١- ففي الآية ٦١ من سورة الأنعام ورد ذكر هذا الفعل الذي يقوم به أعوان القضاء والقدر. فقد بين الله أنه عندما يُقدَّر موت إنسان ما، فإنه يرسل رسله (أي الملائكة) لقبض روحه. وهؤلاء الأعوان يؤدون هذا العمل بكل أمانة، ولا يقصرون فيه بحال. قال تعالى:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾^{٢٦}

الملائكة هم المكلفون بهذا الأمر، ولذلك سَمَّى القرآن الكريم المَلَك الذي يقبض الأرواح ملك الموت. وقد ورد في سورة السجدة قوله تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^{٢٧}

ب- في الآية ٩٧ من سورة النساء، ورد ذكر أولئك المنافقين والمتذرعين

^{٢٦} الأنعام ٦: ٦١.

^{٢٧} السجدة ٣٢: ١١.

بالأعذار الذين يعيشون في دار الكفر، حيث إنهم قبلوا حياة الكفر، لكنهم لم يقبلوا الهجرة. فهم يرضون بمعصية الله، ولكنهم غير مستعدين لتترك ديارهم من أجل العمل بدين الله. وعندما تقبض الملائكة أرواحهم، تقول لهم: الآن تصطنعون عذر العجز؟ ألم تكن أرض الله واسعة لتهاجروا من منطقتكم إلى منطقة أخرى؟ قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ج- وقد ذلك في الكفار أيضا:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.^{٢٨}

ج- في الآية ٢٧ من سورة محمد (٤٧)، يُنذِر الله تعالى منافق قريش بعاقبتهم. فقد بين أنه إذا استمروا على هذا السلوك المنافق، فلن يكون ذلك اليوم ببعيد، حين يقبض الملائكة الشداد أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وظهورهم. قال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

سيكون حال أولئك الذين تلوثوا برجس الشرك واستمروا في دعاء غير الله عبدة مماثلة. فعندما تأتي الملائكة لتقبض أرواحهم، سيغمرهم

اليأس والقنوط، ولن يكون أمامهم من خيار إلا أن يعترفوا بكفرهم بالسنتهم. وقد ورد في سورة الأعراف. قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ ۖ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^{٢٩}

د- وفي الآية ٢٨ من سورة النحل، جاء ذكر حال كفار قريش أيضاً، إذ قيل وبُيِّنَ أنه حينما تأتيهم ملائكة الله، سيختلقون أعذاراً كاذبة، ويتوسلون قائلين: «ما كنا نعمل من سوء». فترد عليهم الملائكة: «بلى، إن الله عليم بما كنتم تعملون». ثم تقبض أرواحهم. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَالْقُوا السَّلَامَ ۖ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۖ بَلَىٰ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ويتضح من الآيات التالية في هذا السياق أن مسألة قبض الأرواح بواسطة الملائكة لا تقتصر على الكفار والمشركين والمنافقين وسائر المجرمين فحسب، بل إنّ أرواح الأطهار والمؤمنين أيضاً تُقبض من قبلهم. والفرق هو أن الملائكة، عند قبض أرواح هؤلاء، يوجهون إليهم كلمات السلام ويبشرونهم بالجنة. وقد جاء في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۖ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ ادْخُلُوا

الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾

iii- "تَوَفَّى" باعتباره فعلاً للموت

يُستعمل فعل "تَوَفَّى" أحياناً على هذا النحو أيضاً، بحيث تكون الموت هي الفاعل له. وليس هذا خاصاً باللغة العربية فقط، بل هو أسلوب معروف في كل اللغات أن يأتي فعل أو صفة أو حادثة ما في الجملة على هيئة فاعل. كما نقول في لغتنا (الأردية) مثلاً:

- حَلَّتْ به الكارثة.
- أَحَاطَتْ به المصائب.
- اسْتَوَلَى عليه الخوف.
- غلبه النوم.
- أَصَابَتْه المرض.
- قَتَلَتْه الفاقة.
- أَدْرَكَه الموت.

وقد ورد في سورة النساء (٤)، الآية ١٥، قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾، ومعناه: "حتى تدركهنّ الوفاة". وقد وردت هذه العبارة في حق النساء الزانيات المتمرسات، حيث أُمِرَ بحبسهنّ في بيوتهنّ حتى

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

يقعن فريسة الموت، أو يُنزل الله في شأنهنّ حكماً آخر.^{٣١} فقد جاء في الآية:

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

iv- صيغة "توفّي" بصيغة المجهول (يُتَوَفَّى)

وردت كلمة "توفّي" في القرآن الكريم أيضاً بصيغة المضارع المبني للمجهول،^{٣٢} كما في سورة الحج (٢٢) وسورة المؤمن (٤٠) بصيغة ﴿يُتَوَفَّى﴾، وفي سورة البقرة (٢) بصيغة ﴿يَتَوَفَّوْنَ﴾.

ومعاني هذه الألفاظ بحسب الترتيب هي: "يُتَوَفَّى": أي "يقبض أو تُؤخذ روحه"، "يَتَوَفَّوْنَ": أي "يقبضون أو تُؤخذ أرواحهم".

ووفقاً للعرف اللغوي العربي، فإن الفاعل في مثل هذه الجمل - رغم كونها في صيغة المبني للمجهول - يكون هو الله تعالى، وإن لم يُذكر صراحة بسبب الأسلوب المجهول.

وفي هذا الأسلوب أيضاً تُستعمل هذه الألفاظ بمعنى الموت. وفيما

^{٣١} ثم لما نزل قانون عقوبة الزنا، نُسخ هذا الحكم. وهذا القانون مذكور في الآيات الأولى من سورة النور (٢٤).

^{٣٢} لا يذكر الفاعل في صورة إتيان الفعل مجهولاً وينوب منابه المفعول.

يلي المواضع التي وردت فيها هذه الصيغة في القرآن الكريم:

١- سورة الحج (٢٢): الآية ٥، وسورة المؤمن (٤٠): الآية ٦٧، حيث ذكرت فيها مراحل حياة الإنسان في الدنيا، فبين الله تعالى أنه بعد خلق الإنسان، يتولى تربيته ونمائه. فبعض الناس يقبضون في الطفولة، وبعضهم يتوقفون في الشباب، وآخرون في الشيخوخة. وكل واحد منهم له أجل محدد، لا مفر لأحد منه. وكما أن هذه الموت لا بد أن تقع، فكذلك القيامة لا بد أن تأتي، ولا يستطيع أحد أن يمنعها. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَازَتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٣٣﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا ۖ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى مِن

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.^{٣٤}

ب- وفي سورة البقرة، الآية ٢٣٤، قد ذكر حكم عدّة النساء اللاتي تُوفي عنهن أزواجهن، وقد ورد فيها فعل ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ معنى "يموتون" أو "يتوفاهم الله"،

وهو كما في الآية:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾.

وجاء في الآية رقم ٢٣٤ من سورة البقرة:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقد جاء في الآية رقم ٢٤٠:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

^{٣٤} المؤمن ٤٠: ٦٧.

توفي بمعنى قبض الروح: أمثلة من الحديث النبوي

كلمة "تُؤْفَى" قد استُخدمت مرارًا وتكرارًا في الأحاديث النبوية بمعنى الموت وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك.

وفي هذا السياق، فلنبدأ أولاً بتلك الرواية التي استعمل فيها فعل "تُؤْفَى" للدلالة على وفاة عيسى عليه السلام^{٣٥} وقد وردت هذه الرواية في سنن أبي داود، ونصها كالآتي:

"عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس بيني وبينه يعني عيسى عليه السلام نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون." ^{٣٦}

وقد استعمل أنس بن مالك رضي الله عنه لوفاة النبي صلى الله

^{٣٥} فكل الشارحين عنوا هنا الموت بهذا اللفظ الذين فسروه بمعنى الأخذ التام في آية آل عمران قيد البحث.

^{٣٦} رقم ٤٣٢٤.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

عليه وسلم تعبير: وتوفاه الله على رأس ستين سنة كما رواه البخاري:
"عن أنس بن مالك رضي الله عنه... بعثه الله على رأس أربعين
سنة، فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على
رأس ستين سنة." ٣٧

وفي رواية للبخاري، تم نقل الواقعة عندما جاء علي وعباس رضي
الله عنهما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشأن مسألة ترك النبي
صلى الله عليه وسلم. في هذه المناسبة، ذكر عمر بن الخطاب رضي
الله عنه وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله
عنه، مستخدماً الفعل 'توفي':

"قال لعلّي وعباس: أنشدكما بالله، هل تعلمان ذلك؟ قالوا: نعم،
ثم توفي الله نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: أنا ولي رسول
الله، فقبضها أبو بكر يعمل فيها بما عمل به فيها رسول الله صلى
الله عليه وسلم وانتما حينئذ. وأقبل على علي وعباس، تزعمان أن
أبا بكر كذا وكذا والله يعلم إنه فيها صادق بار راشد تابع للحق، ثم
توفي الله أبا بكر." ٣٨

وقد جاء في حديث أخرجه ابن ماجة لفظ "توفي الله" بمعنى الوفاة
لآدم عليه السلام:

٣٧ رقم ٥٩٠٠.

٣٨ رقم ٥٣٥٨.

———— إشكاليات واردة على موقف غامدي ————

"عن أبي لبابة بن عبد المنذر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله... خلق الله فيه آدم وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض وفيه توفي الله آدم.^{٣٩}"

في رواية من سنن البيهقي، ذكر الصحابي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد لفترة طويلة لدرجة أنهم ظنوا أن الله قد توفاه. في هذه الرواية، جاء لفظ 'توفي' بمعنى الوفاة مرتين. الرواية هي:

"عن عبد الرحمن بن عوف قال: ... فاستقبل القبلة فسجد فأطال السجود وأنا وراءه حتى ظننت أن الله تعالى توفاه فأقبلت أمشي حتى جئته فطأطأت رأسي أنظر في وجهه فرفع رأسه، فقال: ما لك يا عبد الرحمن؟ فقلت: لما أطلت السجود يا رسول الله، خشيت أن يكون الله قد توفي نفسك."^{٤٠}

استخدام صيغة "توفي" في معنى النوم

إن الآيات والأحاديث المذكورة أعلاه قد أوضحت تماماً أن الفاعل في "توفي" إذا كان الله تعالى والمفعول إنسان، فإن معناه يكون قبض الروح أي الموت، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون لهذه الفعل معانٍ أخرى. وقد أثبتت هنا إشكالية بأن هناك موضعين في القرآن الكريم

^{٣٩} رقم ١٠٨٤.

^{٤٠} رقم ٣٩٣٦.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

يأتي فيهما فاعل "توفى" هو الله تعالى والمفعول إنسان، ومع ذلك فإن هذه الفعل لم يأت بمعنى الموت. بل على العكس تم استخدامها بمعنى النوم، وهو اسم لحالة من الحياة. وهذه المواضع هي كما يلي:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾^{٤١}
﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾^{٤٢}

ولكن هذا ليس صحيحاً في نظرنا أن هذه الكلمة قد استخدمت هنا بمعنى النوم، أبداً. بل تم استخدام هذه الكلمة هنا بنفس المعنى الذي استخدم في آل عمران وغيرها من المواقع المذكورة. أنظر، لقد أوضحنا أن فعل 'توفى' عندما يأتي بهذه الصورة حيث يكون الفاعل هو الله والمفعول هو الإنسان فإن معناه هو قبض الروح. الموت أو النوم هما نتيجتان مختلفتان لعملية قبض الروح. بمعنى آخر، فإن 'توفى' في هذا الأسلوب ليس بمعناه المباشر موت، بل هو نتيجة. معناه الحقيقي هو قبض الروح.

من السورتي الأنعام والزمر يتضح أن الروح تأخذ في كل من الموت والنوم وتذهب إلى تصرف الله تعالى وقبضته.^{٤٣} الفرق هو أنه في حالة

^{٤١} الانعام ٦: ٦٠.

^{٤٢} الزمر ٣٩: ٤٢.

^{٤٣} ما هي طبيعة قبض الروح في لحظة النوم، لا يمكننا معرفتها، الله وحده يعلم ذلك. كل ما قيل لنا هو أن الروح تقبض في تلك اللحظة بنفس الطريقة

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

النوم تُعاد الروح ويستيقظ الإنسان، بينما في حالة الموت لا تُعاد الروح ولا يستيقظ الإنسان إلى الأبد.^{٤٤} هذا الفرق بين اليقظة وعدم اليقظة هو من منظور مشاهدتنا. حقيقته من الأمور المتشابهات، ولذلك فهي تتجاوز فهمنا وإدراكنا.

ملخص هذا التفصيل هو أنه عندما تأتي 'توفى' كفعل من الله تعالى، يجب أن يكون معناها الوحيد هو قبض الروح. ومع ذلك، سيكون تطبيقها من حيث النتائج على صورتين مختلفتين: واحدة للموت والأخرى للنوم. إذن 'توفى' بمعنى قبض الروح لها صفة مشتركة في كلا الحالين. بسبب هذه المشاركة، يتم أحياناً استخدام كلمة النوم للموت وكلمة الموت للنوم. وهذا ليس مجرد اشتراك في المفهوم أو الظاهر، بل هو أيضاً اشتراك في حقيقة الواقع. في دعاء الصباح الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم، جاءت كلمات الموت للنوم على هذه القاعدة: "الحمد لله الذي أحياناً بعد ما أماتنا وإليه النشور."^{٤٥}

لذا عندما تأتي 'توفى' للنوم، فإنه ليس من الصحيح اعتبارها استخداماً مجازياً للموت. بل هو الاستخدام الحقيقي لهذه الكلمة، والتي تعني قبض

التي تقبض فيها عند الموت.

^{٤٤} نعم الروح التي تقبض في النوم ترجع بعد مدة، وأما الروح التي تقبض عند الموت فترجع يوم القيامة.

^{٤٥} البخاري، رقم ٦٣١٢.

الروح. يمكن فهم هذا من خلال استخدام كلمة 'أَحْيَاءُ' في الآيات التالية من سورة البقرة وسورة آل عمران:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.^{٤٦}

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.^{٤٧}

في هذه الآيات جاء لفظ «أَحْيَاءُ» لمن يقتلون في سبيل الله، أي أنهم أحياء. هنا، معناها المعروف هو نفسه الذي نستخدمه لكلمة الحياة. يعني أنه من غير الصحيح استنتاج أن المعنى الآخر لكلمة "أحياء" هو الحياة، والمعنى الثاني هو عدم الحياة. الفرق بين الحياة العادية وحياة الشهيد ليس في كونه حياً أو ميتاً، بل في نوعية وطبيعة الفهم والمشاهدة لدينا.^{٤٨} نحن نستطيع أن نفهم حقيقة موت معينة إلى حد ما، لكننا لا

^{٤٦} البقرة ٢: ١٥٢.

^{٤٧} آل عمران ٣: ١٦٩.

^{٤٨} على سبيل المثال، فإن كلمات "الحياة" سواء استُخدمت للحيوانات أو للنباتات، فإن معناها ومفهومها متطابق تماماً. الفارق بين الحيوانين الذي يُحدّد بناءً على التجربة والملاحظة يتعلق بالنوع والخصائص. لا علاقة لكلمة بمعناها المستعمل.

نستطيع فهم الحقيقة الأخرى.^{٤٩}

هذه طريقة معروفة في أساليب اللغة والتعبير، حيث تبقى أحياناً على المعاني المستعملة الأساسية بينما تقدم فائدة فهم إضافي. في هذه الحالة، يكون معناه الظاهر هو نفس المعنى المعروف، لكن المعنى المقصود قد يكون مجازياً. انظر إلى بيتين من شعر العلامة إقبال كمثال:

جس میں نہ ہو انقلاب، موت ہے وہ زندگی
روحِ اُم کی حیات کشمکش انقلاب
چمن زارِ محبت میں خموشی موت ہے بلبل
یہاں کی زندگی پابندیِ رسمِ فغاں تک ہے

"الحياة التي لا يوجد فيها انقلاب فهي الموت فقط لأن روح الأمم
تحى في صراع الانقلاب.

في بستان الحب، الصمت هو موت يا بلبل! الحياة هنا مقيدة
بتقاليد الصراخ لاغير."

في البيت الأول، عبر إقبال عن الحياة بدون ثورة بأنها موت، بينما
في البيت الثاني اعتبر الصمت موتاً. بناءً على ذلك، من غير الصحيح

^{٤٩} وقد تم توضيح هذا الأمر أيضاً في قوله: ﴿ولكنكم لا تشعرون﴾، مما يدل
على أنكم لا تفهمون حقيقة تلك الحياة.

استنتاج أن للموت معنى واحدًا هو الصمت وآخر هو حياة تفتقر إلى الثورة. يعرف كل دارس للأدب أن الموت هنا قد استخدم بمعناه المعتاد، لكن الشاعر شبهه بالموت لتسليط الضوء على السكون والجمود الناتج عن عدم التغيير.

يتضح من هذا التفصيل أنه عندما يكون الفاعل هو الله والمفعول هو الإنسان، فإن المقصود هو قبض الروح، وينطبق ذلك على حالتين مختلفتين - الموت والنوم. الآن السؤال هو أن النوم والموت هما حالتان مختلفتان. عندما تقع حالة معينة، تظل الحياة قائمة، وعندما تقع الحالة الأخرى، تنتهي الحياة. في هذا السياق، كيف يمكن تحديد الحالة المقصودة من عبارة 'توفي الله نفسه' (الله قبض روحه)؟ الجواب على هذا السؤال هو أن هذا يتوقف على قرائن الجملة أو الكلام. يتم تحديد ما إذا كان الكلمة وردت بمعناها الحقيقي أو مجازيًا أو استخدمت كمصطلح بناءً على أدلة الجملة.

بهذا الشكل، يتم تحديد المعاني التي اختارها المتكلم من بين معاني الكلمة المختلفة من خلال القرائن الموجودة في الكلام. هذه القرائن والأدلة موجودة في الجملة أو في سياقها، وتحدد المعنى النهائي بشكل كامل. وبالتالي، لا يواجه القارئ صعوبة في معرفة ما يقصده المتكلم. في الآيات المذكورة من سورة الزمر وسورة الأنعام، فإن القرائن التي خصصت فعل 'تَوَفَّى' بالنوم هي كلمات 'فِي مَنَامِهَا' و'بِالَّيْلِ'. بالإضافة

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

إلى ذلك، يشير سياق الجملة وأسلوبها إلى أنه لا يمكن أخذ أي معنى آخر غير النوم هنا.



٢ - «إني متوفيك»: من منظور تفسير

المولانا الإصلاحي

إن معلم أستاذنا جاويد أحمد غامدي الأستاذ الإمام أمين أحسن إصلاحي لم يحمل لفظ "توفّي" في الآية المذكورة من سورة آل عمران على معنى قبض الروح أو الموت، بل فسّره بمعنى "الأخذ بالكامل". ولذلك، فهو لا يقول بوفاة المسيح عليه السلام، بل يرى أن موقف جمهور العلماء -الذي يقول بأن الله تعالى رفع المسيح عليه السلام حيّاً إليه- هو الموقف الصحيح.

ولإثبات رأيه، لم يكتفِ بشرح معنى "توفّي"، بل قدّم أيضاً أدلة وسياقات إضافية تدعم فهمه للآية. ويمكن تلخيص هذه الأدلة في النقاط التالية:

١- "توفّي" في أصل اللغة لا تعني الموت، بل تعني "الأخذ بالكامل"، أي الاستيفاء التام.

٢- أما الموت فهو معنى مجازي يُستخدم للفظ "توفّي"، وليس المعنى

الحقيقي.

٣- القرائن السياقية هي التي تحدد هل أريد باللفظ معناه الحقيقي (الأخذ بالكامل)، أو معناه المجازي (الموت).

٤- وتوجد عدة قرائن في الآية وسياقها تمنع من حمل "توفّي" على معنى الموت، منها:

أولاً: الآية وسياقها تتحدث عن بشارة إلهية ونصر ربّاني، فلو فسّرت "توفّي" بالموت، لفقدت الآية هذا المعنى الإيجابي، وصارت تعني أن اليهود نجحوا في قتل المسيح، في حين أن نص الآية يقرّر أن الله أبطل مكيدتهم، ورفع المسيح إليه. لذلك، فإن أسلوب الكلام وسياقه يؤيدان الرفع الحي ولا ينسجمان مع معنى الموت.

ثانياً: إذا فسّرت "توفّي" بالموت، فإن عبارة ﴿رافعك إلى﴾ تفقد معناها. فالموت وحده كان كافياً لإتمام المعنى، ولا حاجة لإضافة ﴿رافعك إلى﴾. أما إذا فهمنا "توفّي" بمعنى الأخذ الكامل، فإن "رافعك إلى" تصبح منسجمة تماماً مع السياق، وتؤكد هذا "الأخذ".

ثالثاً: لا شك أن فعل "رفع" قد يُستخدم مجازاً لرفع الدرجات، ولكن عندما يُراد به هذا المعنى في القرآن، لا يأتي معه حرف الجر "إلى". أما في هذه الآية، فقد جاء بصيغة ﴿رافعك إلى﴾، مما يدل على رفع حسي ومكاني لا معنوي فقط. ولو أريد به رفع المنزلة، لكان حرف "إلى" زائداً عن الحاجة، وهذا لا يليق بأسلوب القرآن المعجز.

رابعاً: في سورة النساء، حين عالج القرآن نفس القضية، لم يرد لفظ "تَوَفَّى" أصلاً، بل قال: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، مما يدلّ على أن المراد في آل عمران أيضاً هو الرفع الحَيّ لا الموت. يضاف إلى ذلك أن القرآن نفى بشكل واضح قتل المسيح وصلبه، وهذه النفي تتضمّن أيضاً نفى وفاته، لأنه لا يمكن نفى القتل وفي نفس الوقت القول بموته الطبيعي. وبهذا، يتبين أن موقف الأستاذ الإمام أمين أحسن إصلاحى هو أن المسيح عليه السلام لم يمت، بل رفعه الله حياً إليه، وأن لفظ "تَوَفَّى" لا يُراد به الموت في هذا الموضع، بل يُفهم في ضوء السياق العام للآيات الكريمة على أنه أخذ كامل بمعنى الحفظ والرفع. ونفصل موقفه فيما يلي:

"إِنَّ لَفْظَ (تَوَفَّى) فِي أَصْلِ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يَدُلُّ عَلَى: الْأَخْذِ الْكَامِلِ، أَيْ أَنْ يَأْخُذَ الشَّيْءَ بِأَكْمَلِهِ أَوْ يَقْبِضَهُ إِلَيْهِ تَمَامًا. وَاسْتِعْمَالُهُ بِمَعْنَى الْإِمَاتَةِ لَيْسَ اسْتِعْمَالًا حَقِيقِيًّا، بَلْ هُوَ مُجَازِي. وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالًا حَقِيقِيًّا تَارَةً، وَمُجَازِيًّا تَارَةً أُخْرَى، لَا بَدَّ فِي تَحْدِيدِ مَعْنَاهَا الْمَقْصُودِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى الْقُرْآنِ.

وهنا، هناك قرائن واضحة تدلّ على أن المقصود باللفظ ليس الموت، بل شيء آخر:

أولاً: إن السياق كله هو في مقام البشارة والوعد بالنصرة من الله للمسيح عليه السلام وأصحابه. وهذه سنّة جارية في قصص الرسل، حيث نرى أن الله تعالى إذا همّت أقوامهم بقتلهم، بشرهم الله

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

بحفظه ونصرته. فإذا ألقينا نظرة على الآية هنا، اتضح أنها في سياق
بشارة محضة، فكيف يكون من المناسب أن يُقال فيها: (إني متوفيك)
بمعنى (إني أميتك)؟ هذا القول يتطابق مع رغبة اليهود أنفسهم،
الذين أرادوا قتله، ويكون الفرق فقط في الأداة؛ فالقتل يكون بيد
القدرة بدلاً من أيدي اليهود!

ثانياً: إذا كان المقصود من (متوفيك) هو الموت، فإن ذكر (ورافعك
إليّ) بعده يصير زائداً لا حاجة له. فما الفائدة من أن يُقال: "إني
أميتك وأرفعك إليّ"؟ بل السياق يدلّ على أن عبارة (رافعك إليّ) جاءت
لثبّين المقصود من (توفيك)، أي أن توفيك سيكون على صورة رفعك
إليّ.

ثالثاً: تفسير (رافعك إليّ) بأنه مجرد رفع في المنزلة والدرجة لا
يصحّ؛ لأن في هذه الحالة يكون لفظ (إليّ) زائداً لا لزوم له، وهذا
مما لا يقع في القرآن. فلو كان المقصود رفع الدرجة فقط، لكان كافياً
أن يُقال (رافعك)، دون الحاجة إلى (إليّ). والقرآن الكريم حيثما عبّر
عن رفع الدرجة والمنزلة، عبّر عنه دون إضافة (إلى). خذ مثلاً قوله
تعالى:

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ. (بقره- ٢٥٣)
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ. (اعراف- ١٧٦)
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا. (مريم- ٥٧) ”أي جعلناه في مرتبة عالية وشأن
رفيع، والمقصود إدريس عليه السلام حسب السياق.

٤. تحليل عبارة (رَافِعُكَ إِلَيَّ):

إذا أدي حق حرف "إلى" بدقة، وهو أمر ضروري هنا، فإن معنى الآية "رَافِعَكَ إِلَيَّ" سيكون: "أنا رافعك إليّ بعزة وإكرام". أي ليس مجرد الرفع المكاني، بل رفع إلى مقام القرب والمنزلة عند الله.

٥. الدليل الآخر: القرآن في موضع آخر، حين تناول نفس القضية، حذف لفظ "مُتَوَفِّيكَ" تماماً، وبعد نفي القتل والصلب، أثبت فقط "الرفع": ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النساء: ١٥٨) وهذا قرينة قوية على أن الرفع هو التفسير الحقيقي المقصود بـ"التوفي"، وأن الله تعالى لم يميته حينها، بل رفعه إليه حياً.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. (١٥٧-١٥٨)

"كانت هذه الآية هي الموضع الأنسب والأوضح لبيان كيفية وفاة عيسى عليه السلام، وذلك لأن القرآن في هذا السياق يردّ بشدة وبتوكيد بالغ على أولئك الذين زعموا أنهم قتلوه أو صلبوه. فلو أن وفاته قد وقعت بالفعل، لكان من الطبيعي أن يقول القرآن صراحةً في هذا الموضع: (وما قتلوه وما صلبوه، بل توفاه الله).

لكن المدهش أن القرآن لم يقل ذلك، بل لم يذكر حتى لفظ (توفى)، وإنما استخدم فقط عبارة: (رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ). وأي شخص صاحب ذوق لغوي وبصيرة وتدبر يدرك أنه بعد نفي القتل والصلب، لا مجال كبير لأن يُؤخذ مدلول هذا (الرفع) على أنه موت، أو أن يُحمّل على معنى الوفاة".

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

﴿وَمُظْهَرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: سأفصلك عن هذا المجتمع الفاسد، وأدخلك في زمرة الصالحين والأبرار.

إن سُنَّةَ الله الجارية في حياة الأنبياء عليهم السلام هي أنهم لا يتركون قومهم - التي بُعثوا لإصلاحها - إلا حين تنقطع آمال الهداية منها تماماً. وتحقق هذه الحالة عندما يصل الأمر بالقوم إلى محاولة قتل النبي. عندها، بأمر من الله، يهاجر النبي من بينهم.

وكما أنه بعد مفارقة الروح للجسد، لا يبقى للجسد سوى أن يتعفن ويتحلل، فكذلك بعد رحيل النبي، لا يبقى للمكذّبين به إلا طريق الهزيمة والذل. أما النبي وأصحابه، فإنهم يخرجون من بيئة ملوثة إلى بيئة طاهرة وصحية، ما يؤدي إلى ازدياد قوتهم الروحية وصحتهم الإيمانية. وعلى النقيض من ذلك، يُحرم أعداء النبي من كل مقومات الحياة والنماء، وبدؤون بالاندفاع سريعاً نحو هاوية الهلاك.

فرع المسيح عليه السلام إلى السماء، يُعدّ هو الآخر نوعاً من الهجرة. ولهذا، كما بُشّر جميع الرسل بالنصر بعد هجرتهم، فقد بُشّر المسيح عليه السلام أيضاً بالنجاح والفلاح بعد هذه الهجرة، كما سيتبين في الآيات التالية.^{٥٠}

يرى الأستاذ الجليل السيد جاويد أحمد غامدي، مع كامل الاحترام، أن موقف المولانا أمين أحسن إصلاحياً في هذه المسألة غير صائب.

^{٥٠} تدبر القرآن ٢ / ١٠٣-١٠٥.

وقد بنى الأستاذ نقده على النقاط التالية:

١- لا يصح حمل لفظ "توفّي" هنا على معنى "الأخذ بالكامل" (الإخذ بالتمام). ذلك لأن هذا الفعل، إذا ورد مسنداً إلى الله أو إلى ملائكته، وكان مفعوله إنساناً، فلا بد - بحسب اللغة العربية - أن يفهم بمعنى قبض الروح. وقد ورد هذا التعبير في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وجميعها تشهد لهذا المعنى، وليس من بينها موضع واحد يمكن أن يُحمل فيه على معنى الأخذ الكامل. كما أن هذا المعنى لا تؤيده الأحاديث النبوية ولا الأدب العربي العالى، ولا توجد فيه أي أمثلة تدل على استعماله بهذا المعنى (أي الأخذ الكامل). ولذلك، فعندما يأتي هذا الفعل بهذا الأسلوب (أي أن يكون فاعله الله أو ملائكته ومفعوله إنساناً)، فلا بد من حمله على معنى قبض الروح. وأي تفسير له بغير هذا المعنى يُعد مخالفاً لا لعرف القرآن الكريم فحسب، بل كذلك لعرف اللغة العربية ذاتها.

٢- بما أن لفظ "توفّي" لا يحتمل في هذا السياق إلا معنى قبض الروح، فلا بد أن تفهم سائر العبارات في الآية، مثل قوله: ﴿رَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ و﴿وَمُظَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، في ضوء هذا المعنى القطعى. وبالمثل، يجب أن تُفسر آية سورة النساء (الآية ١٥٨) أيضاً على نفس الأساس والمعيار.

٣- لا شك أن السياق العام للآية يبرز بشارَةً إلهية ونصراً إلهياً.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

وهذه البشارة تجلّت هنا في صورة أن الله تعالى قرر أن يُفشل مخططات اليهود الخفية بخطة إلهية خفية كذلك.

أولاً: أعلن الله عز وجل أنه سيتولى حماية المسيح عليه السلام من أيدي اليهود، فلم يستطيعوا رغم كل جهودهم أن يقتلوه أو يصلبوه. بل قبض الله روحه بنفسه.

ثانياً: حفظ الله جسد المسيح من كل أنواع الإهانة والاعتداء، ورفع له إليه، فلم يقدر أعداؤه أن يمسوه بسوء، ولا حتى أن يؤذوا شعرة من رأسه.

ثالثاً: طمأن الله نبيه عيسى بأنه سينقله من بين هؤلاء الكافرين إلى عالم الصالحين والأبرار، تماماً كما يفعل الله بأنبيائه بعد إتمام الحجة، حيث يأمرهم بمفارقة قومهم المنكرين، ليفتح الباب أمام إنزال العذاب الإلهي على من كفروا.

أما عن البشارة، فقد بيّن الله بوضوح أن أتباع المسيح المخلصين سيظلون غالبين على من أنكروا المسيح، وأن الكافرين به سيكتب عليهم الذل والمهانة إلى يوم القيامة.

هذا خلاصة لموقف الإمام أمين أحسن إصلاحي ومقابله بموقف الأستاذ جاويد أحمد غامدي. ويتضح من هذا أن أبرز دليل على موقف الإمام هو أن الآية وسياقها يُبرزان بشارة من الله ووعداً بالنصر. فلو أخذت كلمة "توفى" بمعنى الموت، لما بقي في هذا الحدث ما يُظهر البشارة

والنصرة، بل على العكس، سيصبح مظهرًا لتحقيق رغبة اليهود.
ونظرًا لأن هذا الاستدلال قد تبناه أيضًا عددٌ من أهل العلم الآخرين،
فمن المناسب أن نُفَصِّل موقف الأستاذ غامدي من هذه الزاوية بشيء
من البيان. وسنوضّحه في النقطتين التاليتين:

١- فيما يخصّ الرسل، فإنّ من سنّة الله تعالى أنه إذا تمّت الحجة
على قومهم، تكون بذلك قد اكتملت المهمة الأساسية للرسول. وبعدها،
يحين وقت الجزاء: العقوبة للمنكرين، والمكافأة للمؤمنين. وفي هذه
المرحلة، يقرّر الله تعالى ما يشاء بشأن حياة الرسول، وفقًا لظروف
قومه. فإن كان من مشيئته أن تقع وقائع الجزاء والعقاب في حياة الرسول
نفسه، يُبقيه حيًّا، وإن لم يكن ذلك مرادًا، يتوقّاه. وقد نبّه الله تعالى
نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى هذه السنّة الإلهية في سورتي "غافر"
و"يونس". قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَأَمَّا نُرْيِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
نَتَوَفِّيكَ ۖ فَالْيَنَّا يُرْجَعُونَ﴾^{٥١}

﴿وَأَمَّا نُرْيِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ ۖ فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾^{٥٢}

كتب الشيخ أمين أحسن الإصلاح في تفسيره لهذه الآية:

^{٥١} المومن ٤٠: ٧٧.

^{٥٢} يونس ١٠: ٤٦.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

"الخطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم. والمعنى أن العذاب الذي يُخَوِّفُونَ به، والذي يتعاملون معه باستخفاف بسبب تأخر وقوعه، بل ويُلْحُونَ عليك استعجالاً به رغبة في إحراجك، قد تقتضى حكمة الله أن يُريهم شيئاً من هذا العذاب في حياتك، وإن لم يحدث ذلك، فإن الله سيتوفاك، ومصيرهم في النهاية إلينا، وعندئذٍ سيعرض الله عليهم كل ما اقترفوه دون نقصان." ٥٣

أما في دعوة عيسى عليه السلام، فقد بلغ هذا المنعطف الحاسم عندما استعدّ بنو إسرائيل تماماً لتنفيذ مخططاتهم ضده. وعند هذا المفصل، قضى الله أن يتوفاه، أي أن يرفع روحه إليه بطريقة خاصة. وقد أعلن الله تعالى نصرته وبشارته له بأنه سيتوفاه، ويُطهّر ذاته الكريمة من المنكرين، ويجعل جزاء بنى إسرائيل على النحو التالي: إن أتباعك - أي النصارى - سيظلون إلى يوم القيامة غالبين على من أنكروك - أي اليهود. قال تعالى:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ ۚ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ سَلِّمْ عَلَيْكَ ۖ وَارْفَعْكَ إِلَىٰ مُطَهَّرٍ ۖ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ٥٤

٥٣ تدبر القرآن ٤/ ٦٠.

٥٤ آل عمران ٣: ٥٤-٥٥.

ب- عندما يَتَمَّ رسول الله الحُجَّة على منكبيه، ويعجزون تماماً أمام دلائله وبراهينه، فإنهم يبدأون في البحث عن وسائل للتخلّص منه. وغالباً ما لا يجدون سوى طريقين لهذا الخبث وسوء الطويّة: إما أن يُبْعِدُوا النَبِيَّ عن أرضهم وينفوه، أو أن يسعوا إلى قتله. القرآن الكريم يبيّن بوضوح أن أقوام الرسل عبر التاريخ تجرّؤوا على سلوك كلا الطريقين. ففي سورة إبراهيم، حيث سُردت قصص عدد من رسل الله، وردت تهديدات الكافرين بنفى الرسل، كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأُولَٰئِكَ إِلَهُهُمْ رَبُّهُمْ لَنَمْلِكَنَّهُمْ﴾.^{٥٥}

كتب المولانا أمين أحسن الإصلاح في توضيح هذا الأمر ما يلي:

"لقد مرّ هذا الطور في حياة كل رسول، حيث ضاقت به قومه ذرعاً من دعوته، فأعلنوا له إنذاراً نهائياً: إما أن تعود إلى ملتنا، أو نُخْرِجْكَ من أرضنا وننفيك عنها. وعندما بلغت الأمور هذا الحد، أوحى الله إلى رسله بالبشرى: أننا سنهلك هؤلاء الظالمين، ونجعلكم أئمة الوارثين، فتسكنون الأرض من بعدهم".^{٥٦}

وفي سورة بني إسرائيل، ورد ذكر هذه المكائد من كفار قريش ضدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، على نفس المنوال فقال:

^{٥٥} إبراهيم ١٤: ١٣.

^{٥٦} تدبر القرآن ٤/ ٣١٧.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{٥٧}

ومثلما هو معلوم ومشهور، أن ليلة هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، كان كفار قريش قد دبّروا مؤامرة لاغتياله. أما في حالة النبي إبراهيم عليه السلام، فقد تم تنفيذ مثل هذا الفعل بالفعل. فقد ورد في سورة العنكبوت أن قومه لما عجزت عن الرد على دعوته، قررت قتله، بل شرعت في تنفيذ القرار، ولكن الله تعالى أنجاه وحماه حمايةً تامة". وقال القرآن في ذلك:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾^{٥٨}

فيما يتعلق بعيسى عليه السلام، فإن بنى إسرائيل قد قرروا قتله. ومن أجل هذا الغرض دبّروا مؤامرة خفية، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه المؤامرة بقوله: ﴿وَمَكْرُؤًا﴾، أي بدأوا يمحكون التدابير السرية. وكانت هذه المؤامرة شبيهة بتلك التي دُبرت سابقاً لإبراهيم عليه السلام، ولاحقاً للنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم من قبل أقوامهم. فلذلك نلاحظ أن القرآن استخدم كلمة "مكر" لمؤامرة قتل المسيح، بينما استخدم

^{٥٧} ١٧: ٧٦.

^{٥٨} ٢٩: ٢٤.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

كلمة "كيد"^{٥٩} (أي الحيلة أو المكيدة) للمؤامرة ضد إبراهيم عليه السلام. ففي سورة الصافات قال تعالى:

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.^{٦٠}

أي فأرادوا أن يحتالوا عليه، فجعلناهم هم المنهزمين والمتدللين". وعندما تقرر أقوام الأنبياء اتخاذ مثل هذا السلوك الهمجي ضد رسل الله، فإن الله سبحانه وتعالى يتدخل بعد ذلك لينقذ رسله ويُنزل حكمه العادل على تلك الأقوام. في مثل هذه اللحظات، يتم فصل الرسول عن قومه.

وقد يكون هذا الانفصال إما بهجرة إلى أرض أخرى وهو حيّ، أو بهجرة إلى السماء بعد وفاته. وفي الحالتين، تكون هذه "هجرة إلى الله"، وتتم بحسب أمر الله وحكمته وتقديره.

وقد عبّر القرآن عن هذا المفهوم في قصة إبراهيم عليه السلام بعبارتين:

^{٥٩} كتب أستاذنا الجليل في شرحه لـ "كيد":

"أي أراد أن يحفر حفرة من النار ويلقيهم فيها بحجة ما. ولعل السبب في ذلك هو أنه في حال قيام بعمل علني، قد يكون هناك خوف من مقاومة آل إبراهيم (عليهم السلام). ولذلك، فمن المعلوم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضًا اضطر رؤساء قريش إلى وضع خطة مماثلة."

(البيان ٢٤٢/٢)

^{٦٠} الصافات ٣٧: ٩٨.

— إشكاليات واردة على موقف غامدي —

﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ و﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، عندما حاول قومه قتله وحرقه بالنار. قال تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^{٦١}

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾^{٦٢}

يكتب الأستاذ الجليل عن هذه الهجرة التي قام بها سيدنا إبراهيم عليه السلام:

"بعد أن أقام الحجة على قومه، يُعبّر هذا عن قرار الهجرة الذي اتخذته سيدنا إبراهيم عليه السلام. فعندما يُصبح دُعاة الحق مُهتدين في أرواحهم، يُؤمر الأنبياء عليهم السلام بالهجرة على هذا النحو. وماذا سيحدث بعد ذلك؟ — ففي مثل هذه اللحظات لا يكون هناك أي تصوّر واضح للمستقبل. ولذلك، تكون الحاجة ماسة في كل خطوة إلى توجيه الرب الذي وُضع فيه هذا الاعتماد الهائل، والذي لأجله تم اتخاذ مثل هذا القرار الكبير."^{٦٣}

بعد أن أقيمت الحجة على قومي لوط وشعيب عليهما السلام، وقرّر الله إنزال عذابه بهم، فصل الله تعالى بين هذين النبيين وقومهما الظالمين. فقد أمر الله لوطًا عليه السلام أن يخرج من ديار القوم بمن معه من أهل

^{٦١} العنكبوت ٢٩:٢٦.

^{٦٢} الصافات ٣٧:٩٩.

^{٦٣} البيان ٤/ ٢٧٥.

— إشكاليات واردة على موقف غامدي —

بيته - إلا امرأته - ويفارق مساكنهم قبل أن يحل العذاب.
أما شعيب عليه السلام، فقد بين الله في كتابه أنه أنجى شعباً ومن آمن معه من القوم الظالمين، كما جاء في سورة هود، حيث قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِينَ﴾^{٦٤}
وجاء في موضع آخر:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبَ إِلَيْكَ بِقِطْعِ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتِكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۖ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^{٦٥}

لقد تم اختيار هذا السبيل لإنقاذ المسيح عليه السلام من بنى إسرائيل، وهو أن الله توفاه ورفع جسده المبارك إليه مفصولاً عنهم.^{٦٦} وقد ورد هذا في سورة النساء، حيث قال تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۚ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^{٦٧}

^{٦٤} هود ١١: ٩٤.

^{٦٥} ١١: ٨١.

^{٦٦} قد تم ذلك حتى لا يجرؤ بنو إسرائيل على تدنيس وجوده وجسده.

^{٦٧} ٤: ١٥٧-١٥٨.

———— إشكاليات واردة على موقف غامدي ————

في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، يوضح الأستاذ الجليل أنّ المراد بذلك هو أن الله سبحانه قَبَضَ روحَ سيدنا المسيح عليه السلام، ثم رفع جسده من بين بنى إسرائيل. وجاء في كلامه ما يلي:

"وقد بيّن القرآن هذا الرفع في سورة آل عمران (آية ٥٥)، حيث أوضح أن الله سيرفعه إليه بعد وفاته. ومعنى ذلك أن الله يقبض روحه، ثم يرفع جسده، حتى لا يتمكن أعداؤه من التعدي عليه أو إهانته. فالمسيح عليه السلام كان رسولاً من عند الله، والقرآن يقرر أن سنّة الله في رسله أن يحميهم، ولا يُمكن لأعدائهم أن ينالوا منهم حتى يتمّوا مهمّتهم. وكذلك فإن الله لا يرضى أن يُهانوا أو يُذلّوا، بل إذا حاول أحد ذلك، فإن الله بعد مهلة معيّنة، يحميهم ويحفظهم من كل أذى أو اعتداء." ٦٨



٦٨ البيان ٥٧٣/١.

٣- مفهوم ﴿وَرَأْفَعَكَ إِلَيَّ﴾

وقد حُجِّجَ من عبارة ﴿وَرَأْفَعَكَ إِلَيَّ﴾ في آية آل عمران قيد المناقشة أن هذه الكلمات تمنع معنى "التوفي" من أن يُطبَّق على الموت. والسبب في ذلك هو أنه في حالة الموت لا يبقى الكيان المكون من الروح والجسد، والذي يمكن أن يكون الفعل "رفع" مؤثراً فاعلاً عليه. في هذه الحالة، يصبح الضمير المخاطب "ك" بلا معنى، لأن مثيله هو عيسى الذي في حالة الحياة يبقى عيسى ولكن في حالة الموت، لا تبقى هويته الشخصية، بل ينقسم إلى عنصرين منفصلين: روح عيسى وجسد عيسى (عليه السلام).

هذه الحجة تُناقض اللغة نفسها وأعراف القرآن الكريم. فهي تتجاهل أن اللغة كلام، لا منطق. فمعنى اللغة ومحتواها لا يُحددان بالسبب والمسبب والنتيجة كما في مبادئ الرياضيات، بل يُفهمان على أساس العادات والتقاليد. فإذا تجاهلنا الأساليب الشائعة والمستخدمة، تُصبح اللغة صحراء قاحلة، عاجزة عن أداء وظيفتها الأساسية في

التواصل.

فلننظر إذا كان بإمكان شخص واحد أن يجادل من كلمات الآية أعلاه ﴿وَرَفَعُكَ إِلَى﴾ بأن الفعل (رَفَعَ) فيها ينطبق على عيسى (عليه السلام) الذي هو مزيج من الروح والجسد، لذلك من الضروري أن يُبعث حيًّا، فعندئذٍ على نفس المبدأ، يمكن لآخر أن يجادل من كلمات ﴿ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ﴾ بأن مفعول الفعل (رَجَعَ) فيها هو جميع المخاطبين، بما في ذلك اليهود والنصارى، الذين هم مزيج من الروح والجسد، وبالتالي فإنه يثبت أنهم سيعودون جميعاً أحياء.

ولمزيد من الإيضاح لننظر هذه الجُمْل في داخل الآية نفسها:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ. وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعَيِّسُنِي إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.^{٦٩}

بخصوص هذه المناقشة، يرى أستاذنا الجليل أنه لا يمكن تحديد معنى كلمة "رفع" بمعزل عن تركيب الجملة، ولا يمكن تفسير العناصر السابقة واللاحقة في ضوء هذا المعنى المنعزل. ويتحدد معنى عنصري فقرة ﴿رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا﴾ بناءً على قول الله تعالى: ﴿إني متوفيك﴾. لذا، فإذا كان معنى كلمة "رفع" قطعاً هو قبض الروح،

^{٦٩} آل عمران ٣: ٥٥-٥٤.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

أي الموت، فلا مجال لاستنباط معنى من الكلمات التالية يخالف الموت أو يختلف عنه. وبناءً على ذلك، أطلق أستاذنا الجليل الضمير الخطابي في «رافعك» على جسد عيسى عليه السلام الذي قبضت روحه منه. ورأ أن هذه المعاملة الخاصة لعيسى المسيح قد فعلت لحماية جسده المقدس من جميع أشكال الإساءة والتدنيس. فقد كتب:

"أي: سأقبض روحك وأرفع جسدك إليّ لتلاينال هؤلاء الظالمون من إهانتته. كان المسيح (عليه السلام) رسولاً من الله، وقد ورد في القرآن الكريم أن الله يحمي الرسل، ولن ينجح أعداؤهم في إلحاق أي ضرر بهم حتى يتموا مهمتهم. كذلك، لا يرضى الله عن إهانتهم وإذلالهم، وبعد أن يمنح من كان يتصدي لهم مهلةً لأجل محدد، فإنه يحمي رسله من أيديهم."^{٧٠}

أما قوله تعالى: «ومطهرك من الذين كفروا»، فيعتقد أن هذا ينطبق على شخصية عيسى المسيح كاملةً. وهذا يعني أن الله سيُخرجه من دنس العقائد الباطلة والأخلاق المنحطة لليهود، ويأخذه إلى عالمه الطاهر: "أي: سأخرجك من هؤلاء الملوئين بدنس العلم والفكر والأخلاق، وأدخلك إلى عالم الأبرار والعدل الذي أُعدَّ لهم."^{٧١}

^{٧٠} البيان ٣٥٩/١.

^{٧١} البيان ٣٥٩/١.

٢- ماهو المراد بـ ﴿قبل موته﴾ في سورة النساء

سورة النساء (٤) نزلت بعد الهجرة. وقد كان ذلك في الوقت الذي تأسست فيه دولة المسلمين في المدينة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنمّ الحُجّة على أهل الكتاب، ويزكّي ويطهر جماعة المسلمين. وعليه، فإن موضوع هذه السورة هو وضع أسس المجتمع الصالح للأمة المسلمة وتزكيتها وتطهيرها.^{٧٢}

عدد آيات هذه السورة ١٧٦ آية، غير أن مضمونها يكتمل عند الآية ١٢٦. والآيات التي تُمثّل اكتمال الموضوع هي:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرِيمَ خَلِيلًا. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.^{٧٣}

^{٧٢} البيان ١/٤٤٢.

^{٧٣} ١٢٥-١٢٦.

من هذا الموضع وحتى نهاية السورة، يوجد ملحق أُدرجت فيه إجابات عن الأسئلة التي طرحها الناس أثناء نزول السورة. أول هذه الأسئلة طرحه بعض المسلمين الذين كانوا يعانون من ضعف في الالتزام بمقتضيات الإيمان والأخلاق. ويبدأ هذا السؤال بقول الله تعالى في الآية ١٢٧: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، أي: "يسألونك فتوى بشأن النساء". ويتعلق هذا السؤال بحالة الزواج من أمهات اليتامى، وبخاصة ما يرتبط بمهرنّ والعدل معهنّ. وقد جاء الجواب عليه في الآيات الممتدة إلى الآية ١٣٤.

السؤال الثاني يتضح من خلال سلوك المنافقين؛ إذ كانوا يفضّلون علاقتهم بأهل الكتاب على الحق والصدق، وكانوا يتساءلون: لماذا اعتبر الله اليهود والنصارى - إلى جانب المشركين - مستحقين للعذاب؟ وقد ورد الجواب عن هذا التساؤل إلى الآية ١٥٢.

أما السؤال الثالث، فقد جاء من أهل الكتاب في صورة طلب خاص، وقد ورد الجواب عنه حتى الآية ١٧٥.

وأما السؤال الرابع والأخير، فكان متعلّقًا بأحكام المواريث التي وردت في أوائل السورة، وقد ورد جوابه في ختام السورة في الآية ١٧٦. أما السؤال الثالث الذي طرحه أهل الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم في صورة مطالبة معينة، فقد ذكره القرآن في الآية (١٥٣) بهذه الكلمات:

———— إشكاليات واردة على موقف غامدي ————

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾^{٧٤}

ويفهم من السياق أن هذا الطلب لم يكن بدافع الإيمان أو التثبت، بل كان يحمل طابع التعنت والتكلف، كما يتضح من باقى الآية وما بعدها).

﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾^{٧٤}

وقد جاء جواب الله تعالى على هذا الطلب بأسلوب في غاية الشدة، إذ سرد جرائم اليهود البشعة بكل قوة وصرامة. وفي سياق هذا الحوار بين السؤال والجواب، كتب الأستاذ الجليل ما يلي:

"هذا هو السؤال الثالث الذي طُرح في سياق الرد على دعوة هذه السورة، وجاء بصيغة مطالبة من أهل الكتاب، حيث قالوا: لا نريد هذا القرآن، بل نريد كتاباً ينزل من السماء مباشرة، وحينئذ فقط سنؤمن. فجاء الرد على هذا المطلب بأسلوب في منتهى القسوة وشدة التنبيه، حتى إن ألفاظه، كما يقول الأستاذ الإمام، تتفجر غضباً في كل كلمة. يقول:

"... إن الخطاب بأكمله، من أوله إلى آخره، ليس إلا لائحة

اتهام مطوّلة لجرائمهم، وقد بلغ من شدة الانفعال وتدقّق الكلام أن من الصعب تمييز أين بدأ الحديث وأين انتهى. وفي مثل هذا النوع من الكلام المتقدّ غضباً وحرارة، يُحذف الخبر عادة، وكأن

^{٧٤} المائدة ٥: ١٥٣.

———— إشكاليات واردة على موقف غامدي ————

انفعال المتكلم قد حلّ محلّ الخبر، ومن المبتدأ وحده يُفهم مراد المتكلم. "تدبر القرآن ٢/٤١٥".^{٧٥}

وقد فهرس القرآن في آياته "لوحة الجرائم"، تُذكر الأفعال الإجرامية التي ارتكبتها بنو إسرائيل كما وردت في سورة النساء، وهي كالتالي:

١. طلبوا من موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة، دون واسطة أو حجاب. (الآية ١٥٣)

٢. اتخذوا العجل معبوداً لهم رغم وضوح الآيات والمعجزات التي شاهدوها. (الآية ١٥٣)

٣. حين عُلق جبل الطور فوق رؤوسهم، أخذ عليهم ميثاق غليظ بأن يدخلوا باب خيمة العبادة سُجداً وألا ينتهكوا حرمة يوم السبت، لكنهم نقضوا هذا العهد. (الآية ١٥٤)

٤. جحدوا بآيات الله رغم ما رأوه من دلائل الحق. (الآية ١٥٥)

٥. قتلوا الأنبياء بغير حق، ظلماً وعدواناً. (الآية ١٥٥)

٦. قالوا لموسى عليه السلام: "قلوبنا مغلقة"، أي لا مجال لما نقوله أن يؤثر فينا. (الآية ١٥٥)

٧. اختاروا الكفر جماعياً كموقف دائم. (الآية ١٥٦)

٨. رمّوا مريم عليها السلام بالبهتان العظيم. (الآية ١٥٦)

^{٧٥} البيان ١/٥٦٧-٥٦٨.

٩. ادَّعَوْا زورًا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله.
(الآية ١٥٧)

١٠. استمروا في التعامل بالربا رغم نهي الله الصريح عنه. (الآية
(١٦١)

١١. أكلوا أموال الناس بالباطل بوسائل غير مشروعة. (الآية ١٦١)
هذه قائمة بجرائم أهل الكتاب. من خلال سؤالهم، يتضح أن ما قالوه لم يكن في الحقيقة استجابة لمطلب حقيقي، بل إن مطلبهم كان أن يُنزل الله عليهم كتابًا من السماء مباشرةً، بدلاً من هذا القرآن. وهذا تعبير عن سخط الله الشديد، لأن هذا المطلب كان من أسوأ صور الدناءة والانحطاط وسوء الأدب. ولذلك، فضحهم الله تعالى بكامل بلاغة خطابه، وكشف حقيقتهم أمام الملأ، وألمح فيما بين السطور إلى أن أولئك الذين اعتادوا أن يطالبوا بما هو أعظم من ذلك، رغم رؤيتهم للآيات الإلهية الكبرى، لم يكفوا يوماً عن تمردهم، ولا يُنتظر منهم أن يتراجعوا عن هذا السلوك.

وفي لائحة الاتهام هذه، جاء الجرم التاسع على النحو التالي:
إنهم زعموا أنهم قتلوا رسول الله، عيسى عليه السلام - وهو الذي كان، بصفته رسولاً، تحت حماية الله المباشرة، بحيث لا يمكن لأحد أن يمسّه بسوء ولا أن يوقع به أذى. وهذا الادعاء يُعدّ تحدياً صريحاً لقانون الرسالة الإلهي، ولذلك جاء الرد عليه حاسماً وبأشد العبارات،

حيث قال الله تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۚ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۖ﴾^{٧٦}

يتضح من هذا التفصيل أن الجملة المذكورة أعلاه لا تتعلق بالجملة التالية، بل ترتبط بالجملة السابقة، التي تذكر الجريمة التاسعة من سلسلة جرائم بني إسرائيل، والتي نصّها كما يلي:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾^{٧٧}

الآن، إذا طرح السؤال: ما المقصود بقول الله تعالى في الآية ١٥٩؟ فالجواب هو أن هذه الآية جاءت ردًّا على طلب معيّن لبني إسرائيل، وقد ورد هذا الطلب في مطلع السياق القرآني بعبارات واضحة، حيث قالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾.

فهذا المطلب الذي تقدم في بداية السياق، وهو مطالبتهم برؤية الله جهارًا، هو الذي ترد عليه الآية ١٥٩ لاحقًا، موضحةً الموقف الإلهي من هذا العناد والاستخفاف الذي بدر منهم. قال تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ...﴾^{٧٨}

^{٧٦} ٤: ١٥٧-١٥٨.

^{٧٧} ٤: ١٥٧.

^{٧٨} ٤: ١٥٣.

———— إشكاليات واردة على موقف غامدي ————

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ- وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^{٧٩}

وفي نهاية الأمر، جاء التوضيح بأنّ هذا العتاب لا يشمل أولئك من أهل الكتاب الذين يؤمنون بأنّ القرآن منزل من عند الله. فهؤلاء لا يقرون فقط بأنّ القرآن كتاب إلهي، بل يؤمنون أيضاً بأنّ الكتب التي أنزلت من قبل كانت هي الأخرى من عند الله. وقد ورد في القرآن الكريم قوله:

﴿لَكِنَّ الرِّسْخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^{٨٠}

وفقاً لهذا التفصيل، يتبين لنا ترتيب الخطاب على النحو التالي:

١. مطالبة بنى إسرائيل للنبي صلى الله عليه وسلم بأن تُنزل عليهم الكتاب مباشرة بدلاً من القرآن.

٢. الجملة الاعتراضية الأولى^{٨١}: بيان قائمة جرائمهم للتعبير عن

^{٧٩} ٤: ١٥٩.

^{٨٠} ٤: ١٦٢.

^{٨١} الجملة المعترضة هي تعليق أو توضيح يأتي في أثناء تسلسل الكلام، ويكون ذا صلة ما بجزء من أجزاء الكلام، غير أنه يتميز باستقلاله عن السياق الأصلي، بحيث لو أزيل من الكلام لما اختلّ تسلسله ولا تعطلّ معناه.

فما المقصود بالجملة المعترضة؟ وكيف تدخل في أثناء الكلام؟ وإلى أي مدى تكون متصلةً بالكلام العام أو منفصلةً عنه؟ لكي نفهم هذه الأمور على نحوٍ أوضح، دعونا نلقي نظرةً على المقطع الآتي من القصيدة الأردنية الشهيرة لشاعر الإسلام محمد إقبال: "جوابُ الشكوى" ففي هذا المقطع، يُعدُّ الشاعرُ مظاهرَ ضعفِ المسلمين وتقصيرهم، وقد وردت في أثناء هذا البيان جملتان معترضتان، يُدركُ القارئُ من ذاتِ السياقِ أنهما ليستا من صلبِ سلسلةِ الأفعال التي يُدينها الشاعر، بل هما تعليقان أو توضيحان جانبيان:

وہ بھی دن تھے کہ یہی مایہٴ رعنائی تھا
 نازشِ موسمِ گل لالہٴ صحرائی تھا
 جو مسلمان تھا، اللہ کا سودائی تھا
 کبھی محبوبِ تمھارا یہی ہر جائی تھا
 کسی یک جائی سے اب عہدِ غلامی کرلو
 ملتِ احمدِ مرسل کو مقامی کرلو
 کس قدر تم پہ گراں صبح کی بیداری ہے
 ہم سے کب بیدار ہے ہاں نیند تمھیں بیداری ہے
 طبعِ آزاد پہ قیدِ رمضان بھاری ہے
 تمھی کہہ دو، یہی آئینِ وفاداری ہے؟
 قومِ مذہب سے ہے مذہب جو نہیں تم بھی نہیں
 جذبِ باہم جو نہیں، محفلِ انجم بھی نہیں
 جن کو آتا نہیں دنیا میں کوئی فن، تم ہو
 نہیں جس قوم کو پروا ہے نشیمن، تم ہو

بجلیاں جس میں ہوں آسودہ، وہ خرمن تم ہو
 بیچ کھاتے ہیں جو اسلاف کے مدفن، تم ہو
 ہو نکو نام جو قبروں کی تجارت کر کے
 کیا نہ بیچو گے، جو مل جائیں صنم پتھر کے!

وترجمتها العربية كالتالي:
 كانت تلك الأيام يومَ كَانَ زهرةُ الصحراءِ موضعَ الفخر،
 وَكَانَ لآلَةَ (زهرة) الصحراءِ زينةُ الربيع،
 كان المسلمُ يومئذٍ عاشقَ الله،
 وَكَانَ محبوبَكم آنذاك هو هذا الهِرجائي! (الموجود في كل مكان)
 فليجددْ أحدكم عهدَ العبوديةِ من جديد،
 وليُحوّلْ أُمَّةَ أحمدَ المرسلِ إلى قومٍ محلِّيّةٍ ضيّقة،
 ما أَشدَّ ثَقَلِ الاستيقاظِ صباحًا عليكم!
 ليس لكم حبٌّ بنا، بل حبٌّ بالنوم!
 فطبيعَتكم الحرّةُ تضيقُ بقيودِ رمضان،
 قولوا أنتم: أهذا هو الوفاء؟
 الأُمَّةُ قائِمةٌ على الدين، فإذا ذهب الدينُ ذهبْتُم،
 وإذا فُقِدَت رُوحُ الاتحادِ انطفأتْ مَجَرَّةُ النجوم،
 أنتم الذين لا تُجيدون فنًّا من فنونِ الحياة،
 وأنتم الذين لا تهْمُّكم بيوتكم ولا أوطانكم،
 وأنتم الحقولُ التي تسكنُها الصواعق،
 وأنتم الذين يبيعون قبورَ أسلافهم!

غضب الله ووعيده بسبب هذا الطلب الباطل.

٣. ردّ الله على سؤال بني إسرائيل: إعلان بأن كل فرد من أهل الكتاب سيؤمن قبل موته بأنّ القرآن هو كتاب من عند الله

٤. الجملة الاعتراضية الثانية: إضافة بعض الجرائم الأخرى إلى سجلّ جرائمهم.

٥. تعليق على الذين آمنوا من أهل الكتاب بأنّ القرآن كتاب إلهي: مدحهم والإعلان عن أجر عظيم ينتظرهم.

في هذا السياق، اقرأ الآن النصّ كاملاً مرةً أخرى، حتى يتّضح لك مقصود الآية موضع البحث ضمن السياق الكامل والسباق واللاحق. وقد قمنا بإبراز العناصر الأساسية في الكلام لتيسير فهم المقصود. قال تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا. فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَفْتُلِهِمْ

ومن يُتاجرُ بالقبور لينال السمعة الحسنه،

فماذا سيمنعه أن يبيع الأصنام إن وجدها من حجر!

—— نزول المسيح 259 ——

الأنبياء بغير حقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا. وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. فَبُظْلِمَ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا. وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَاهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا»^{٨٢}

لقد توضَّح تمامًا من خلال هذا التفسير والتفصيل مرجع جميع الضمائر في الآية ١٥٩. ووفقًا لهذا:

- في قوله «لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ»، فإن الضمير المفرد المذكور الغائب "به" يعود إلى القرآن الكريم.
- وفي قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ»، فإن الضمير المفرد المذكور الغائب

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

"موته" يعود إلى كل فرد من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون في أرض الحجاز في زمن الرسالة.

- أما فاعل ﴿يَكُونُ﴾ فهو القرآن الكريم.
- وفي قوله ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، فإن الضمير الجمع المذكّر الغائب ﴿عليهم﴾ يعود إلى أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون في أرض الحجاز زمن الرسالة.

هذا هو موقف الأستاذ جاويد أحمد غامدي فيما يتعلّق بهذه الآية الكريمة.

فإن تساءل أحد: على أي أساس حدّد الأستاذ غامدي مراجع هذه الضمائر؟ فالإجابة القطعية هي: لقد حددها على نفس الأساس الذي يتم عليه تحديد مراجع الضمائر في أي خطاب آخر.

فمن المسلّمات اللغوية والبلاغية أن فهم مراجع الضمائر في أي نصّ يتم من خلال موضوعه، وسياقه، والقرائن المحيطة به؛ لأن الضمير في الخطاب يأتي بدلاً عن اسم ذكر سابقاً. أي أنه عندما تُستخدم كلمات مثل "هو"، "هم"، أو ضمائر مثل "ه"، "هم"، فإنها تحلّ محلّ أسماء تم ذكرها سابقاً. وإذا وُجد في ذلك احتمال أو التباس، فإن السياق العام للنصّ، وموضوعه، ومضمونه يساعد على تحديد المقصود من هذه الضمائر. وتُسمى هذه العناصر بـ القرائن.

وقد اعتبر أستاذنا الجليل أن مرجع الضمير في ﴿لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ هو

القرآن الكريم، ومرجع الضمير في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ هو كل فرد من أهل الكتاب كان مخاطباً مباشرة بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم. والتفصيل التالى يوضح القرائن اللغوية التى استند إليها هذا التحديد.

القرينة الأولى: تأتي في مطلع الكلام الآية الكريمة:
﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.
(أي: إن أهل الكتاب يطالبونك أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء مباشرة).

وهذا التعبير يبيّن مضمون الحديث كله؛ فالله تعالى اختار أن يعلّق على هذا الطلب الذي قدّمه أهل الكتاب، وهو أنّهم لا يكتفون بالكتاب الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم. أي القرآن. بل يريدون كتاباً ينزل عليهم مباشرة كما كان الحال مع بنى إسرائيل. ويتضح من سياق الآيات أن بقية الكلام ليس سوى تقرير من الله تعالى لهذا المطلب الباطل.

ومن هذا النص نفهم أمرين أساسيين:

١. لفهم موضوع الآية: إنّ القضية الرئيسة التى يُعالجها السياق هى هذا الادعاء من أهل الكتاب.

٢. المعلومات المستفادة من ذلك:

١. من عبارة ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ يتبيّن أن المطالبين هم

اليهود والنصارى الذين كانوا موجودين فى أرض الحجاز فى عصر دعوة النبى صلى الله عليه وسلم.

٢. ومن عبارة ﴿أَن تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ يظهر أنهم لا يعترفون بالقرآن كتاباً منزلاً من السماء، لأنهم لا يرون أنه نزل عليهم (أى على اليهود).
٣. ومن تنكير لفظ ﴿كِتَابًا﴾ يتّضح أن أهل الكتاب لم يكونوا يطلبون القرآن نفسه، بل كتاباً آخر غيره.

وبهذا السياق يتّضح أن موضوع الكلام هو موقف أهل الكتاب من الإيمان بالقرآن من حيث كونه منزلاً من عند الله.
أما القرينة الثانية فهي ما جاء فى ختام الآية:

﴿لَكِن الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فى هذا الجزء ذكر أولئك من أهل الكتاب الذين آمنوا بالقرآن واعترفوا بأنه وحى منزل من عند الله. أى أنّ أهل الكتاب فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فريقين:

- فريق الأكثرية: الذين جحدوا أن يكون القرآن كتاباً إلهياً.
 - وفريق آخر من العلماء وأهل الإيمان منهم: الذين صدّقوا بأن القرآن كتاب منزل من عند الله وآمنوا به مع ما أنزل قبله.
- ومن هذا السياق أيضاً يتبين أن موضوع الكلام هو مسألة إيمان

أهل الكتاب بالقرآن أو عدم إيمانهم به. ومن هذه الجملة يتضح مع فهم موضوع الكلام الحقائق الآتية:

١. إن حرف "لكن" الذي يفيد العطف والاستدراك يقتضى أنه إذا ذكر بعده الفريق من أهل الكتاب الذين يعترفون بالقرآن كتاباً إلهياً، فلا بد أن يكون قد ذكر قبل ذلك الفريق الآخر منهم الذين لا يعترفون بالقرآن كتاباً من عند الله.

٢. إن الضمير في ﴿منهم﴾ يدلّ على أن المراد هنا هم الذين تقدّم ذكرهم، وهم أهل الكتاب في زمن الرسالة.

٣. إن لفظ ﴿يؤمنون﴾ قد استُعمل في حق أولئك من أهل الكتاب الذين ظلوا متمسكين بدينهم، ومع ذلك أقروا بالقرآن كتاباً إلهياً، فمعناه هنا الاعتراف أو الإقرار، لا الإيمان بالمعنى الاصطلاحي الشرعي.

٤. إن قوله تعالى: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يشير إلى مآل أولئك من أهل الكتاب الذين اعترفوا بالقرآن كتاباً من عند الله في زمن الرسالة. وهذا الأسلوب يقتضى أن يُذكر أيضاً مآل الفريق الآخر من أهل الكتاب الذين لم يقرّوا بالقرآن كتاباً إلهياً. ولذا جاء بيان مآلهم في الآية (١٥٩)، وهو أن هذا القرآن الذي يرفضون الآن الاعتراف بأنه كتاب الله، سيضطرون في نهاية المطاف إلى الإيمان به من عند الله. وهذا الحدث سيقع في حياتهم عندما تُقام عليهم الحجة من جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويصير الأمر الذي يدّعيه القرآن واقعاً مشهوداً لا سبيل

إلى إنكاره.

وقد أوضح الأستاذ الجليل هذا الجانب تحت تفسير الآية (١٥٩)، فقال:

"ينبغي أن يُلحظ هنا أيضاً أنّ هذا الكلام في سياق التهديد والوعيد، ومعناه أنّ ما يُبيّن لهم الآن بالدليل والبرهان سوف يتحقق في الأيام القادمة واقعاً مشهوداً. فعليهم أن يتفكروا: ماذا سيفعلون حينذاك؟ فلن يكون لهم في ذلك الوقت أي خيار سوى الإيمان".^{٨٣}

وهذه هي تفاصيل موقف الأستاذ الجليل في تأويل آية سورة النساء (١٥٩). فبرأيه إن موضوع الكلام، وترتيب البيان، واتساق الجمل، وسياق الآية وسباقها، لا يقبل إلا هذا التفسير الواحد.

وبعد بيان موقف الأستاذ الجليل، ينبغي الآن أن نفهم الخطأ الكامن في الرأي الشائع حول موضوع نزول المسيح.

التأويل المشهور عند علمائنا في تفسير آية النساء ١٥٩ هو أن الضميرين في قوله تعالى: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجعان كليهما إلى عيسى عليه السلام. ووفقاً لهذا الفهم، يكون معنى الآية:

كل واحد من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى عليه السلام قبل موت عيسى عليه السلام.

وسبب هذا التأويل الخاطئ هو الألفاظ الواردة في الآيتين السابقتين

^{٨٣} البيان ١/ ٥٧٤.

(١٥٧-١٥٨)، حيث جاء ذكر عيسى عليه السلام وما قيل في شأن قتله وصلبه:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۚ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

هذا المقطع في الأصل جزء من الجملة المعارضة التي تبدأ بقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾، وفيها بيان قرار الاتهام لبني إسرائيل على سبيل التهديد. وتنتهي هذه الجملة المعارضة عند قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أما الجملة من ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ إلى ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فهي أيضاً جملة معترضة داخل تلك الجملة المعارضة المهذبة. وقد بين المولانا أمين أحسن الإصلاحى سبب ورود هذه الجملة الإضافية، فقال:

"فيها تمّ الردّ الفوري على دعوى اليهود بقتل المسيح. وهذا الرد المباشر يبرز جانبين: الأول: أن رسل الله يكونون في حمايته، فلا يُمكن لأعدائهم أن ينجحوا في كيدهم ضدهم، ولهذا فإن دعوى اليهود أنهم قتلوه أو صلبوه دعوى باطلة لا أساس لها. فقد فشلوا تماماً في هذه المؤامرة، ولكنهم حملوا وزر هذا الادعاء الكاذب على عاتقهم، فصاروا مبغوضين ملعونين إلى الأبد. الثانى: أنه لم يقع قتلٌ للمسيح عليه السلام ولا صلب، ولكن النصراني أتباع بولس حملوا هذا الافتراء الوهمي وصاغوا منه أسطورةً كاملة (Mythology)،

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

وبذلك جلبوا العار على أنفسهم".^{٨٤}

الخلاصة كما يظهر من العرض:

- الجملة الاعتراضية ليست مرتبطة بالآية (١٥٩)، بل هي جزء من تعداد الجرائم التي جاءت في السياق.
- وعليه، تأويل العلماء - بأن الضميرين في ﴿لَيُؤْمَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجعان إلى عيسى عليه السلام - مرفوض من حيث السياق واللغة.
- وحتى لو سُلمَّ بصحته (تنزلاً)، فإن تطبيقه العملي مستحيل، لأن كل احتمال يُفرض يتعارض مع الواقع التاريخي أو مع السياق القرآني:
- ١. تفسيره بجميع يهود ونصارى البشرية = باطل تاريخياً، فقد مات الملايين دون إيمان بعيسى.
- ٢. تفسيره بيهود عصر النبي صلى الله عليه وسلم = غير ممكن، لأنهم ظهروا بعد رفع عيسى بقرون.
- ٣. تفسيره بيهود زمن عيسى نفسه = مردود، لأنهم هم الذين حاولوا قتله، ولم يؤمنوا به قبل رفعه.
- ٣. تفسيره بمن يكونون زمن "النزول الثاني للمسيح" = بلا قرينة

^{٨٤} تدبر قرآن ٢/٤٢٠.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

لغوية في النص تُخصّص "أهل الكتاب" بزمان مستقبلي.

٥. تفسيره بأن "أهل الكتاب" = النصارى فقط = غير صحيح،

لأنهم أصلاً مؤمنون بـعيسى، والآية تتحدث عن جرائم اليهود لا
النصارى.

النتيجة:

التأويل الذي قدّمه كثير من المفسرين يتعارض مع النص القرآني

ومع الواقع التاريخي، فلا يمكن اعتماده.

—————



٥- مصداقية ﴿وإنه لعلم للساعة﴾

وقد استدللّ بعض المفسرين بقوله تعالى: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ من سورة الزخرف على نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان، وذهبوا إلى أن معنى الآية أن نزوله سيكون علامة يعرف بها الناس اقتراب القيامة، فكان الآية أجملت ما فصلته الأحاديث في شأن المجيء الثاني للمسيح. غير أنّ هذا الاستدلال غير سليم من وجهين:

أولاً: إن الآية لم تُشر إلى صفة مخصوصة من صفات عيسى عليه السلام باعتبارها علامة للساعة، بل جاء ذكر شخصه على سبيل الإجمال بوصفه دليلاً على إمكان القيامة. فمولده من غير أب، وكلامه في المهد، وإحيائه الموتى، ورفعته إلى السماء، ونزوله منها - كل هذه أمور خارقة للعادة، غير أنّ الآية لم تُعيّن واحداً منها في ألفاظها، ولم يتضمن سياقها أو سباقها ما يدل على إرادة النزول خاصة. ومن ثمّ لا يصح الاستدلال بها لا على رفعه ولا على نزوله.

ثانياً: إن سياق الآيات يسمح بحمل الكلام على الأحوال المعروفة

عن المسيح عليه السلام زمن النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه لا ينسجم مع حمله على أمر مستقبلي من قبيل النبوءات. فالخطاب موجّه إلى قريش، كما يظهر من قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ، وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.^{٨٥}

والمقصود بـ«قومك» هم مشركو مكة. فكيف يُحتج عليهم في إثبات القيامة بأمرٍ لم يشهدوه تاريخياً، ولن يقع إلا بعد موتهم؟ بل مقتضى السياق أن يقال لهم: إن عيسى ابن مريم بما عُرف من شأنه دليل على إمكان الساعة، فلا ترتابوا فيها وآمنوا.

إنّ طبيعة هذا الأسلوب من الاستدلال هي التي جعلت أبو الأعلى المودودي -مع قوله بنزول المسيح في آخر الزمان - لا يعتمد هذه الآية دليلاً على المجيء الثاني. فقد ذكر أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ يمكن أن يفهم على أنه وسيلة للعلم بالقيامة. غير أن السؤال يثور حول مرجع الضمير في "إنه": فقد نُقل عن الحسن البصري

^{٨٥} الزخرف ٤٣: ٥٧-٦٢.

وسعيد بن جبير أنه يعود إلى القرآن، أي أن القرآن يُعلم بقرب القيامة. إلا أن هذا التوجيه - في نظره - لا ينسجم تماماً مع السياق، إذ لا قرينة ظاهرة تُحيل الضمير إلى القرآن.

وأكثر المفسرين على أن المراد به عيسى بن مريم عليه السلام، وهو الأليق بالسياق من حيث السباق واللاحق. غير أن الإشكال ينتقل إلى معنى كونه "عِلْماً للساعة": فابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي والضحاك وأبو العالية وأبو مالك ذهبوا إلى أن المقصود نزوله في آخر الزمان، وأن مجيئه الثاني علامة من علامات اقتراب الساعة، وقد تواترت الأحاديث في هذا المعنى. لكن مع جلالة قدر هؤلاء الأعلام، يرى المودودي أن في حمل الآية على هذا الوجه نظراً؛ لأن ما بعدها من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا﴾ يدل على خطاب موجّه إلى منكري القيامة في مكة، فكيف يكون نزولٌ مستقبليٌّ بعيدٌ عن زمنهم حجة قائمة عليهم بحيث يُنْهَوْنَ عن الشك فيها؟

ولهذا رجّح تفسيراً آخر ذكره بعض المفسرين، وهو أن المراد بعيسى هنا ما أُجري على يديه من خوارق تدل على إمكان البعث: كولادته من غير أب، وتصويره الطير من الطين ثم نفخه فيه فيصير حياً بإذن الله، وإحياءه الموتى بإذن الله. فهذه الوقائع نفسها برهان عملي على قدرة الله على الإحياء بعد الموت. فالذي أنشأ إنساناً بلا أب، وأحيا موتى، وأخرج حياً من جماد، لا يُستبعد في حقه أن يبعث الناس

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

جميعاً يوم القيامة. وبهذا تكون الآية قد أقامت دليلاً حسيّاً عقليّاً على إمكان الساعة، لا أنها تشير إلى علامة زمنية مؤجلة.

وقد بسط هذا التوجيه في تفهيم القرآن (٤/٥٤٧-٥٤٨)، مؤكداً أن دلالة الآية متجهة إلى تقرير أصل البعث في مواجهة من أنكروه، لا إلى بيان أشرطه المستقبلية.

يرى أستاذنا الجليل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أن الآية تتضمن دالتين واضحتين على حقيقة القيامة:

الأولى: أن الله تعالى أظهر على يدي عيسى عليه السلام معجزات تدل دلالة قاطعة على إمكان البعث بعد الموت؛ فقد كان يحيى الموتى بإذن الله، وينفخ في هيئة الطير المصنوعة من الطين فتتحول من صورة جامدة إلى طائر حي حقيقي. وهذه الوقائع تمثل برهاناً عملياً على قدرة الله على الإحياء بعد الفناء، ومن ثم فهي حجة ساطعة على وقوع القيامة.

الثانية: أن الله أتم حجته على بني إسرائيل برسالة عيسى عليه السلام، فلما كذبوه قامت عليهم الحجة واستوجبوا العقوبة الإلهية. فكان ما جرى عليهم بمثابة قيامة صغرى ظهرت فيها عدالة السماء في الدنيا،^{٨٦} تمهيداً للقيامة الكبرى التي يُستوفى فيها الحساب الكامل.

^{٨٦} ويمكن ملاحظة تفصيلية لدينونة الله تعالى التي ظهرت على اليهود من

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

فقال الأستاذ الجليل:

"ولد المسيح عليه السلام بدون أب، وأعطي معجزة كبيرة أنه كان يحيي الموتى بإذن الله وينفخ في صور الطير المصنوعة من الطين. ثم ما ترتب على رسالته من ظهور دينونة الله في قومه، كل ذلك جعله دليلاً بيناً على حقيقة الساعة والبعث."^{٨٧}



خلال سيدنا المسيح عليه السلام في الباب الرابع تحت عنوان: تفهيم
وتفسير تمثيل نزول المسيح.
^{٨٧} البيان ٤/٤٦٩.

٦- هل يُعَدُّ الاعتقاد بنزول المسيح جزءاً من الإيمانيات؟

إنَّ علماءنا يعدُّون الاعتقاد بنزول المسيح ضمن دائرة الإيمانيات، فكأنَّه عندهم عقيدة من جنس التوحيد والرسالة والآخرة، يجب الإيمان بها. والمقصود أن يؤمن المسلمون بأنَّ عيسى عليه السلام قد رُفِعَ حيًّا إلى السماء، وأنه سينزل منها مباشرةً عند اقتراب القيامة، فيقتل الدجال ويُقيم سلطان الإسلام في الأرض ثم يتوقَّاه الله.

أمَّا عند الأستاذ جاويد أحمد غامدي فالأمر مختلف؛ إذ يرى أنَّ أخبار رفع المسيح ونزوله وحياته ووفاته، وإن صحَّت، فيمكن عدّها من علامات القيامة أو من بشارات النبي صلى الله عليه وسلم. وبناءً على ذلك، فالتصديق بها قد يُقال إنَّه من لوازم الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، لكن لا يصح عدّها عقيدة إيمانية خالصة. لأن ذلك مخالف لما استقرَّ عليه عُرف الدين.

والإيمان معناه أن يُصدَّق الإنسان أمرًا ما تصديقًا جازمًا بالقلب.

وأصله الإيمان بالله تعالى، لكن تفصيله يتضمن خمسة أمور وردت في القرآن الكريم، وهى:

١. الإيمان بالله: أن نسلّم أنفسنا كلّها لخالقنا بلا شائبة شرك.
 ٢. الإيمان بالملائكة: الاعتقاد بأن الملائكة مخلوقات قدسية بريئة من الذنب، موفّدون من الله لتبليغ هدايته، مؤمنون عليها كلّ الأمانة، وبهم يُنفذ قضاء الله وقدره.
 ٣. الإيمان بالأنبياء: التسليم بأن الأنبياء مرسلون من الله لهداية الناس، علمهم مصون من الخطأ، وعملهم قدوة، وطاعتهم واتباعهم ومحبتهم لازمة لكلّ إنسان.
 ٤. الإيمان بالكتب: الإيمان بأن ما قدّمه الأنبياء بوصفه كتاباً إلهياً هو وحي من الله، أنزله ليكون معياراً يُفرّق به بين الحق والباطل، وليقوم الناس بالقسط في الدين.
 ٥. الإيمان باليوم الآخر: الاعتراف بأننا سنُبعث حتماً بعد الموت، ولن ينفع هناك سوى الإيمان والعمل الصالح، وسنُحاسب على كل قول وفعل أمام الله، ولن يملك أحد أن يتشفع أو يتكلم بكلمة إلا بإذن الله.^{٨٨}
- قال تعالى:

﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ

^{٨٨} مأخوذ من البيان ١/ ١٧٨-١٨١.

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

مَلَأَكْتِهِ وَكُتِبَهِ وَرُسُلِهِ، لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَ
أَطَعْنَا * غُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٨٩﴾

وقد أشمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الإيمان بالخير والشر
بصفته فرعا للإيمان بالله بقوله:

"الإيمان أن تؤمن بالله، وملئكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،
و تؤمن بالقدر خيره وشره".^{٩٠}

يتَّضح من هذا أن الأمور التي حظيت في الدين بمنزلة الإيمان والعقيدة
ليست سوى هذه الخمس، وما عداها لا يصح أن يُدرج تحت عنوان
الإيمانيات. فإذا كان الله ورسوله قد حدّدا موضوعات الإيمان تعييناً
قاطعاً، فليس لنا أن ندخل فيها أي تعديل أو إضافة.

وعليه، فإننا ندرج الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والأضحية
ضمن العبادات؛ ونضع الجهاد والحدود والتعزيرات في إطار القانون
والشريعة؛ ونُصنّف هلاك عاد وثمود، وأصحاب الكهف، وذو القرنين
ضمن أخبار الماضي؛ ونعتبر فتح مكة وغلبة الروم من النبوءات؛
ونضع خروج يأجوج ومأجوج تحت عنوان علامات الساعة. هذه كلّها

^{٨٩} البقرة ٢: ٢٨٥.

^{٩٠} مسلم، رقم ١٠٢.

^{٩١} مأخوذ من ميزان ٧٦.

حقائق، ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة لا يشوبها شك، فنحن نُسلم بها، ونعدّ إنكارها منافياً للإيمان، لكننا لا نصفها بصفة "الإيمانيات".

وهنا جانب مهم ينبغي التنبيه له: إن مضامين القرآن التي هي محلّ تدبّر ويجوز فيها اختلاف التأويل والتفسير، إذا أُدرجت في دائرة الإيمانيات، نشأ عن ذلك مشكلتان علميتان:

١. من زاوية أولى، يدخل حقل الإيمانيات - وهو أساس الدين - في نطاق الجدل والخلاف. والإيمانيات هي أصول الدين، وقبول وجود الخلاف فيها معناه جعل أسس الدين نفسها محل نزاع. فمثلاً: عقيدة ختم النبوة جزء لا يتجزأ من الإيمان بالرسالة، ولا بد من الإيمان بها دون أدنى نقاش؛ والانحراف عنها انحراف عن أصل الإيمان. فلا مجال للجدل حولها مع البقاء في دائرة الإيمان. أما إذا أُدرجت علامات الساعة - مثل ولادة الأمة لسيّدها، أو تسابق العرب في بناء العمارات، أو طلوع الشمس من مغربها، أو خروج دابة من الأرض - ضمن "الإيمانيات"، فإنها ستعامل مع النبوة وختم النبوة نفس المعاملة، أي قابلة للتأويل، مع أنها ليست في درجتها ولا في طبيعتها.

٢. ومن زاوية ثانية، فإن جعل هذه الأخبار الظنية من صلب الإيمان يُفضي إلى إلغاء مشروعية النظر والاجتهاد فيها. فلو أن محدثاً

أو مفسراً لم يقبل رواية بعينها أو أولها على وجه مختلف، سيُطعن في عقيدته وإيمانه، مع أن هذه الأخبار بطبيعتها مجال للاجتهاد والتأويل. هذا الأمر يمكن توضيحه ببعض الأمثلة: فالسؤال عن المقصود بقول الله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، أو السؤال عن حقيقة الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام، كلاهما من المسائل التي تحتل البحث والنقاش، وقد اختلف العلماء في فهمها قديماً وحديثاً. وينطبق الأمر نفسه على أخبار ذي القرنين والخضر. فذو القرنين معناه صاحب القرنين، غير أن القرآن لم يبين شخصيته على وجه التعيين؛ ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أنه الإسكندر الأكبر، ورأى آخرون أنه أحد ملوك اليمن، بينما عدّه فريق ثالث من ملوك الفرس ككسرى.

أما الخضر فقد ظهرت في شأنه ثلاث آراء رئيسة: قيل إنه مَلَك، وقيل إنه نبي، وقيل إنه ولي صالح. وهذا النمط من الخلافات العلمية لا يمس أصول العقيدة في شيء، غير أنه إذا أدرجنا مثل هذه الأخبار في جملة أصول الإيمان، ترتب على ذلك نتيجتان: الأولى إغلاق باب البحث في مثل هذه القضايا، والثانية اتهام المفسرين أو الشراح المخالفين بإنكار مسائل إيمانية. ومثل هذا المنهج قد يفضي إلى أن يصدر كل عالم قائمة خاصة به في "أصول الإيمان"، مما يؤدي إلى إضعاف مكانة

—— إشكاليات واردة على موقف غامدي ——

الأصول المتفق عليها والمجمع على قطعيتها.

من هنا تتأكد الحاجة إلى إبقاء أصول الإيمان بعيدة عن مثل هذه الخلافات والنزاعات، وصيانتها من أن تختلط بالمسائل التي هي بطبيعتها مجال للاجتهاد والتأويل.



ملخص المباحث المتقدمة

تصور نزول المسيح

في تراثنا العلمي يُعرض موضوع المجيء الثاني للسيد المسيح عليه السلام تحت عنوان "نزول المسيح". والمقصود به أنّه ما زال حيّاً في السماء، وأنّه سينزل مباشرة إلى الأرض قبيل قيام الساعة.

استدلالات العلماء

العلماء استدلّوا لهذا تصوّر القرآن الكريم وبالسّنة النبويّة، وأبرز ما ذكره:

١. من آيات سورة آل عمران ٥٥-٥٢: قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلّي﴾. يفهمون من هذا أنّ الله تعالى رفع المسيح حيّاً بجسده وروحه، وأن لفظ ﴿متوفيك﴾ هنا لا يعني الإمامة، بل الأخذ والتحويل إلى الله، ومن ثم لم تقع وفاته بعد.
٢. من آية سورة النساء ١٥٩: ﴿وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل

موته». أي: لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا وسيؤمن بالمسيح قبل موته. واستنتجوا أنّ هذا لا يتحقق إلا بنزوله في آخر الزمان، حيث يؤمن به جميع أهل الكتاب آنذاك.

٣. من الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة: جاءت روايات عديدة في كتب الحديث المشهورة تذكر نزول المسيح عليه السلام قرب دمشق على منارة بيضاء، ومعه الملائكة، فيقود صفوف المسلمين ضدّ الدجال وجموعه من اليهود، ويقضي عليهم. ثم بدعائه يهلك الله يأجوج ومأجوج. بعدها يسود السلام العالم، ولا يبقى على الأرض دين غير الإسلام. يُذكر أنّه سيحكم أربعين سنة بصفته إماماً عادلاً. -ثم يتوفاه الله، ويصلي المسلمون عليه، ويدفنونه في الأرض. -وبعد وفاته لا يطول الزمن حتى تقوم الساعة.

إشكالات الأستاذ غامدي حول نزول المسيح

إنّ الأستاذ جاويد أحمد غامدي يعدّ تصوّر نزول المسيح عليه السلام موضع نظر، والسبب في ذلك هو الإشكالات التي تنشأ عند عرض هذا التصرّو على ضوء القرآن الكريم، وتمحيص الأحاديث الواردة فيه بمقاييس الرواية والدراية. وهذه الإشكالات كما يلي:

١- إنّ شخصية المسيح عليه السلام عُرضت في القرآن الكريم من جوانب شتى. فقد علّق القرآن في مواضع كثيرة على دعوته وشخصيته،

كما أن أحداث يوم القيامة من موضوعاته الخاصة. فحادثة نزول نبي جليل القدر حيًّا من السماء ليست بالأمر الهين. ومع ذلك، فمع وجود مناسبات كثيرة للبيان، لم يرد في المصحف أيّ تلميح ولو أدنى إلى هذا الحدث. فهل يطمئن العلم والعقل إلى هذه الصمت؟ ليس من السهل تصديقه.

٢- في سورة المائدة (٥: ١١٦-١١٩) نقل القرآن حوارًا بين الله تعالى والمسيح عليه السلام، وسيقع ذلك يوم القيامة. يسأله الله تعالى عن ضلالة النصارى في أصل عقيدتهم: ﴿هل قلت لهم أن يتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾؟ فيجيب المسيح بأنه قال لهم ما أمر به فقط، ويضيف: ﴿ما دمتُ فيهم كنتُ رقيبًا عليهم، فلما توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم﴾. فانظر هنا: لو كان المسيح قد رجع إلى الدنيا مرة أخرى، لما ناسبت هذه الجملة الأخيرة، بل لكان ينبغي أن يقول: إني أعلم تمامًا ضلاتهم، وقد عدتُ إليهم منذ قليل وأذرتهم بذلك.

٣- في سورة آل عمران (٣: ٥٥) بيّن القرآن الكريم بشأن المسيح عليه السلام منهجًا يمتدّ إلى قيام الساعة. وهذا كان موضعًا مناسبًا، إذ عندما يذكر الله تعالى بوضوح ما سيقع له ولأتباعه إلى يوم القيامة، أن يُصرّح أيضًا بأنه سيُرسله مرة أخرى إلى الدنيا قبل القيامة. ولكن الله لم يفعل ذلك. فإذا كان نزول المسيح حقًّا واقعًا، فما سرّ هذا السكوت؟ لا يُفهم له وجه.

٤- أقدم ما وصل إلينا من كتب الحديث هو صحيفة همام بن منبّه، وقد جُمعت قبل سنة ٥٨ هـ بقليل. وهذه الصحيفة لا تشتمل على رواية نزول المسيح. وهي تضم في مجموعها (١٣٨) حديثًا، كلّها من مرويات الصحابي أبي هريرة رضي الله عنه، الذي يُعدّ من أبرز رواة أحاديث نزول المسيح. والمثير للدهشة أنّه حين أُملى أحاديثه على تلميذه المباشر همام بن منبه لم يدرج فيها رواية نزول المسيح، مع أنّه قد رواها في مواضع أخرى. والأغرب من ذلك أنّ هذه الصحيفة نفسها تضم بعض الروايات المتعلّقة بالمسيح عليه السلام وبالرجال، لكن الرواية الأهم عن نزول المسيح وقتله للرجال غير موجودة. كذلك وردت فيها خمس روايات عن علامات الساعة، ومع ذلك لم يُذكر فيها نزول المسيح، الذي هو أبرز تلك العلامات.

٥- أمّا الموطأ فهو أول مصنّف حديثي كامل بالمعنى الدقيق. وقد خلا هو الآخر من روايات نزول المسيح. ألفه الإمام مالك بعد جهد أربعين سنة، وأتمه سنة ١٤٠ هـ. أما سائر كتب الحديث فقد أُلّفت بعده بما يقرب من مئة عام. والإمام مالك صتّفه في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاش بعد اكتماله زهاء أربعين عامًا، يدرّسه ويراجعه باستمرار. فإذا كانت هناك رواية مثل نزول المسيح. وهي من الروايات العجيبة اللافتة. فلم تصل إلى الإمام مالك رغم قرب عهده بزمان الصحابة، فهذا أمر يثير الإشكال. وإن كانت قد وصلت إليه ولكنه لم

يقبلها، فذلك أيضاً مثار إشكال. والأعجب من هذا كله أنه خصّص في كتابه باباً بعنوان "باب صفة عيسى بن مريم والدجال"، ومع ذلك لم يورد فيه إلا رواية واحدة، وهي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى في رؤياه المسيح والدجال.

٦- إن الأحاديث المرفوعة الواردة في نزول المسيح عليه السلام تزيد على ثمانين حديثاً، وقد رويت عن نحو ثلاثين من الصحابة الكرام. غير أنّ الإمام البخاري لم يخرّج منها إلا ثلاث روايات مختصرة فقط، وكلها عن صحابي واحد هو أبو هريرة رضي الله عنه. ومن هذه الثلاث، اشتتان هما في الأصل طُرُق مختلفة لحديث واحد. والراوي الأساس فيها هو ابن شهاب الزهري، أي إن الإمام البخاري اعتبر في هذا الباب روايات الزهري وحده. وهذا المسلك من البخاري يكشف عن نوع من التردد عنده في شأن مجمل الروايات المتعلقة بنزول المسيح.

٧- وأما مسلم (رقم ٧٤٦٠) فقد أخرج حديثاً مفصلاً في نزول المسيح، يوضح أنّه سينزل في اللحظة التي تكون فيها جيوش المسلمين قد فتحت القسطنطينية، ثم بلغها خبر خروج الدجال، فترجع بسرعة إلى المدينة. لكن الحقيقة التاريخية المعلومة أنّ القسطنطينية قد فُتحت فعلاً يوم ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م، الموافق ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، ولا تزال منذ ذلك الوقت في أيدي المسلمين، بل أصبحت باسم "إسطنبول" أكبر مدينة في الدولة الإسلامية تركيا. وهذا يعني

أنّ الوقت الذي حدّته رواية مسلم لنزول المسيح - أي مباشرةً بعد فتح القسطنطينية - قد مضى فعلاً في يونيو/يوليو ١٤٥٣م. لقد فُتحت القسطنطينية، ولكن لا الدجال ظهر، ولا المسيح عليه السلام نزل. وبناءً على ذلك، فلا بد من ترجيح إحدى فرضيتين:

- إما أن يكون ذكر نزول المسيح في الرواية صحيحاً، ولكن ما أضيف إليها من فتح القسطنطينية وجيشها الفاتح زيادة من الراوي.
- أو أن يكون ذكر فتح القسطنطينية صحيحاً، وأما نزول المسيح فزيادة.

ولا يمكن قبول الحديثين معاً، لأن أحدهما قد وقع قبل أكثر من ٥٧٠ سنة، ولم يقع الآخر. والمشكلة أنّ ترجيح أحد الطرفين دون الآخر يضع كامل الرواية موضع الإشكال، لأن النبوة إذا نُقلت صحيحة لا يدخلها أدنى تغيير أو تبديل؛ فهي قضاء إلهي يقع تماماً كما خرج من لسان النبي صلى الله عليه وسلم. وهنا يجدر التذكير بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بشر بالجنة الجيش الذي يغزو القسطنطينية.

وقد حاول علماؤنا معالجة هذا الإشكال لا بترجيح أحد الاحتمالين ولا بالتوقف عن قبول الرواية، بل بتأويلها؛ فقالوا: إن الفتح الذي وقع سنة ١٤٥٣م ليس هو الفتح المقصود في الرواية، بل ستقع للقسطنطينية فتحٌ آخر في المستقبل، وعندئذ ينزل المسيح عليه السلام، وتتحقق سائر الوقائع التي وردت في الحديث المذكور.

إشكالات عقلية على هذا التأويل

يُورد على هذا التأويل جملة من الإشكالات العقلية:
أولاً: إن للقسطنطينية خلفية تاريخية استثنائية؛ فقد ظل المسلمون قرونًا طويلة يجاهدون لفتحها، مستحضرين في ذلك بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تحقق لهم الفتح على يد السلطان محمد الفاتح. ومن ثمّ، فلو فُتحت مرة أخرى فلن تكون تلك الفتوح الثانية بمستوى الفتح الأول في عظمتها وشمولها التاريخي.

ثانيًا: قبول هذا التأويل يستلزم افتراض رجوع عجلة الحضارة إلى الوراء؛ أي عودة الأزمنة التي كانت الحروب فيها تُخاض بالرمح والسيوف، وانتهاء عصر الجيوش النظامية القائمة على المرتزقة والرواتب، وعودة النمط القديم الذي تُقسم فيه الغنائم بين الجنود بعد الانتصار. وهذا خلاف الواقع المعاصر الذي يقوم على الأسلحة النارية والنووية والكيميائية. ثالثًا: يقتضي ذلك أيضًا افتراض أن إسطنبول (القسطنطينية) سترجع ثانية إلى قبضة الروم، وتستعيد في العالم ذات المكانة الدينية والسياسية التي كانت لها في القرن الخامس عشر الميلادي أو قبله. وهذا أمر بعيد جدًا عن مجريات التاريخ الحديث.

رابعًا: إن التسليم بهذا التأويل يُفقد الرواية - أو مجموع الروايات - صفة النبوءة. إذ النبوءة لا تكون نبوءة إلا إذا دلّت على خبر محدد، موقت، بين المعالم. فإذا لم يكن فتح القسطنطينية متعينًا ولا معلومًا

هل هو الفتح الأول أم الثاني، فأَيّ وجه يبقى حينئذٍ لاعتبار ذلك إخبارًا غيبياً مستقبلياً؟

خامساً: إذا كان أحد وقائع الرواية - وهو فتح القسطنطينية - مبهم المصدق، فكيف يُمكن الجزم بأن الوقائع الأخرى المذكورة معها - مثل نزول المسيح أو خروج الدجال - واضحة المعنى والمصدق خالية من الإبهام؟

نزول المسيح وعلامات الساعة

تفيد الروايات أن نزول المسيح من أعظم علامات الساعة. وقد وردت أحاديث تعدّد علامات القيامة: بعضها يذكر ثلاثاً، وبعضها أربعاً، وبعضها ستاً، وبعضها عشراً، وإذا جُمعت هذه الأحاديث تخرج بعشرين علامة تقريباً. من أبرزها: نزول المسيح، خروج الدجال، يأجوج ومأجوج، الدخان، الدابة، طلوع الشمس من مغربها، خسوف الأرض في المشرق والمغرب والجزيرة العربية، ولادة الأمة ربّتها، خروج نار من اليمن تسوق الناس، ريح تقبض أرواح المؤمنين، موت عام، ظهور ثلاثين دجالاً كذاباً، كثرة النصارى والروم، والتباهي في تشييد الأبنية العالية، وغير ذلك.

وبلا شك، فإن نزول المسيح هو العلامة الأبرز والأعجب بين هذه العلامات جميعاً، والأوضح دلالة ومصدقاً. ومن الطبيعي - وفق

العقل والتجربة - أن تُذكر هذه العلامة في كل تعداد لعلامات الساعة، لأنها أوضحها وأشدّها تأثيرًا.

لكن الواقع أن عددًا من روايات علامات القيامة لم يذكر نزول المسيح أصلًا:

• ففي صحيح مسلم (رقم ٧٥٨٤) ذكرت ست علامات دون الإشارة إلى نزول المسيح.

• وفي صحيح البخاري (رقم ٧١٢١) ذكرت إحدى عشرة علامة، منها خروج الدجال، ولم يُذكر نزول المسيح.

• وفي سنن الترمذي (رقم ٣٠٧٢) ثلاث علامات فقط، ولا ذكر فيها لنزول المسيح.

• وفي مسند أحمد (رقم ٢٣٩٩٦) ست علامات، كذلك خلت من نزول المسيح.

وهذا النقص والتفاوت يثير إشكالًا عقليًا كبيرًا: كيف تُترك العلامة الأوضح والأشد غرابة، بينما تُذكر علامات أقل شأنًا؟

التعارض في الروايات

رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم في تبليغ الدين، وأقواله من الله تعالى، فلا يمكن أن تتضمن تناقضًا أو اضطرابًا. وقد قرر علماء الحديث أنه إذا بدا التعارض بين روايتين، فالواجب الترجيح بحسب

موافقة القرآن والسنة والعقل، فإن لم يمكن فبالتأويل وفق الظروف والسياق، فإن تعدّر فبالتوقف وعدم الاحتجاج بها. وروايات نزول المسيح تتضمن صوراً من التعارض، منها: أنها تنص على أن عيسى عليه السلام يقضي على اليهود والنصارى حتى لا يبقى في الأرض إلا المسلمون، وأن القيامة تقع حينذاك. بينما تروي أحاديث أخرى - مثل رواية مسلم (رقم ٢٨٩٨) - أن القيامة ستقوم والناس أكثرهم نصارى! وهذا تعارض بين يصعب رفعه.

إشكالات أدّت إلى موقف غامدي

يرى الأستاذ جاويد أحمد غامدي أنّ هذه الإشكالات تمنع من قبول ما نُقل في الروايات بشأن نزول المسيح ومتعلقاته على أنّها وقائع محددة، محسوسة ومشهودة. وإلى جانب ذلك، لا يجوز نسبة هذا التصور إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ نسبة أمرٍ مشتبّه وغير يقيني إلى شخصه الكريم تنافي الدين والإيمان.

بعد ذلك يثور السؤال: إذا كان غامدي لا يرى صحة نسبة التصور المعروف عن نزول المسيح إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهل يعني ذلك أنه ينكر جميع الروايات الواردة في هذا الموضوع؟ الجواب: بالنفي. فالأستاذ غامدي في الأصل يقبل كل هذه الروايات، ولكنه يؤوّلها في ضوء ما ورد في سنن ابن ماجه (رقم ٤٠٨١) من حديث عبد

الله بن مسعود رضي الله عنه. ففي هذا الحديث جاء أنّ ذكر نزول المسيح وقتل الدجال إنما صدر من المسيح عليه السلام نفسه أمام النبي صلى الله عليه وسلم عند حادثة المعراج. ووفقاً للرواية، حين التقى النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم السلام في رؤيا الإسراء والمعراج، دار الحديث أيضاً حول وقوع القيامة، وعندها أخبر عيسى عليه السلام أنّه سينزل قبل القيامة ويقتل الدجال.

إلا أنّ أستاذنا الجليل يرى أنّه لا يمكن حمل لفظي "فأنزل" و "فأقتله" (سأنزل وأقتله) على معناهما الظاهري بحيث يُفهم منهما أنّ المسيح عليه السلام سينزل بشخصه من السماء. ولذا يقدّم سببين رئيسيين لذلك:

١. القرآن الكريم يرفض هذا الفهم.

٢. الوقت المحدّد لوقوع نزول المسيح - كما ورد في الروايات - قد مضى ولم يقع الحدث. فالزمان المضبوط هو سنة ٨٥٢هـ / ١٤٥٣م، أي قبل نحو ٥٢٠ سنة، ولم ينزل المسيح خلالها، كما لم يظهر الدجال ليقتل على يده. ولو كان المراد من ألفاظ النزول هو نزوله الشخصي، لكان من اللازم أن يظهر الدجال في ذلك التاريخ وأن ينزل المسيح ليقتله، لكنّ التاريخ يشهد بخلاف ذلك.

بعد ذلك، لا يبقى أمامنا سبيل لقبول نزول المسيح إلا أن نعدّه تمثيلاً ونفسه تفسيراً مجازياً. والسبب في ذلك أنّ الحقائق التي يريها

الله تعالى لأنبيائه عليهم السلام على سبيل الرؤيا الصادقة، قد تأتي أحياناً مطابقةً تماماً لما سيقع، وأحياناً تحتاج إلى تعبير. وبخاصة فيما يتعلق بأحداث المستقبل ووقائعه، يكون الغالب أن تُعرض تلك الحقائق في عالم الرؤيا على صورة التمثيل والتشبيه، فتظهر الوقائع القادمة في هيئة أمثلة متجسدة. وقد يتمثل المثل على هيئة واقعة محسوسة، وقد يلقى على لسان النبي بصيغة حكاية أو خبر، وفي كلتا الحالتين تكون العلاقة بين المثل والحدث علاقة تشبيه.

ومثل هذه الرؤى التي نقلها القرآن والحديث، نجد أن بعضها ورد تعبيره في القرآن نفسه. فإبراهيم عليه السلام رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، وتعبير ذلك أنه يقدمه قرباناً لله تعالى ويجعله خالصاً في خدمة بيته الحرام. وكذلك يوسف عليه السلام رأى في المنام الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين، ولم يكن المقصود أن هذه الأجرام السماوية ستسجد له حقيقةً، بل كان التعبير أن أبويه وإخوته الأحد عشر سيخضعون له احتراماً.

وبناءً على هذا الاستدلال، قرّر أستاذنا الجليل أن ما ورد من خبر نزول المسيح إنما هو تمثيل. وحدّد مصداقه في ضوء نظائر وردت في القرآن والإنجيل والأحاديث. وعليه، فمقصود نزول المسيح ليس نزوله الشخصي، بل نزول هدايته التي ضيّعها النصارى تماماً. أي أن قوله: «سأنزل» لم يكن معناه رجوعه بنفسه إلى الأرض، بل عودة رسالته

وتعاليمه إلى الظهور من جديد.

وهو يرى أنّ هذه التمثيلية تشبه تماماً ما قاله المسيح عليه السلام عن إقامته للعدل؛ إذ عبّر عن قيام عدالته بلفظ «مجيئه» و«عودته». فقد جاء في إنجيل متى بوضوح أنّه، بصفته رسولاً، عبّر عن إقامة حكمه العادل بمصطلح المجيء، فقال: "كما كان في أيام نوح، هكذا يكون في أيام مجيء ابن آدم. فكما كانوا يأكلون ويشربون ويتزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يشعروا حتى جاء الطوفان فأخذهم جميعاً، كذلك يكون في مجيء ابن آدم." (متى ٢٤: ٣٧-٣٩)

يتّضح من هذا أن موقف أستاذنا الجليل في قضية نزول المسيح مبنيّ على قياس ألفاظ الحديث ومصادقها على ألفاظ الإنجيل ومصادقها. أي إنه قاسّ عبارة الحديث: "سأنزل أنا (عيسى ابن مريم)" على عبارة الإنجيل "سيأتي ابن الإنسان (عيسى ابن مريم)"، وحمل المصدق في كليهما على المجيء المجازي لا الحرفي. فكما أنّ مجيء المسيح في نبوءة الإنجيل كان معناه مجيء عدالته وتجليها في التاريخ، فكذلك المراد من مجيئه في الحديث هو مجيء هدايته وظهورها.

وعلى هذا يثار سؤال: إذا كانت هداية المسيح قد جاءت بالفعل قبل ألفى عام، فما معنى عودتها من جديد؟ وما الحاجة إليها؟
الجواب: المراد بها تجديد هدايته وإحيائها، أي أن هذه الهداية ستظهر ظهوراً ثانياً. وهذا أمر لازم، لأن هدايته الأصلية قد مُحيت

تمامًا من فكر أتباعه وعملهم، وحلَّ مكانها دين آخر يناقض هدايته من الأساس. وهذا الانحراف لم يحدث في رسالة أي نبي آخر بمثل هذه الصورة الخطيرة. ويتجلَّى هذا الانحراف في ثلاثة مظاهر استثنائية:

١. أن هداية المسيح جُرِّدت من أساسها وهو التوحيد.
٢. أن شريعته المصدَّقة أُلغيت كليًّا.
٣. أن الاعتقاد شاع بأن المسيح صُلب ليتحمل خطايا البشرية كلّها.

وفي هذا السياق يرى الأستاذ غامدي أن المراد هو أنه قبل القيامة ستُستعاد هداية المسيح بصورتها الأصلية. والراجح أن ذلك سيكون على هيئة حركة إصلاحية ونهضة دينية داخل النصراني أنفسهم، تنقض ما وضعه بولس الرسول، وتعيد إحياء الدين الحقيقي لعيسى عليه السلام. وهذا هو ظهور هدايته ودعوته من جديد. وعند تحقق ذلك:

- ستُكسر الصليب: أي يُدمَّر مع كل رموزه ومعتقداته.
- وسيُقتل الخنزير: أي تعود الشريعة التي حكمت بجرمة لحم الخنزير.

• وتنتهي العداوة بين المسلمين والنصارى: أي حين يرجع النصارى إلى الهداية الأصلية، ويتركون عقيدة التثليث، ويؤمنون بالتوحيد، تزول أسباب الصراع بينهم وبين المسلمين.

موقف الأستاذ غامدي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ
وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾^١

يُستدل عادةً بهذه الآية على أن عيسى عليه السلام رُفع إلى السماء
حيّاً بجسده وروحه، وأنه لم يمت بعد. ودليلهم أن كلمة ﴿متوفيك﴾
لا تعني هنا الموت، بل الأخذ والاستيفاء، وأن قوله: ﴿رافعك إلي﴾ المراد
منه رفع شخص المسيح كاملاً، بروحه وجسده معاً.

يرى الأستاذ جاويد أحمد غامدي أن كلمة "توفي" استعملت هنا
صريحاً بمعنى الوفاة، ولا يصح حملها على معنى "الأخذ كاملاً". وأدلته
فيما يلي:

أولاً: المقرّر في علم اللغة أنّ معانى الألفاظ والأساليب تُحدّد من
خلال معناها المعروف والمستعمل في الاستعمال الشائع. وكذلك يُحكم
من خلال العرف اللغوي هل استعمل اللفظ في معناه الحقيقي أو في
معناه المجازي. وعليه، فمعنى "توفي" لا يُحدّد بمجرد الرجوع إلى معاجم
اللغة ورؤية احتمالاتها المختلفة، وإنما يُحدّد من خلال استعماله في
الجملة. وما يقرره عرف اللغة في هذا الاستعمال فهو الذي يجب قبوله.
ثانياً: من المعلوم أيضاً أن معنى الفعل في أي جملة لا يُحكم به بمجرد
الفعل نفسه، بل يتحدد بالنسب التي أُسند إليها ذلك الفعل. وفعل

^١ آل عمران ٣: ٥٥.

"توفى" يختلف معناه باختلاف ما يُسند إليه. فقد ذكر صاحب أقرب الموارد أربع نسب بارزة له:

- إذا جاء مفعوله شيئاً مجرداً فمعناه "الأخذ كاملاً".
- وإذا كان المفعول "مدة"، فالمعنى هو "انقضاء المدة".
- وإذا كان المفعول "عدد القوم"، فالمعنى "استيفاء العدد وحصره".
- وإذا كان الفاعل هو الله تعالى والمفعول إنساناً، فالمعنى هو "قبض الروح" أي إماتته.

وفي قوله تعالى: ﴿إني متوفيك﴾، الفاعل في الضمير المتكلم "إني" عائد إلى الله، والمفعول في ضمير الخطاب "ك" عائد إلى عيسى عليه السلام. أي أن الفعل صادر من الله ومنسوب إلى إنسان هو المسيح عليه السلام، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون معناه إلا قبض الروح، الذي نتيجته الحتمية هي الموت. ومن ثم، فبحسب لسان العرب لا يمكن أن يُراد هنا غير وفاة المسيح عليه السلام. وشواهد القرآن والحديث أيضاً تدل على أن "توفى" إذا أُسند إلى الله وإلى إنسان فالمعنى دائماً "قبض الروح". ولا توجد ولو آية أو حديث واحد يخالف هذه القاعدة.

أما قول الله: ﴿ورافعك إلى﴾ (أي: سأرفعك إلى) فحمل ضمير الخطاب فيه على أن معناه رفع المسيح حياً إلى السماء مخالف لأسلوب اللغة. وتفسير الأستاذ لهذا أن معنى "الرفع" لا يتحدد بمجرد الفعل،

ولا يجوز تأويل ما قبله وما بعده على أساس المعنى المجرد للفعل. بل إن معنى قوله: ﴿رافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا﴾ يتحدد بما سبق وهو قوله: ﴿إني متوفيك﴾. فبما أن "توفى" معناه يقيناً "قبض الروح" أي الوفاة، فلا مجال لاستنباط معنى من الألفاظ التالية يناقض الوفاة أو يخالفها. ولهذا حمل الأستاذ ضمير الخطاب في ﴿رافعك﴾ على جسد عيسى عليه السلام الذي قبضت روحه. ورأى أن هذه خصوصية أكرمه الله بها، ليحفظ جسده الطاهر من أي أذى أو امتهان.

موقف غامدي من تفسير قوله تعالى: ﴿وليؤمننّ به قبل موته﴾

أكثر العلماء والمفسرين يرون أن الضميرين في آية سورة النساء (١٥٩): ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ يعودان إلى عيسى عليه السلام. فيفهمون من ذلك أنه "ما من أحد من أهل الكتاب إلا سيؤمن بعيسى قبل موته، وسيكون عيسى يوم القيامة شهيداً عليهم". وهذا عندهم دليل على حياة المسيح ونزوله آخر الزمان.

أما عند الأستاذ جاويد أحمد غامدي، فالسورة نزلت بعد الهجرة حين قامت دولة الإسلام في المدينة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم بإتمام الحجة على أهل الكتاب وتركية المسلمين. والسورة عدد

آياتها ١٧٦، لكن مضمونها الأساسي اكتمل عند الآية ١٢٦، وما بعدها إلى النهاية ملحق يتضمن أجوبة عن أسئلة واعتراضات المخاطبين. ومن ذلك ما جاء في الآية ١٥٣: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾.

وقبل الجواب على مطلبهم، ذكرت خطاياهم العظيمة، ثم جاء الجواب بقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾. أي: "ما من أحد من هؤلاء أهل الكتاب إلا وسيؤمن بهذا (القرآن) قبل موته، وسيكون هذا (القرآن) يوم القيامة شاهداً عليهم."

وعليه، قرر غامدي أن الضمير في "به" يعود إلى القرآن الكريم، والضمير في "موته" يعود إلى كل فرد من أهل الكتاب المخاطبين بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة. وهذا هو التفسير الوحيد الذي يقبله موضوع الكلام وسياق الآية وتركيبها. وأما تفسير العلماء التقليدي، فالسياق يرفضه. وحتى لو سلمنا به تنزلاً، فلا سبيل لتحديد صورته التطبيقية، فيبقى معلقاً على المحال، وتخرج الآية بذلك عن معناها الموافق للواقع.



آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح

بعض علماء العصر الحاضر لا يقولون بنزول المسيح عليه السلام، ولا يرون أن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء حيًّا ثم بقاؤه حيًّا إلى الآن أمرٌ صحيح. فهم يؤوّلون الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع بتأويلات مختلفة، ويعتبرون التأويلات الشائعة مخالفةً للسان والبيان. أمّا من جهة الأحاديث، فإنهم لا يقبلون نسبة الروايات الواردة في هذا الباب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويرونها من وضع الناس، بل نتيجةً لبعض التصدّورات الدخيلة.

ومن أبرز العلماء الممثلين لهذا الموقف:

العالم الحنفي المعروف الشيخ محمود حسن، فهو يقول بوفاة المسيح عليه السلام، ويرى أن مفهوم نزول المسيح لا أصل صريح له في القرآن الكريم. وأما روايات نزوله، فيعتبرها مأخوذة من مصادر يهودية. وهو يقول:

"هذه عبارات اليهود والصابئة التي شاعت بين المسلمين، وذلك بعد مقتل عثمان رضي الله عنه عن طريق الأنصار من بني هاشم الذين كانوا من الصابئة، وكذلك أشاعها اليهود الذين كانوا من موالي علي رضي الله عنه، ولم يفعلوا ذلك حباً، بل بدافع البغض للإسلام والمسلمين... فهؤلاء يقبلون تلك الروايات ويتأثرون بها، ومن المعلوم أن مرجع جميع العلوم الإسلامية ومنبعها هو القرآن العظيم، وليس فيه آية واحدة تدل دلالة صريحة على أن عيسى عليه السلام لم يمت، وأنه حيّ وسينزل، سوى بعض الاستنباطات والدلائل المأخوذة من بعض التفاسير، وهذه (أي الاستنباطات والتفاسير) لا تخلو من الشكوك والشبهات. فكيف يصح أن نجعل مثل هذا الأمر. مع ما فيه من الاحتمال. أساساً من أسس العقيدة الإسلامية؟"^١

كما أن الشيخ عبيد الله السندي قد ذكر في تفسيره الإلهام الرحمن عند تفسيره لآية سورة آل عمران (٣: ٥٥): ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أن معنى التوفي هنا هو "إماتتك"، أي قبض روحك بالموت. فيقول:

"قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعَيِّنِي إِنَِّّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^٢ ومعنى متوفيك مميتك. وأما ما شاع بين الناس من حياة عيسى عليه السلام فهي أسطورة يهودية وصابئية. وقد

^١ ترجمة: تفسير الإلهام الرحمن، الجزء الثاني، ص ٤٩، نقلاً عن: عقيدة ختم النبوة ونزول المسيح، قمر عثمانى، ص ٥٣-٥٤.

^٢ آل عمران ٣: ٥٥.

— آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح —

شاعت بين المسلمين بعد مقتل عثمان رضي الله عنه بواسطة أنصار بني هاشم من الصائب، ومن اليهود الموالين لعلي بن أبي طالب لا حبه بل انما أشاعوها بين المسلمين بغضاً في الإسلام وأهله بين من لم يتدبر معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^٣. واتخذها عقيدة ولا يفهم معني هذه الآية الكريمة إلا من يتقن الاجتماعية العامة ويكون ماهراً فيها. وأما من يؤمن بتلك الروايات، ويأتوننا بها فهم أبعد الناس من العلوم الاجتماعية، وإذا كانوا جاهلين بمعنى هذه الآية الشريفة فانهم يقبلون تلك الروايات ويتاثرون بها. ولا يخفى أن مرجع العلوم الإسلامية بأسرها ومنبعها هو القرآن العظيم. وليس في آية تدل صراحة على أن عيسى لم يمت. وانه حي سينزل إلا الاستنباطات وتفسيرات من البعض، ولا يخلو ذلك من شكوك وشبهة. وما كان بهذه المثابة كيف يمكن أن تتخذه مبنى عقيدة إسلامية؟^٤

العلامة محمود شلتوت، العالم المصري الشهير، قد اعتبر روايات نزول المسيح مضطربة ومتناقضة فيما بينها. وتعليقه عليها كما يأتي:

"إن هذه الروايات المضطربة مختلفة إلى هذا الحد في ألفاظها ومعانيها بحيث لا يمكن التوفيق بينها. وقد صرح بهذا الأمر نفس علماء الحديث. ثم إنها روايات وهب بن منبه وكعب الأحبار، وهما

^٣ الصف ٦١: ٩.

^٤ إلهام الرحمن ٢/ ٤٩ - ٥٠، المصدر نزول المسيح، قمر عثمانى ٥٤ - ٥٥.

— آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح —

من أهل الكتاب الذين أسلموا. ومكانتهما عند علماء الجرح والتعديل ليست خافية على أحد. أما الدليل الآخر الذي يذكره المفسرون فهو الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه إخبار عن نزول عيسى عليه السلام. فإذا سلّم ب صحة هذا الحديث، فهو خبر واحد، وإجماع علماء الأمة قائم على أن خبر الواحد لا يُثبت به عقيدة، ولا يُعتمد عليه في الأمور الغيبية.^٥

العالمُ الحديثي المَعروفُ الإمام شبير أحمد أزهر الميرتعي (١٩٢٣-٢٠٠٥)^٦ الذي له شرح حافل على البخاري -تحفة القاري بشرح صحيح البخاري -يرفضُ كُلياً روايات ظهور المهدي وخروج الدجال ونزول المسيح. وذلك في كتابه التحقيقي القيم دراسة نقدية لأحاديث الدجال.^٧ فمن وجهة نظره هذه الروايات تُعارضُ مبدأ ختم النبوة، ثمَّ إنّها لا يُمكن إدراجها في قائمة الروايات المقبولة بحسب المعايير المقررة في علم الحديث. وفي مؤلفه "أحاديث الدجال دراسة نقدية" يقولُ في مقدّمة الموضوع: "في عصرِ التابعين وتابعيهم اندفع سيلٌ جارفٌ من رواة الأخبار والأحاديث الكذّابين صانعي الأساطير، يريدون تدميرَ عقائد وأعمال

^٥ عقيدة ختم النبوة ونزول المسيح، قمر عثمانى، ١٣-١٥.

^٦ كان ينتمي إلى مدرسة ديوبند وهو إمام ومحدث ناقد شهير وشارح المؤطا ومسند الإمام أحمد والبخاري.

^٧ في هذا الكتاب تكلم على جميع ما روي في خروج الدجال ونزول المسيح وظهور المهدي روايةً ودرايةً وأثبت أنها كلها من الموضوعات المصنوعات.

— آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح —

الأمة المسلمة. وكان فيهم أعداء الحق من الروافض، وكان فيهم أهل الكتاب الذين أسلموا نفاقاً، وكان فيهم القصاص عشاق الشهرة والمكانة عند العامة، الذين أرادوا أن يُعترف بهم أئمةً وأعلاماً. أمّا الأحكام الشرعية المتواترة الثبوت فقد سلّمت من عبث هؤلاء الرواة، وكذلك التحريفات اللفظية التي حاولوا إدخالها في القرآن الكريم لم تنجح، لكن تحريفاتهم المعنوية راجت رواجاً كبيراً بفضل بعض المحدثين. هؤلاء الرواة الأشقياء لم يتركوا مجالاً إلا وملاؤوه كذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، خاصّةً في موضوع المهدي، وابن صياد، وخروج الدجال ونزول المسيح.

وفي هذا الكتاب، جرى فحص كل حديث روي في شأن الدجال ونزول المسيح وفق القواعد المقررة في علم الرواية والدراية، حتى لا يقع الناس في وهم، أو يظلّ الذين وقعوا فيه غارقين في الاعتقاد بأن من علامات الساعة خروج الدجال الأعور، الذي سيزعم الألوهية، ثم ينزل المسيح ابن مريم من السماء ليقتله، وبعد قتله يحكم أعواماً بالعدل وفق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يتوفاه الله ويدفن.

هذا كله وهم باطل، ولغو فارغ. والحقيقة أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، آخر أنبياء الله، ولن يأتي بعده نبي إلى قيام الساعة، لا أصالة ولا نيابة^٨.

^٨ ص ١٣٥.

— آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح —

كان مولانا أبو الكلام آزاد يرى أنّ تصوّر نزول المسيح لا يمكن الإيمان به إلا إذا ورد ذكره في القرآن الكريم بصراحة. وبما أنّ القرآن لم يذكر شيئاً من ذلك، فلا مجال لتسليمه. كتب في أحد رسائله:

"أما مسألة نزول المسيح عليه السلام، فهي مسألة في غاية الأهمية، ولو كان في أيّ زمن من الأزمنة خلاص المسلمين وسعادتهم متوقفاً عليها، لكان من اللازم أن يصرّح القرآن بها تصريحاً واضحاً، تماماً كما صرّح بجميع القضايا الدينية والعقدية الكبرى. ولكن من الواضح أنّ القرآن يخلو من أيّ تصريح في هذا الشأن، فلا وجه لأنّ نُجَبِّرَ على اعتقادها. عقيدتنا أنّه لن يأتي مسيح بروزي ولا حقيقي، فقد نزل القرآن، واكتمل الدين. فإذا كنتم طالبي حقيقة، فلا تخوضوا في هذه المنازعات ولا تسألوا عن هذه الخرافات. غايتنا البحث عن النجاة، فإذا كان القرآن كاملاً للنجاة، فالعقائد التي بيّنها القرآن كافية لنا، فلم ندخل في تكلفٍ لا طائل تحته؟"^٩

وقد وصف مولانا آزاد في رسالة أخرى هذا تصوّر أنّه عقيدة نصرانية تسرّبت إلى كتبنا: فإنه يقول لإحد مخاطبيه:

"العجب أنّ القلق ما زال باقياً في نفسك بشأن نزول المسيح. لقد أبنت رأيي من قبل، غير أنّي أشرتُ إلى الكتاب من أجل بسط الأدلّة. أمّا من دون التفصيل فلا سبيل إلى الاستقصاء. ولا شكّ أنّه لا بدّ من الاعتراف بأنّ هذه العقيدة في حقيقتها عقيدة نصرانية ظهرت

^٩ نُشرت في جريدة زميندار، لاهور، ٢٦ يونيو ١٩٣٦م.

— آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح —

في ثوب إسلامي، ولكن كيف ظهرت؟ فذلك مجال للبحث.^{١٠}
أما العلامة إقبال فكان يرى هذا التصوّر ثمرة مؤامرة عجميّة، ولم
يقبل رواياته. كتب في إحدى رسائله:

"في نظري، الأحاديث المتعلّقة بالمهدي والمسيح والمجدّد ليست
سوى نتيجة للتخيّلات الإيرانيّة والعجميّة، ولا صلة لها بالتخيّلات
العربيّة ولا بالروح الصحيحة للقرآن."^{١١}

أمّا العالم الديوبندي المعروف مولانا ظفر أحمد العثماني، فقد ذكر
ابنه قمر أحمد العثماني في كتابه عقيدة ختم النبوة ونزول المسيح أنّ
عقيدتي ختم النبوة وحياة المسيح متعارضتان. وفي نظره، كثير من
العلماء الكبار كانوا قائلين بوفاة المسيح. قال:

"كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول بوفاة عيسى
عليه السلام، ومن العلماء المتقدّمين ابن حزم وابن تيمية، وقد جعلوا
مسألة نزول المسيح من المسائل الخلافية (انظر: مراتب الإجماع
لابن حزم، ونقد مراتب الإجماع لابن تيمية). وفي عصرنا هذا نجد
علماء بارزين مثل مولانا عبید الله السندي، ومولانا أبو الكلام آزاد،

^{١٠} نقوش آزاد، ترتيب غلام رسول مهر، رسالة رقم ٤٧، ص ٩٩، دار النشر:
كتاب منزل، لاهور.

^{١١} كليات مكاتيب إقبال، المجلد الثالث، من يناير ١٩٢٩ إلى ديسمبر ١٩٣٤،
تحقيق السيد مظفر حسين برني، نشر: أكاديمية اللغة الأردية، دلهي، ١٩٩٣ م.

— آراء العلماء المخالفين لعقيدة نزول المسيح —

والعلامة تمنا عمادي القلواروي، والعلامة مولانا موسى جار الله،
والشيخ نور محمد مرشد المكي، والعلامة شاه محمد جعفر الندوي،
والعلامة إقبال، والشيخ محمود شلتوت المصري، والعلامة السيد
رشيد رضا المصري، والمولانا أمين أحسن الإصلاحي، وغيرهم من
العلماء وأهل الفكر، لم يقبلوا بصحة عقيدتي نزول المسيح وظهور
المهدي.^{١٢}

وأضاف قائلاً:

"لقد كان تصوّر حياة المسيح ونزوله دائماً ما يثير القلق في القلب
والعقل مع وجود عقيدة ختم النبوة؛ لأنّ هذين التصرّوين لا يجتمعان
أبداً. فإذا كانت عقيدة ختم النبوة حقاً، فلا وجه لانتظار مجيء نبي
آخر يمنح الإسلام غلبة حقيقية."^{١٣}



^{١٢} ص ٦-٧.

^{١٣} ص ٨-٩.



مركز غامدي للتعلّم الإسلامي (GCIL)، المورد، أمريكا